طَلِيْعَةُ الاسْتِهْدَاءِ بِالقُرْآنِ

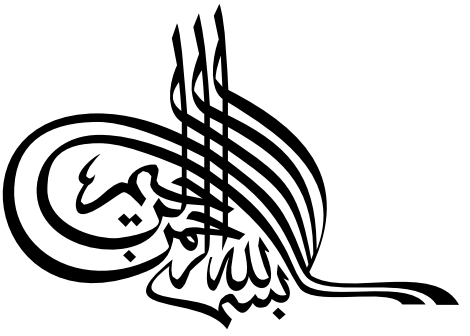
بسم الله الرحمن الرحيم

طَلِيْعَةُ الاسْتِهْدَاءِ بِالقُرْآنِ

دراسة تأصيلية تحليلية للمنهج والمنتج

بدر بن مرعي آل مرعي

طَلِيْعَةُ الاسْتِهْدَاءِ بِالقُرْآنِ

دراسة تأصيلية تحليلية للمنهج والمنتج

بدر بن مرعي آل مرعي

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولىٰ

١٤٤٦هـ/٢٠٢٤م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب
لا تُعبر بالضرورة عن نظر الناشر»

مُقاربة
للنشر والتوزيع

muqarbah@gmail.com

ⓒ مقاربة للنشر والتوزيع، ١٤٤٥هـ

آل مرعي، بدر بن مرعي
طليعة الاستهداء بالقرآن. / بدر بن مرعي آل مرعي-
ط١ - الدمام، ١٤٤٥هـ
٢٢٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع: ٢٥٠٤٥ / ١٤٤٥
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-١٤٩٧-٧

للوصول للحاضنة العلمية

للوصول للموزع المعتمد

للوصول للمتجر

كلمة الناشر

إنَّ نشر العلم والمعرفة فيه من اللذة ما لا يقل عن لَذة العلم ذاته في طلبه والسَّعي إليه، كيف وإن استحضر العبد في ذلك عبودية نشر هذا العلم، يتقرب به إلىٰ الله ويساهم في البلاغ والنَّفع، وحرصًا منَّا في مُقاربة لخدمة الفضاء العلمي والمعرفي والمساهمة في إثراء المكتبة الإسلامية والعربية، كان هذا الكتاب النافع، الذي نسأل الله بفضله وكرمه أن يُبارك فيه وفي كاتبه وكل من ساهم في جهده وعمله لخروجه في هذه الصورة.

وإننا في حاضنة مُقاربة نهيب بالباحثين وطلبة العلم والمعرفة المميزين مشاركتنا هذا النفع في النشر والتوزيع من خلال المقترحات البحثية والترجمات، وتقديم الدراسات والأبحاث الجادة ذات الإضافة العلمية.

الإهداء

قبل أكثر من عشرين سنة أتيت منزله بوقت غير مناسب للزيارة، اعتذرتُ كثيرًا لأن مشكلتي التي ساقتني إليه لم تكن عاجلة، قال لي: «**دع عنك هذا؛ من لا يفتح ثلاثًا لا يصلح أن يكون مربيًا: قلبه، وجيبه، وبيته**»؛ وإلىٰ اليوم لم يغلقها بوجه أحد من طلّابه.

إلىٰ شيخي المربّي الدكتور: **سليمان بن حربان المالكي**

هذا الكتاب ثمر غرسك، ونتاج درسك.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
القرآنُ أولًا . . . القرآنُ أبدًا	١١
الفصل الأوَّل: التأصيل، المِهاد المنهجيُّ لمصطلح الاستهداء	٢٧
المبحث الأوَّل: مُصطلح «الاستهداء بالقرآن» والمنهج المفهومي	٢٩
المبحث الثَّاني: معمار الاستهداء وموقعه في الممارسة التفسيريَّة	٤٨
المبحث الثَّالث: مسالك الاستهداء بالقرآن	٥١
الفصل الثَّاني: التعليل، بواعث الاستهداء بالقرآن	٦٩
المبحث الأوَّل: لأن القرآن ينبوع الهداية	٧٣
المبحث الثَّاني: لأن القرآن ينبوع الهداية اليقينيَّة	٧٨
المبحث الثالث: لأن القرآن ينبوع الهداية اليقينيّة المُغنية	٨٢
الفصل الثَّالث: التمثيل، نماذج للاستهداء بالقرآن	٨٧
المبحث الأوَّل: الاستهداء البيانيُّ	٨٩
المبحث الثَّاني: الاستهداء الإيمانيُّ	٩٧
المبحث الثالث: الاستهداء الإصلاحيُّ	١٠٨
الفصل الرَّابع: التكميل، مثارات الغلط في باب الاستهداء بالقرآن	١٧٥
المبحث الأوَّل: فتح المصحف للفأل	١٧٧
المبحث الثَّاني: الاقتباس والاستخفاف	١٧٨
المبحث الثَّالث: الاستدلال السطحيُّ	١٨٠

الموضوع	الصفحة

المبحث الرَّابع: الانطلاق الإنشائي قبل إحكام التأويل ١٨٢
المبحث الخامس: الإغراق في الإشارات ١٨٤
المبحث السَّادس: الاستطالة التداوليَّة ١٨٦
المبحث السَّابع: استهداء الزَّنادقة ١٨٩
المبحث الثَّامن: تجريد الهداية القرآنيَّة من معاني التوفيق الإيمانيِّ ١٩١
المبحث التَّاسع: الغلط في فهم القواعد والكليَّات ١٩٢
المبحث العاشر: ضرب الكتاب بعضه ببعض ١٩٤
الخاتمة ١٩٧
المصادر والمراجع ٢٠٥

القرآنُ أولًا ... القرآنُ أبدًا

أحمدُ الله استتمامًا لنعمه، واستدرارًا لكرمه، وأستوهبُ منه علمًا يُزلفُ إليه، وعملًا ينجِّيني بين يديه، فإنه لا حولَ للعبد ولا قوَّة إلا به، ولا نجاة إلا لمعتصمٍ بحبل قربه، له أذلُّ، وعليه أدلُّ.

وأصلِّي وأسلمُ علىٰ الفصيح إذا لفظ، النَّصيح إذا وعظ، بعثه الله نورًا بعد استحكام الظُّلمة، وغيثًا عند اشتداد النَّقمة، فاشتدَّ له من النفوس ما استرخىٰ، واسترخىٰ من النفوس ما اشتدَّ، وأعشب من القلوب ما أصحر، وعمر من الأرواح ما أقفر، به هدانا الله بعد ضلالة، ورفعنا من دركات الجهالة، قرَّةُ العين ونورها، وأنس النَّفس وسرورها، صلَّىٰ الله عليه صلاة تكسوني رداء محبته، وتحبوني شرف اقتفاء سنته، فقد أحببته بقلب فصيح، وجوارح متلعثِّمٍ كسيح.

ثلاثيَّة الفرح الإنسانيِّ والقرآنيِّ:

كنتُ تأملتُ دوافع الفرح عند الإنسان، فوجدتها تنحصر -أو تكاد- في ثلاث: نعمة الوجود، والأمان، والاستغناء، ولذا كانت مباهج الشعوب وأعيادهم تدور حول هذه المعاني: ففي فلك الوجود وولادة الذات والمجتمعات يأتي عيد البشارة، وهو اسم يعتقد فيه المسيحيُّون أنه يوافق لحظات تبشير جبريل عليه السلام للسيدة مريم العذراء عليها السلام بأنها تحمل في بطنها السيد المسيح عليه السلام، وفي ذات المساق نرىٰ عيد أستراليا الذي يوافق ذكرىٰ وصول أول أسطول من المهاجرين

بقيادة آرثر فيليب، وهذا يجلِّي معنىٰ الولادة والوجود المجتمعي. وعيد آخر وهو عيد الأول من مايو حين تحتفل به كثير من الدول تعبيرًا عن انتعاش الحياة بقدوم الربيع، وهي ولادة البهجة المناخيَّة. وكذا الأمر يمتدُّ في أفريقيا، فعند قبيلة (ناندي) بكينيا يغمر الإنسان رأسه بالماء ليتذكر رمزيَّة السائل المحيط بالجنين في الرحم، أما قبيلة (سارا) بتشاد فيتقوقع الإنسان داخل كوخ خشبيٍّ ليشير إلىٰ فكرة المكوث في الرحم، ثم يأتي الخروج والولادة إعلان بهجة وفرح، وعلىٰ هذا امتدَّ الأمر في فكرة أعياد الميلاد الشخصيَّة.

أما الاستغناء فتُبديه احتفالات عيد الشكر الأمريكي الذي يأتي فرحًا بالاستغناء بمحصولات العام عن غزو الآخرين، وفي ذات المسار كانت الأساطير الرومانيَّة تحدثنا عن الاحتفال بإله الحصاد (ساتورن) فرحًا بالوفرة والاستغناء، وهو ذات السبب الذي جعل قدماء المصريين يحتفلون عند ظهور (نجمة سوتيس) لأنه وقت فيضان النيل ووفرة الماء والاستغناء.

وأما الأمان فنراه في احتفالات اليهود بعيد فصحهم، وقد وقَّتوه احتفالًا بنجاتهم من الاستعباد المصري آنذاك، وهو شعور بالأمان كما هو جليٌّ للناظر[1].

وإنك حين تقلِّب ناظريك في عيد الفطر عند المسلمين تجده لطيفًا في مأخذه، فريدًا في حكمته، فالله ﷻ أنزل القرآن في رمضان حتىٰ عرَّفه به: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥][2]، وشرع فيه الصيام كسرًا للإلف . . . . . .

---

(١) انظر: **الموسوعة العربية العالمية**، (١٦/٧٢٣، وما بعدها)، و**الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان**، كلود ريفيير، ص١٨٦، ترجمة: أسامة نبيل، و**الإنسان والمقدس**، روجيه كايوا، ص١٤١، وما بعدها، ترجمة: سميرة ريشا، و**اختراع التقاليد، دراسة في نشأة التقاليد ودوافعها وتطوراتها**، هوبزباوم ورينجر، ترجمة: أحمد لطفي.

(٢) للإمام السهيلي (ت: ٥٨١هـ) تحرير دقيق في سبب ذكر لفظة «**شهر**» رمضان في الآية، وصف تحريره بأن أدنىٰ فوائده تساوي رحلة، وأن القارئ إن لم يعدل بها الدنيا بأسرها فما عرف =

والعادة[1]، وتفريغًا للقلب لواردات القرآن ومعانيه[2]، فكان نزول الكتاب فيه أماننا، وغناءنا، وولادة وجودنا، في حين تحتفل أمم الأرض بالقمح والماء.

وهذا المعنىٰ ينفذ للروح المتأمِّلة، فالقرآن يحقِّق لنا الأمان من كل ما نَكرهُ من كفرٍ وضلال ويأس، والاستغناء عن كل مناهج الأرض وأفكاره، والولادة الحقيقيَّة في خروجنا -بالقرآن- من الظلمات إلىٰ النور.

أتىٰ العيد فرحًا بنعم الله علينا، وأجلُّ النعم نزول القرآن في شهر رمضان ليكون مبتدأ كلِّ خيرٍ حازته الأمة في تاريخها، فالله سبحانه جعل القرآن نعمة ورحمة كما في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرَّحۡمَٰن: ١-٣]، فقدَّم نعمة القرآن علىٰ خلق الإنسان، إذ بها يتحقَّق وجوده الحقيقي، وتكون بدايته الروحيَّة، هذا في الولادة؛ وفي سورة النِّعم -النَّحل- ورد ذكر إنزال القرآن ثلاث مرات؛ مرتان منهما تذكِّر بنعمة الاستغناء والأمان، أما الأمان فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النَّحۡل: ٤]، ثم أعقبها بقوله: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النَّحۡل: ٥]، وفي الاستغناء والوفرة: قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النَّحۡل: ٦٤]، ثم تلاها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [النَّحۡل: ٦٥].

مظاهر الحفاوة الربانيَّة بالقرآن:

وحين أقول لك هذا المعنىٰ فإني أريدك أن تستشعر دقائق الحفاوة الربانيَّة بكتابه، وتفاصيل العظمة التي اقترنت به.

= حقها، وهذه الطربة التي تغشىٰ العالم عند لذة الفهم معفوٌّ عنها ولو بدت منها مخايل الفخر، انظر الفائدة في كتابيه: الروض الأُنُف، (٢/ ٤١٩-٤٢١)، ونتائج الفكر، ص٢٩٤-٢٩٧.

(١) انظر لهذه الحكمة في: إثبات العلل، للحكيم الترمذي (ت: نحو عام ٣٠٠هـ)، ص١٧٧-١٧٨، بتحقيق: خالد زهري.

(٢) نصَّ البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) علىٰ أن من أعظم مقاصد الصيام: «تصفية الفكر لأجل فهم القرآن». نظم الدرر، (٣/ ٥٧).

ومن مظاهر الحفاوة الربانيَّة بكتابه أنه أرسل به جبريل عليه السلام، الذي وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٩-٢١] وهذا دليل حفاوة بالغة.

ومن مظاهر الحفاوة الربانيَّة بكتابه أنه جعله عظيم التأثير، لا يقف له صلبٌ إلا تفتَّت كما قال تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١]، وهذا التأثير يبعث علىٰ التعظيم والرهبة، وقد لحظت أن الهداية بالقرآن نقطة تحوُّل لا تحتاج إلىٰ كثير ممهدات، وترسخ وتتجذر كلما سقاها، أما الهداية التي تسلك طرقًا أرضيَّة فيطول درب قاصدها، وتحتاج ظروفًا وقابليَّة وعناصر أخرىٰ.

ومن مظاهر الحفاوة الربانيَّة بكتابه كثرة أسمائه وأوصافه[1]، و«كثرة الأسماء تدل علىٰ شرف المسمَّىٰ»[2]، فقد سمَّاه: القرآن[3]، والكتاب[4]، والفرقان[5]، والذكر[6]، والتنزيل[7]، ووصفه بأنه: بلاغٌ[8]، وأحسنُ الحديث[9]، والحقُّ[10]، والصدقُ[11]، وعزيزٌ[12]، وعليٌّ[13]،

---

(١) سيمرُّ بنا في الكتاب عشرات الآيات، والأليق ألا نقفزها بأبصارنا استعجالًا لكلام البشر، فكلام الله أحق بالنظر والتأمل، وهذا من معاقد الاستهداء.

(٢) بصائر ذوي التمييز، (١/٨٨).

(٣) ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

(٤) ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

(٥) ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

(٦) ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

(٧) ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢].

(٨) ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

(٩) ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

(١٠) ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [يونس: ٩٤].

(١١) ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣].

(١٢) ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ [فصلت: ٤١].

(١٣) ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

وقيِّمٌ[1]، ومجيدٌ[2]، ومهيمنٌ[3]، وبشيرٌ[4]، وبصائر[5]، وحكيمٌ[6]، وذكرى[7]، وتذكرةٌ[8]، ومبينٌ[9]، ومفصَّلٌ[10]، وتفصيلٌ[11]، وموعظةٌ[12]، ونذيرٌ[13]، والهدى[14]، وخيرٌ[15]، ورحمةٌ[16]، وشفاءٌ[17]، وعجبٌ[18]، وكريمٌ[19]، ومباركٌ[20]، ومثاني[21]، ونورٌ[22]، والعلمُ[23]، والنَّبأ العظيم[24].

والحد المميز بين الاسم والصفة هنا فيه سعة اجتهادية عند السلف والخلف.

---

(١) ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢].

(٢) ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [سورة ق: ١].

(٣) ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

(٤) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤].

(٥) ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

(٦) ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

(٧) ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

(٨) ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

(٩) ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

(١٠) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

(١١) ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

(١٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧].

(١٣) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤].

(١٤) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١٣].

(١٥) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠].

(١٦) ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

(١٧) ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].

(١٨) ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

(١٩) ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧].

(٢٠) ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

(٢١) ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ [الزمر: ٢٣].

(٢٢) ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

(٢٣) ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١].

(٢٤) ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ [سورة ص: ٦٧].

ومن مظاهر الحفاوة الربانيَّة بكتابه أن الله نوَّه به في مفتتح أربع وثلاثين سورة[1]، ونوَّه به في مختتم ثلاثٍ وعشرين سورة[2].

ومن مظاهر الحفاوة الربانيَّة بكتابه أن الله أقسم بالقرآن في ثلاث سور، وأقسم علىٰ القرآن في ثلاث سور، وأقسم بالقرآن علىٰ القرآن في سورتين.

فأقسمَ بالقرآن، فقال سبحانه: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يٰسٓ: ١-٢]، وقال: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [سُورَةُ صٓ: ١] وقال: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [سُورَةُ قٓ: ١].

وأقسم علىٰ القرآن، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ [الطَّارِق: ١١-١٣]، وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الوَاقِعَة: ٧٥-٧٧]، وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [التَّكْوِير: ١٥-١٩].

وأقسم بالقرآن علىٰ القرآن، فقال: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ١-٣]، وقال جل وعلا: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدُّخَان: ١-٣].

ومن مظاهر الحفاوة الربانيَّة بكتابه أن الله أنزل تشريعات تظهر عظمته، تلقَّفها الفقهاء بالتسليم والتطبيق والتفريع؛ فجعلوا احترام المصحف أصلًا لا يقبل المساس، ومنها: اشتراط الطهارة لملامسته، وتحاشي التصغير في اسمه ورسمه، والحذر من تعريضه لمظانِّ الامتهان، والمنع من توسُّده، أو الاتكاء عليه، أو استدباره، أو مدِّ الرجلين إليه، أو رميه عند وضعه، أو استعمال الشمال في

---

(١) هي: البقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والكهف، وطه، والنور، والفرقان، والشعراء، والنمل، والقصص، ولقمان، والسجدة، ويس، وص، والزمر، وغافر، وفصلت، والشورىٰ، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، وق، والرحمن، والجن، والعلق، والقدر، والبينة.

(٢) وهي: الأعراف، ويونس، ويوسف، وإبراهيم، والكهف، والنمل، والروم، وص، وفصلت، والشورىٰ، والدخان، والنجم، والواقعة، والقلم، والحاقة، وق، والبروج، والمرسلات، والمدثر، والإنسان، والتكوير، والأعلىٰ، والبلد.

تناوله وأخذه، أو بلِّ الإصبع بالريق عند تقليب ورقه، أو الكتابة في حواشيه، أو السفر به إلىٰ أرض الكفار، أو كتابته علىٰ النقود، ومنع بيع المصحف عند أصحابنا الحنابلة، والتفصيل في حكم أخذ الأجرة لكتابته وتعليمه والإمامة به، وحظر إدخاله إلىٰ أماكن التخلي، ومنع تنكيسه، ومنع من استعجم عليه -بسبب النعاس- من إتمام نافلته، ومنع القراءة بلحون أهل الغناء، ومنع تحليته وتزيينه، وانعقاد يمين الحالف به، ومنع الاقتباس منه استخفافًا، وعدم قبول التشريك في نيَّة القارئ له، وتشريع سجود التلاوة، والحثُّ علىٰ القراءة بالتجويد[1].

ومن مظاهر الحفاوة الربانيَّة بكتابه تبجيل حملة القرآن، فقدَّمهم في الصلوات، وجعلهم مقدَّمين في القبر عند التزاحم، واعتدَّ بالقرآن الذي يحملونه مهرًا، وربط إجلالهم بإجلال الله، وجعلهم شفعاء، ووصفهم بأهل الله وخاصته، ووسمهم بـ«خيركم»، ومنحهم تاج الوقار إكرامًا لوالديهم.

❁ ❁ ❁

ولما رأيت هذه المكارم عزمتُ علىٰ التشرُّف بخدمة كتابه، والكشف عن درر خطابه، فما لبِس عبدٌ خِلع العز إلا بتدبُّره، ولا عاش خليًّا عن الهم إلا باتباعه وتقفُّره، فهو الكتاب الذي «حارت العقول الناصعة في رصفه، وكلَّت الألسن البارعة في وصفه»[2]، وكحال من أَطَّت روحُهُ من الكربات، ونثرت شملَهُ النَّائبات؛ كانت المعاني القرآنيَّة تُطيف بي ليلًا، ثم أصبحُ وقد هامت في أودية الهموم، لا أرىٰ إلا أثرها.

---

(١) مجمل هذه المسائل موجودة في مظانها من كتب الفقهاء، وممن جمع بعضها: **المتحف في أحكام المصحف**، للدكتور صالح الرشيد، و**الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم**، للدكتور عبد العزيز الحجيلان. وقد تفرد أبو داود في سننه (٤٤٤٩) بألفاظ بديعة لحديث الرجم عند اليهود؛ وفيه أنه قال لهم: ائتوني بالتوراة، فأتي بها، فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها، ثم قال: آمنت بك، وبمن أنزلك..».
وسواء كانت تلك نسخة من التوراة غير المحرفة، أو أنه عظَّمها لما بها من بقايا وحي= فهذا الحديث يدل علىٰ تعظيم القرآن وعدم وضعه بمقام مرذول من باب أولىٰ.

(٢) البصائر والذخائر، (١/ ٥).

حينها شرعتُ بختمات استهداء تفتيشيَّة، وحدَّدتُ لكل ختمة مفهومًا أتتبعه، أو اثنين، وأدوِّنها في أوراق تكون زوَّادة هذا الكتاب ومصدر استدلالاته[1].

ومن أمثلة المفاهيم التي خصصت لها ختمات استهداء: علاقة الهداية بنزول القرآن، ومنهج القرآن في تثبيت اليقين، ومنهجه في تقرير الإيمان وتفاصيل المعتقد، ومنهجه في الحجاج العقلي، ومنهجه في الاستدلال بالمحسوسات، ومنهجه في معالجة النوازع البشرية، وغيرها.

وإن من أوجه وصف كتاب الله بالكريم والمبارك والشفاء أنك حين تتبصَّر في أحوال المصنِّفين بشتَّىٰ العلوم، تجدهم ينقطعون عن التصنيف عند غلبة الهموم والأحزان، أو يتخفَّفون من شروط كمالهم في أحسن الأحوال، أما كتاب الله فلا تزيدهم نار البلاء إلا لموعًا في أذهانهم، ونضجًا لأفكارهم، وتمسُّكًا وانغماسًا في معانيه التي تُنسي وتشفي.

---

(١) هذه الممارسة التكشيفيَّة كان يصنعها بعض العلماء قديمًا لأغراض بحثية، منهم: الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، فقد سأله رجل عن سند الإجماع وحجيته، فغاب ثم أجاب قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥]، ثم قال: قرأت القرآن في كل يوم وليلة ثلاث مرات حتىٰ وقفت عليه». [رواه أبو بكر البيهقي بإسناده في أحكام القرآن الذي جمعه للشافعي، ص٩٠، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، (٥١/ ٣٦٣)، وقال التاج السبكي في الطبقات (٢/ ٢٤٥): وسند هذه الحكاية صحيح لا غبار عليه، وفي مرَّة أخرىٰ قال الشافعيُّ رحمه الله: لما أردت إملاء «**تصنيف أحكام القرآن**» قرأت القرآن مئة مرة. تاريخ دمشق، (٥١/ ٣٦٣).

وممن مارس هذا الضَّرب من الاستهداء شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، فقد وُجِدت أوراق بخطِّه لكشافات متعددة، وفيها: «الحمد لله رب العالمين، ذكر الآيات التي فيها الصلاة، أو الزكاة، أو الصلاة والزكاة»، وله كشاف كتَب فيه: «ما يوجب اتباع القرآن والرسول في سنته وأمره وفعله»، وله كشاف آخر عنوانه «الآيات التي فيها بطلان عمل الكافر والمنافق»، وله كشافات بمواضيع متفرقة تبلغ السبعة أو تزيد، وهذا يفسر جزءًا من قوة حضور الآيات باستشهاد متدفق في مصنفات الشيخ رحمه الله.

ومنهم الحافظ ابن حجر رحمه الله (ت: ٨٥٢هـ)، فقد وُجدَت أوراق مخطوطة لكشاف صنعه كتب فيه: «ذكر ما وقع في القرآن العظيم من خطاب المؤمنين بلفظ (يا أيها الذين آمنوا). انظر: «في تكشيف الآيات القرآنية: ممارسة قديمة لابن تيمية وابن حجر العسقلاني»، مقالة للدكتور محمد بن عبد الله السريّع.

وحين أصوِّر لك حالي وقت التصنيف، فإني أبغي بها المعذرة لا المفخرة، ومعاذ الله ثم معاذ العقل والمروءة أن أمنَّ علىٰ القارئ جهدي، أو أحمِّله مؤونة تعبي، فالصلة بكتاب الله منَّة من الله وحده، وهو المتفضِّل بالتقدير لي بأن أكون في قافلة المتحدِّثين عنه، وإن عرج مسيري، وعَظُم تقصيري.

وهكذا تمَّ أمر كتابي الذي تراه، له مني يومي، ولي منه غده حين ألقىٰ الله ﷻ، فالحمد لله علىٰ ما قضىٰ وارتضىٰ، وأستعينه أن يمدَّني بهمَّة تهوِّن كلَّ عائق؛ فالمكروب تقيِّده الشعرة، والقلِقُ لو ركب حائطًا لخشي أن يجمح به، ولكن الله وحده بيده التوفيق والعون والإمداد.

وعزائي أن عددًا ممن شرفوا بالحديث عن كتابه كانوا في أحوال كرب، وما لبثوا أن تلاشت شدَّتهم، وبقيت آثارهم، ومنهم:

الفخر الرازيُّ (ت: ٦٠٦هـ) حين ختم تفسير سورة يونس قال: «ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الأصم رجب سنة إحدىٰ وستمئة، وكنت ضيِّق الصدر، كثير الحزن، بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله علىٰ روحه وجسده أنواء المغفرة والرحمة، وأنا ألتمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين أن يخصَّ ذلك المسكين وهذا المسكين بالدعاء والرحمة والغفران»[1].

ومع استمراره في التفسير علىٰ عادته، إلا أنه حين وصل ختم سورة هود بنفس الشهر قال: «تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الإثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة سنة إحدىٰ وستمئة، وقد كان لي ولد صالح حسن السيرة فتوفي في الغربة في عنفوان شبابه، وكان قلبي كالمحترق لذلك السبب، فأنا أنشد الله إخواني في الدين وشركائي في طلب اليقين وكل من نظر في الكتاب وانتفع به أن يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة»[2].

ومنهم أبو السُّعود أفندي (ت: ٩٨٢هـ)، صاحب تفسير (إرشاد العقل السليم)، يقول عنه الفاضل ابن عاشور: «ولم ينقطع عن التدريس حتىٰ في ولايته

---

(١) مفاتيح الغيب، (١٧/ ٣١١).

(٢) السابق، (١٨/ ٤١٥).

قضاء العسكر وتنقُّله مع السلطان سليمان في فتوحه العظمىٰ بآسيا وأوروبا، فقد كان عند منازلته مع الجيش، بقيادة السلطان سليمان القانوني، قلعة بلغراد يدرِّس لبعض ملازميه من الطلبة سورة الفتح بتفسير الكشَّاف، ويملي حاشيته»[1].

ومنهم شيخ أصحابنا في زمانه عبد القادر ابن بدران (ت: ١٣٤٦هـ)، فقد «طُبع تفسيره الذي سمَّاه (جواهر الأفكار ومعادن الأسرار في تفسير كلام العزيز الجبار) عام ١٤٢٠ بعناية الأستاذ زهير الشاويش -رحمهم الله-، علىٰ نسخة خطيَّة وحيدة، كتبها المؤلِّف بيده، ميَّز فيه الآيات بحبر أحمر، ومعدل الأسطر في كل صفحة ثمانية عشر سطرًا، بخط دقيق تغيَّر كثيرًا، واضطرب في آخر المخطوط بسبب إصابة المؤلِّف بالشلل في يده اليمنىٰ في عام ١٣٤٢هـ، واضطرَّ لكتابته بيده اليسرىٰ»[2].

ومنهم الشيخ محمد عبد الله دراز (ت: ١٣٧٧هـ)، حيث روىٰ زوج ابنته الدكتور السيد محمد بدوي أنه سطَّر جزءًا من رسالته (دستور الأخلاق في القرآن) أثناء الحرب العالميَّة الثانية، وقال: «وأذكر أنه اضطرَّ - أثناء هجوم الحلفاء لتحرير فرنسا - لقضاء أيام طويلة مع أسرته في مخبأ تحت الأرض، كان يجمع فيه أوراقه التي يحرص عليها، ويشتغل وسط القنابل التي كانت تدوي من حوله، علىٰ ضوء شمعة أو مصباح خافت»[3].

ومنهم الأستاذ مالك بن نبي (ت: ١٣٩٣هـ) فقد قال في مقدِّمة كتابه (الظاهرة القرآنيَّة): «لم يُتَح لهذا الكتاب أن يرىٰ النور في صورته الكاملة، فالواقع أننا قد أعددنا[4] تأليف أصوله التي أحرقت في ظروف خاصَّة، وهو كما

---

(١) التفسير ورجاله، للفاضل ابن عاشور، ص١٣٢-١٣٣.

(٢) منهج ابن بدران في تفسيره، للدكتور عادل الشدي، ص١٢.

(٣) مقدمته علىٰ دستور الأخلاق في القرآن، ص(ط)

(٤) استعمال النون عند الكتّاب يُقصد به غالبًا الاشتراك بين الكاتب والقارئ، فقد فعلنا الأمر معًا، وليس المراد نون التعظيم، وهذا ملمح أشار إليه الحريري (ت: ٥١٦هـ) حين قال: «قول العالم: نحن نشرح، ونحن نبيِّن، مفسوح فيه؛ لأنه يخبر بنون الجمع عن نفسه وأهل مقالته». =

هو الآن، لا يكفي في علاج فكرتنا الأولىٰ عن المشكلة القرآنيَّة؛ فإن الموضوع يتطلَّب عملًا شاقًّا طويل الأنفاس، ومراجع ذات أهميَّة قصوىٰ، لم يكن بوسعنا الحصول عليها في محاولتنا الثانية»[1].

ومنهم الأستاذ محمد عزة دروزة (ت: ١٤٠٤) فقد قال في مقدِّمة تفسيره (التفسير الحديث): «ولقد تيسَّر لنا فراغ جديد مثل الفراغ الذي تيسَّر لنا من قبل، فيسَّر لنا كتابة الكتب الثلاثة المذكورة، ونعني به سجننا في سجن المزَّة ثم في سجن قلعة دمشق الذي سجننا فيه الإفرنسيون بتحريض الإنكليز بسبب الثورة العربيَّة الفلسطينيَّة في أعوام ١٩٣٧-١٩٣٨م، والذي امتدَّ ستة عشر شهرًا، إذ لم نكد نخرج من هذا السجن بعد انكسار فرنسا في الحرب العالميَّة الثانية حتىٰ دهمت سوريا قوات الإنكليز والإفرنسيين الديغوليين المنضمِّين إليهم، فنزحنا عن دمشق إلىٰ تركيا حيث قضينا فيها خمسين شهرًا، كانت لنا فرصة طيِّبة لتنفيذ تلك الفكرة وكتابة مسودة التفسير»[2].

= شرح ملحة الإعراب، ص٢٥، وفي هذا يقول الدكتور طه عبد الرحمن -حفظه الله-: «يفيد معنىٰ المشاركة والقرب؛ إذ يجعل المتكلم ناطقًا باسمه وباسم غيره، ولا غير أقرب إليه من المخاطب، حتىٰ كأن المخاطب عالم بما يخبره به المتكلم ومشارك له فيه، فيكون ضمير الجمع من هذه الجهة أبلغ في الدلالة علىٰ التأدب والتواضع من صيغة الفرد، ولا دلالة له إطلاقًا علىٰ تعظيم الذات ولا علىٰ الإعجاب بالنفس». اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص١٣، الحاشية (١)، وقد جاء في ترجمة الشيخ مبارك الميلي الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان طاهر القلب متواضعًا، مفرطًا في التواضع، يشعر بذلك تلاميذه ومحبوه، فكان لا يقول لهم: هل فهمتم؟ بل يقول: أفهمنا؟». آثار الشيخ الميلي، (١/ ٢٣-٢٤)، وقد ظهر لي بعد التأمل أن استعمالها يأتي أيضًا لترسيم الخطاب وإظهار جدِّيته واحترامه للمقام؛ فهو ضرب من الأدب والبعد عن الابتذال وكسر الحواجز وجعل السياق ذاتيًّا، انظر فائدة متصلة بالنون والتعظيم للطاهر بن عاشور عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [التحرير والتنوير (١٨/ ١٢٣)]، وانظر وجهة نظر أخرىٰ تدور بين حسن العطّار والجلال المحلي والتاج السبكي حول هذه النون. حاشية العطار علىٰ شرح الجلال المحلي علىٰ جمع الجوامع، (١/ ١٢).

(١) الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص٥٣.

(٢) التفسير الحديث ترتيب السور حسب النزول، (١/ ٦).

ومنهم الشيخ عبدالرحمن حبنّكة الميداني (ت: ١٤٢٥هـ) حيث قال في خاتمة المجلد الثالث عشر من تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر):

«كتبت هذا المجلد بفضل الله الوهاب ومعونته وفيض عطائه، انتزاعًا من براثن المرض، والعلاج اليومي بوخزات الإبر في العضل صباحًا ومساءً، إذ يجعلني طريحًا علىٰ السرير أو علىٰ البساط، لا أقوىٰ علىٰ عملٍ ما معظم الوقت، فإبرة الصباح قد تطرحني خمس ساعات أو أكثر لا أقوىٰ فيها علىٰ العمل ولكن دون آلام، وإبرة أوائل الليل قد تطرحني إلىٰ نحو صلاة الفجر كذلك»[1]

وقد كسرته علىٰ المنوال الآتي:

الفصل الأوَّل: التأصيل، المهاد المنهجيُّ لمصطلح الاستهداء:

المبحث الأوَّل: مصطلح «**الاستهداء بالقرآن**» والمنهج المفهومي.

المبحث الثَّاني: معمار الاستهداء وموقعه في الممارسة التفسيريَّة.

المبحث الثَّالث: مسالك الاستهداء بالقرآن.

الفصل الثَّاني: التعليل، بواعث الاستهداء بالقرآن:

المبحث الأوَّل: لأن القرآن ينبوع الهداية.

المبحث الثَّاني: لأن القرآن ينبوع الهداية اليقينيَّة.

المبحث الثَّالث: لأن القرآن ينبوع الهداية اليقينيَّة المُغنيَة.

الفصل الثَّالث: التمثيل، نماذج للاستهداء بالقرآن:

المبحث الأوَّل: الاستهداء البيانيُّ.

المبحث الثَّاني: الاستهداء الإيمانيُّ.

المبحث الثَّالث: الاستهداء الإصلاحيُّ، وفيه نماذج:

النموذج الأوَّل: التقريب الرشيد ... طاهر الجزائريُّ.

---

(١) معارج التفكر ودقائق التدبر (١٣/ ٧٣٥)، وقال نحو هذا المعنىٰ في ختام المجلد الذي يليه.

النموذج الثَّاني: دفن البذور . . . عبد الحميد ابن باديس.

النموذج الثَّالث: تمليك الأدوات . . . عبد الرحمن السعديُّ.

النموذج الرَّابع: التأصيل القرآنيُّ . . . محمد عبد الله دراز.

النموذج الخامس: حلُّ المشكلات . . . الطَّاهر ابن عاشور.

الفصل الرَّابع: التكميل، مثارات الغلط في باب الاستهداء بالقرآن:

المبحث الأوَّل: فتح المصحف للفأل.

المبحث الثَّاني: الاقتباس والاستخفاف.

المبحث الثَّالث: الاستدلال السطحيُّ.

المبحث الرَّابع: الانطلاق الإنشائيُّ قبل إحكام التأويل.

المبحث الخامس: الإغراق في الإشارات.

المبحث السَّادس: الاستطالة التداوليَّة.

المبحث السَّابع: استهداء الزَّنادقة.

المبحث الثَّامن: تجريد الهداية القرآنيَّة من معاني التوفيق الإيمانيِّ.

المبحث التَّاسع: الغلط في فهم القواعد والكليَّات.

المبحث العاشر: ضرب الكتاب بعضه ببعض.

وقد سميته: طليعة الاستهداء بالقرآن، عازمًا أن تتلوه كتابة تفسير تطبيقي شامل لكتاب الله على ما أصّلت له هنا، مبتدئًا بالفاتحة والمفصل، ثم الحواميم، ثم المثاني، ثم المئين، ثم السبع الطوال؛ بمنهج أتهدّى فيه إلى درك حقيقة الاستهداء بالقرآن، أسأل الله البركة في العمر والعلم، وكما ترى فالكتاب موسوم في ناصيته بـ«طليعته»، وهي مقدم الجيش وبدايات الحشد، وقد شرعت فور انتهائي من مباحث هذا الكتاب التنظيري في تسطير تفسير تطبيقي شامل لكتاب الله من فاتحته إلى ناسه، سيخرج -إن شاء الله- تباعًا بعنوان: «**بدر التفاسير في الاستهداء بالقرآن البشير**»، أبتدئ فيه بالفاتحة والمفصل، ثم

الحواميم، ثم المثاني، المئين، ثم السبع الطوال، بمنهج أتهدّى فيه إلى درك حقيقة الاستهداء بالقرآن، وإني لأعرف عادة هذه المشاريع في استنفاد العمر كله، ولكني أرجو أن أموت بشرف السائر على الطريق إن لم أصافح النهاية؛ فالبوصلة اخترِعَت قبل الساعة -كما يقولون-، وأسأل الناظر لي الدعوات بالتوفيق والتمام والعافية.

وإنّي أضرع إلىٰ الله أن ينفع بهذا الكتاب، وأعوذ به أن يجعل حظي منه التعب، أو تغشىٰ قلبي التفاتة لغيره، أو نظرًا للنفس، فمنتهىٰ إحسان محسننا أن يستعين بنعمة من الله علىٰ رضا الله، فاللهم ارحم ضعفنا، وتقبَّل منا.

وكتبه

بدر بن مرعي آل مرعي

٢٠/ ١١/ ١٤٤٥هـ

Badrth27@gmail.com

«قد جرت سنة الله تعالىٰ، بأن الباحث عنه المتمسك به -يعني: القرآن- يحصل له عزُّ الدنيا وسعادة الآخرة. وأنا نقلت أنواعًا من العلوم النقليَّة والعقليَّة، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم».

الفخر الرازي، التفسير الكبير، (١٣/ ٨٠).

«لقد شاهدنا -والحمد لله ﷻ- ثمرة خدمتنا للقرآن في الدنيا، فنسأله ألا يحرمنا سعادة الآخرة».

الآلوسي، روح المعاني، (٨/ ٣٠٥).

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن، فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا؛ تصديقًا لهذه الآية».

محمد الأمين الشنقيطي، العذب النمير، (١/ ٧).

«ارتبطت حياتي بالمصحف إلىٰ اليوم، لم أكد أكسب شيئًا من العلم إلا مرتبطًا بهذا المصحف، وحققت وجودي العلميَّ من خلال هذا المصحف».

الدكتورة عائشة بنت الشاطئ، من لقاء لها مع فاروق شوشة، الدقيقة ١٦.

الفصل الأول

التأصيل ... المِهاد المنهجيُّ لمصطلح الاستهداء

المبحث الأوَّل
مُصطلح «الاستهداء بالقرآن» والمنهج المفهومي

جرَت عادة المؤلِّفين في كثير من المجالات الشرعيَّة أن تكون مباحث التعريفات جامدة، يسوق قلمَهُ إليها مرغمًا ليوافق الأعراف البحثيَّة، وغاية ما يصنعه استشارة المعاجم اللغويَّة العامَّة في جذر المصطلح المراد بحثه تحلّةً للقسم، ثم ينطلق لكتابة بقيَّة المباحث قبل أن يحلَّ مشكل الغموض في المفهوم.

هذه الفوضىٰ المنهجيَّة آتية من الاستخفاف بأهميَّة المصطلحات وضبط المفاهيم، والتململ من التدقيق والتحرير، والباحث لا يشتبك بمعركة الأنظار قبل أن يشحذ سلاح مصطلحه، ويحدِّد الوجهة المفهوميَّة بوضوح، وإلا كان كالملَّاح الذي يقود سفينته في الضباب الكثيف، لا يدري أَهُدِي الطريق أم ضلَّ.

وعلوم القرآن -شرَّفها الله وأعزَّها- أولىٰ العلوم بإعمال النظر، واستفراغ الجهد البحثيِّ في التأصيل والتعليل والتمثيل والتكميل، وتشييد المعمار المنهجيِّ علىٰ أسس راسخة؛ لذا كان من يُمنِ المعلِّم الفراهي وبركاته أن اهتمَّ بهذا الملمح في كتبه، واستفتح كتابه (مفردات القرآن) بمقدِّمة حول أهميَّة المفردة في فهم النظام الكلامي، وحذَّر من الاستخفاف بتحرير المصطلح، وأنَّ خطأً واحدًا في فهم كلمة قد ينبني عليه انحراف كبير في الفهم الكليِّ، فقال: «ثم إن سوء

فهم الكلمة ليس بأمر هيِّن، فإنَّه يتجاوز إلىٰ إساءة فهم الكلام وكل ما يدلُّ عليه من العلوم والحكم . . . وربما ترىٰ أن الخطأ في معنىٰ كلمة واحدة يصرف عن تأويل السورة بأسرها»[1].

ثم قال: «وهكذا ترىٰ الخطأ في كلمة واحدة أنشأ مذهبًا باطلًا، وأضلَّ به قومًا عظيمًا، وجعل الملَّة الواحدة بددًا»[2].

ثم ذكر أن أنفع شيء في فهم الكلمات المرادفة معرفة تفسير الصحابة والتابعين، فإنهم كثيرًا ما فسَّروا الكلمة بمرادفها حسب ما أريد في موضعها، ولكن الخطأ الذي وقع فيه المتأخِّرون أنهم توهَّموا ترادفها من جميع الوجوه، فأخطؤوا صحيح معنىٰ الكلمة[3].

وأشار في موضع آخر إلىٰ أن بعض خلافهم في العقائد كان مرده عدم الوقوف علىٰ استعمال اللفظ علىٰ وجوه كثيرة، وعليه قرَّر الحاجة إلىٰ معرفة معاني المفردات وأنحائها المختلفة[4].

وقد أتبع حديثه الأسبق بتقريرٍ حاصلهُ أنَّ استشارة المعاجم في تبيان المعنىٰ القرآني مُعلمة لا ملزمة، وأن الاكتفاء بالاستمداد اللغويِّ بوابة غلط منهجيٍّ، فلكلِّ علم مخصّصاته السياقيَّة، وطرائقه العُرفيَّة، وإضافاته الدَّلاليَّة.

❁ ❁ ❁

يحسن بنا عرضُ المصطلح المنتمي لعلوم القرآن إلىٰ محددين منهجيّين:

أولًا: التعريف الصحيح المتَّسق مع اشتراطات الفنِّ، ولغته، والقادر علىٰ استيعاب خَّصائص المفهوم.

ثانيًا: القدرة علىٰ تمييزه بين المصطلحات المجاورة له في حقله المعرفي.

---

(١) مفردات القرآن للفراهي (ت: ١٣٤٩هـ)، ص٩٥-٩٦، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي.

(٢) المصدر السابق، ص٩٨.

(٣) المصدر السابق، ص٦٠.

(٤) انظر: التكميل في أصول التأويل، ص٣٦.

أوَّلًا: التعريف الصحيح المتَّسق مع اشتراطات الفنِّ، ولغته، والقادر علىٰ استيعاب خصائص المفهوم:

لا مندوحة عن القول إن لكلِّ علم لغته الفريدة، في مصطلحاته، وذوقه اللغويِّ، وسمته السرديِّ، فلا يسوغ كتابة علمٍ بغير لغة أهله، وقد مرَّ بي قبل سنوات كتاب فقهيٌّ معاصر كُتب بأسلوب أدبيٍّ روائيٍّ؛ بدافع التقريب العلميِّ للأجيال الشابة، واستنكرت ذاك في نفسي، فاللغة أداة تفكير، لا مجرد وسيلة إيصال للدلالة، والمؤلِّف بهذا الصنيع يجعل القارئ يفكر خطابيًّا في علمٍ برهانيٍّ صارم.

وقفتُ علىٰ نصٍّ يُظهر مرادي بجلاء، حين كتب المستشرق الدنماركي يوهانس بيدرسون (ت: ١٩٧٧هـ) في كتابه (الكتاب العربي منذ نشأته حتىٰ عصر الطباعة): «يبتدئ كلُّ كتاب بعبارة (بسم الله الرحمن الرحيم)، باعتبار أن كلَّ مشروعٍ لا يبتدئ بهذا الأسلوب سيفشل حتمًا»[(١)]، وتعبير «سيفشل حتمًا» عوضًا عن التعبير النبوي الأرفع «أبتر» أو «أقطع» مما يمرض العاقل المتذوِّق للغة أيامًا، وهو منطقٌ لا تُبرئه الأُساة، ولا تشفيه الرقاة، وإنَّ من الكلام ما يقوم مقام الطعام البارد اليابس؛ وهذا منها.

وقد تواردت عبارات العلماء في الحثِّ علىٰ لغة العلم، وهم في هذا يعنون المصطلح العلمي، وذوق الفنِّ اللغويِّ للعلم المُصنَّف فيه.

قال ابن حزم (ت: ٤٥٦هـ): «لا بدَّ لأهل كلِّ علم وأهل كلِّ صناعة من ألفاظ يختصُّون بها للتعبير عن مراداتهم، وليختصروا بها معاني كثيرة»[(٢)].

وقد جعل ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) من طرائق تحصيل علم الأدب -والعبارة تصلح لأن تكون عامَّة- «معرفة اصطلاحاتها ليكون قائمًا علىٰ فهمها»[(٣)].

---

(١) الكتاب العربي منذ نشأته حتىٰ عصر الطباعة، يوهانس بيدرسون، ترجمة: حيدر غيبه، ص٤٥.

(٢) التقريب لحد المنطق، ص٦٨.

(٣) المقدمة مع التاريخ، (١/ ٧٦٣).

وقال السيوطي (ت: ٩١١هـ): «لا بدَّ أن يكون باصطلاحات أهل كل فنٍّ خبيرًا، وبمواضعات كلِّ طبقة من العلماء بصيرًا»[١].

ويؤكِّد التهانوي (ت: ١١٥٨هـ) ذلك بأنَّ «لكلِّ علم اصطلاحًا خاصًّا به، إذا لم يعلم بذلك لا يتيسَّر للشارع فيه الاهتداء إليه سبيلًا، ولا إلىٰ انقسامه دليلًا»[٢].

وقال يوسف ابن الجوزي الحنبلي (ت: ٦٥٦هـ): «اعلم أن لأرباب كل صناعة ألفاظًا يتداولونها بينهم في مجاراتهم، قد وضعوها بإزاء مسمَّيات يحتاجون إليها في محاوراتهم، فلا يقف غيرهم علىٰ موضوعها إلا بتوقيف منهم»[٣].

وقد وصف الشيخ طاهر الجزائري (ت: ١٣٣٨هـ) مخالف هذا المسلك بقوله: «ومخالف ذلك: إما جاهل بمقتضىٰ المقام، أو قاصدًا للإبهام أو الإيهام»[٤].

ومن علائم الحفاظ علىٰ لغة العلم أن تُدرك الخصائص الكتابيَّة العرفيَّة داخل الفن، فلا يُبسط ما حقُّه الاختصار، ولا يؤتىٰ بلفظة علىٰ خلاف المعهود الصناعيِّ للحقل المعرفيِّ، والموفَّق من يستطيع تيسير العلم بلغة العلم، ويرقي الطلبة بتقريبهم من العلم لا بتقريب العلم لهم، أمَّا من اقترض لغة الحداثيِّين وقشور الإنسانيَّات وأراد أن ينسخ بها لغة المتقدِّمين فلا يُفلح في صنعتنا هذه من أوَّلها.

ولفظة «الاستهداء بالقرآن» متَّسقة مع لغة علوم القرآن، لا توهنها عُجمة، ولا تهجنها لُكنة، ويمتدُّ زعمي إلىٰ أنه لو بُعث مفسِّرٌ من القرون المتقدمة ما وجد فيها مغمزًا، ولا أخلفت في رَوعه نكيرًا، فكم دارت علىٰ أفواه الخطباء، ولهجت بها أقلام الكاتبين.

---

(١) معجم مقاليد العلوم، ص٢٩.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون، (١/ ١).

(٣) الإيضاح لقوانين الاصطلاح، ص١٣.

(٤) توجيه النظر إلىٰ أصول الأثر، (١/ ٩٠).

فالتصريف صحيح، والتركيب اللفظيُّ للهداية والقرآن مستفيض حدَّ التواتر علىٰ ألسنة المصنِّفين في هذا الحقل، والمصطلح ثابت النسب في (الأسماء الشرعيَّة)، فللباحث أحوال مع المصطلح الأصيل وربطه مع الأسماء الشرعيَّة: فإما الموافقة، أو عدم المخالفة، وكلاهما مقبول، وبينهما فرق.

فلفظة الاستهداء صحيحة لغةً، مستساغة اصطلاحًا و«قد تقرَّر في علم العربيَّة: أن من معاني السين والتاء: الطلب. استغفر: طلب المغفرة، واستطعم: طلب الطعام، واستسقىٰ: طلب السقيا، واستنصر: طلب النصر»[(١)]؛ وعليه فالاستهداء في أصلها: طلب الهداية؛ لأنهم «جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب»[(٢)].

وهي تدور في فلك معانٍ متقاربة، ودلالات متجاورة، منها: البيان، وقريب منه: النهار، والطاعة، والرشاد، والطريق، والدلالة بلطف، وغيرها[(٣)].

وقد أضاف الدكتور محمد حسن جبل (ت: ١٤٣٦هـ) معنًى لطيفًا في معجمه الاشتقاقيِّ، حين قال: «المعنىٰ المحوريُّ لجذر: (هدىٰ) تبيُّن الوجهة أو تبيينها بالتقدُّم أو الكشف، فهوادي الخيل: أوائلها ومقدمتها، وأهديت للبيت هديًا: قدَّمته، والهادي: الدليل الذي يتقدَّمك الطريق لمعرفته الوجهة، خُذ في هِديتك: تقدَّم في وجهتك»[(٤)]، وبها يضاف معنىٰ التقدُّم، فالهداية تقدُّمٌ نحو وجهة معلومة، وهذا عين المعنىٰ الذي نؤصل له.

أما نهج التعريف، ففي دراسات علم المصطلح -المصطلحيَّة- يأخذ التعريف مسارين متمايزين[(٥)]:

---

(١) العذب النمير للشنقيطي، (٥/ ٢٠٧).

(٢) الخصائص لابن جني، (٢/ ١٥٥).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، (٦/ ٢٠١)، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني، (٨٣٦)، ولسان العرب، (١٥/ ٣٥٤)، وتاج العروس، (٤٠/ ٢٨٢).

(٤) المعجم الاشتقاقي، (٤/ ٢٢٩٣-٢٢٩٤) بتصرُّف وترتيب.

(٥) ترجَمتُها التطبيقيَّة لا العملية اتساقًا مع غالب المواضعة الصناعيَّة للفنِّ عند اللسانيِّين، وآثرت =

١. مسار المصطلحيَّات التطبيقيَّة: terminography وهو نسَقٌ مُعجميٌّ يشتغلُ بجمع وتوثيق المصطلحات المستقرَّة في الحقل المعرفيِّ عبر التركيز علىٰ الاسم واشتقاقه، وأبنيته، ودلالاته، ومرادفاته، وتعابيره الاصطلاحيَّة والسياقيَّة داخل الفنِّ، وفي عموم الاستعمال اللغويِّ العام.

٢. مسار المصطلحيَّات النظريَّة: terminology وهو نسَقٌ يهتمُّ بنُظم المفهوم الذي أنشأه الباحث، ويحرِّر خصائصه، وعلائقه، ثم يعبِّر عن هذا المعطىٰ الذهنيِّ للباحث عبر وحدة لغويَّة اسمها «مصطلح»، وهنا منطقة اشتغالنا في هذا الكتاب.

ومن الفروق بينهما أن المسار الأول يهتمُّ باللفظة، والثاني يشتغل بالمعنىٰ.

والغالب علىٰ الدراسات القرآنيَّة الأكاديميَّة الاهتمام بالشرائط المنطقيَّة، كتمييز الحد من الرسم، والتام منهما من الناقص، وضرورة أن يكون جامعًا مانعًا لا يستلزم المحال كالدور والتسلسل، ولا يحوي لفظة مشتركة أو مبهمة، والحذر من التعريف بالسوالب والمجازات، والاهتمام باستحضار الردّ لو أورد عليه بمنع أو نقضٍ أو معارضة[١].

فالمفهوم وحدة معرفيَّة تنشأ في الذهن، في حين أن المصطلح تسميةٌ لهذه الوحدة[٢].

= وسم القسم الآخر بالمصطلحيَّات النظريَّة، أما تقسيم الدكتور حميدي يوسف في كتابه النافع (التعريف المصطلحي: دراسة في ضوء المصطلحية الحديثة) فقد جعلهما علىٰ قسمين: المصطلحيَّة والمصطلحاتيَّة؛ وهي تسمية مغلوطة لغة، مستوحشة ذوقًا، تعقِّد المفهوم ولا ترتب شعثه.

(١) يُنظر في هذا: تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، للدكتور حازم الجيلالي، ص٦٦ وما بعدها، ومقدمة في صنع الحدود والمصطلحات، للدكتور عبد الرحمن السنوسي، ص١٠٧-١٢٠، ومقالة محررة عنوانها: جدوىٰ التعريفات الاصطلاحية في علوم الشريعة والعربية، ضمن كتاب (سبع ورقات وثمانية أبحاث)، للدكتور عبد العزيز الحربي، ص٢٧-٥١، وانظر (رسالة الآداب) للشيخ: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبوع مع مغني الطلاب للمغنيسي ص٣٠١-٣٢٧.

(٢) ينظر: علم المصطلح، ماري كلوديوم، ص١٨.

وبعد أن يُفحص المفهوم لغويًّا تبدأ وظيفة التداول والقبول عند المتخصِّصين؛ ففي مسرد وصايا الحافظ ابن دقيق العيد لطالب الحديث قال: «وينبغي في هذا كلِّه ألا يصطلح الإنسان مع نفسه اصطلاحًا لا يعرفه غيره، يخرج به عن عادة الناس»[1].

وحين نعود إلىٰ جذر «مصطلح»: صلح، وهو بمعنىٰ الاتفاق والمهادنة، جاء في شمس العلوم للحُميري (ت ٥٧٣هـ): «الاصطلاح: اصطلح القوم: أي تصالحوا»[2].

وفي العُرف المعجميِّ الفقهيِّ: الاصطلاح: الاتفاق.

وفي تعريفات الجرجانيِّ ما يدلُّ علىٰ هذا إذ قال: «الاصطلاح: عبارة عن اتفاق قوم علىٰ تسميَّة الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأوَّل. وقيل: الاصطلاح: اتَّفاق طائفة علىٰ وضع اللفظ بإزاء المعنىٰ، وقيل: الاصطلاح: لفظ معيَّن بين قومٍ معيَّنين»[3].

وقد زاد اللسانيُّ روبرت مارتان شرطًا بأن يكون أصحاب المواضعة المقبولة هم المتخصِّصون، لا مجرَّد عامَّة المتحدِّثين باللغة[4].

وفيما يأتي بعض النقولات التي تدلُّ علىٰ تحقُّق هذا الشرط المعياريِّ في مصطلحنا:

جاء في تفسير مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ): «(فمن اهتدىٰ): بالقرآن، (فلنفسه ومن ضل): عن الإيمان بالقرآن»[5].

وقال ابن تيمية (٧٢٨هـ): «إنما يهتدي من يقبل الاهتداء، وهم المتَّقون لا كلَّ أحد. وليس المراد أنهم كانوا متَّقين قبل اهتدائهم، بل قد يكونوا كفارًا،

---

(١) الاقتراح في بيان الاصطلاح لابن دقيق العيد، ص٤٢.
(٢) شمس العلوم، (٦/٣٨١٦).
(٣) التعريفات للجرجاني، ص٢٨ بحذف يسير.
(٤) التعريف المصطلحي، د. حميدي بن يوسف، ص١١.
(٥) (٣/٦٧٩)، عند تفسيره سورة الزمر.

لكن إنما يهتدي به من كان تقيًّا، فمن اتَّقىٰ الله اهتدىٰ بالقرآن»[1].

وقد ورد المركب المعنويُّ للاستهداء بالقرآن في بيت الشاطبيَّة (ت٥٩٠هـ): [الطويل]

بِنَفسِي مَنِ اسْتَهْدَى إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ وَكانَ لَهُ الْقُرْآنُ شِرْبًا وَمَغْسلَا[2]

خلصنا إلىٰ أنَّ مصطلح الاهتداء بالقرآن والاستهداء به ليس مستنكرًا لغة ولا تداولًا علميًّا، وهو علىٰ اختلاف تصاريفه مألوفٌ إفرادًا وتركيبًا.

ثانيًا: القدرة علىٰ تمييزه بين المصطلحات المجاورة له في حقله المعرفيِّ:

يجمل بنا أن نفرش بساطًا نظريًّا لتعريف كل مصطلح ينتمي لنفس المستوىٰ التجريديِّ مفردًا، ثم نبيِّن العلائق بينهم في مبحثٍ مستقلٍّ.

أوَّلًا: التفسير:

فالتفسير في أصله اللغويِّ وجذره الثلاثيِّ يعود إلىٰ الإيضاح، والإبانة، والكشف، وإظهار المعنىٰ.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفُرْقَان: ٣٣]، قال مجاهد: بيانًا، وقال الضحاك: تفصيلًا.

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٠هـ): «الفسر: التفسير: وهو بيان وتفصيل الكتاب، وفسَره يفْسُره فسرًا، وفسَّره تفسيرًا»[3].

وقال الأزهري صاحب تهذيب اللغة (ت: ٣٧٠هـ) في مادة (فسر): «... عن ابن الأعرابي: الفسْر: كشف ما غُطي، وقال الليث: الفسر: التفسير: وهو بيان وتفصيل للكتاب»[4].

---

(١) مجموع الفتاوي، (١٦/٥٨٨).

(٢) البيت الرابع والثمانون من (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع) الشهيرة: بالشاطبية، ص٧، تحقيق: محمد تميم الزعبي.

(٣) العين، (٧/ ٢٤٧).

(٤) تهذيب اللغة، (١٢/ ٢٨٢-٢٨٣).

وقال ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ): «(فسر) الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدلُّ علىٰ بيان الشيء وإيضاحه. من ذلك الفَسْرُ، يقال: فسرتُ الشيء وفسَّرته. والفسْرُ والتفسرة: نظرُ الطبيب إلىٰ الماء وحكمُه فيه»[١].

وقد ذكر بعض اللغويِّين اشتقاقًا آخر: وهو أن (الفسر) مقلوب (السفر)؛ فيقال: سفرتِ المرأة إذا كشفتْ عن وجهها، ومن نفس الباب قولهم: إنَّما سُمِّي السفر سفرًا لأنه كاشف عن أخلاق الرجال، وقد نصر هذا القول الراغب الأصفهانيُّ (ت: ٥٠٢هـ) فقال: «الفسر، والسفر، يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما»[٢].

وقد تعقَّبه الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، وأنكر قوله، فقال: «والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه»[٣].

ونكير العلَّامة الآلوسي ونفيه العلاقة الدلاليَّة ليس بسديد.

أما التعريف الاصطلاحيُّ للتفسير فمما وقع في حدِّه الخلاف[٤] من ثلاث جهات: توسيع المفهوم وتضييقه، وضبط العلائق مع المصطلحات المقاربة، وفي العلوم التي تدخل فيه أو تستقلُّ عنه.

وفيما يأتي مسرد لبعض التعريفات المعتمدة، رتَّبتها من الأقدم إلىٰ الأحدث؛ ليلاحظ القارئ التطوُّر الدلاليَّ للتعريف[٥]:

---

(١) مقاييس اللغة، (٤/ ٥٠٤).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني، (١/ ١٠).

(٣) روح المعاني (١/ ٥).

(٤) من المقاربات المنهجيَّة الجادة في استشكال سيولة معنىٰ (علم التفسير) وتفاوت حدوده: تفاوت مفهوم التفسير؛ الدلائل والآثار ومنهج التعامل، الدكتور محمد صالح سليمان، وقد نُشِر هذا البحث في مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية، العدد ١٩٢، في شهر رجب ١٤٤١هـ، ومقاربة في ضبط معاقد التفسير محاولة لضبط المرتكزات الكلية للعلم ومعالجة بعض إشكالاته، الدكتور خليل بن محمود اليماني، ونُشرت هذه المقالة البحثيَّة في موقع مركز تفسير بتاريخ ١٩ صفر ١٤٤٢هـ، وكتابه: علوم القرآن نقد العلمية ومقاربة في البناء، ص٢٨٥ وما بعدها.

(٥) وترتيب الأقوال زمنيًّا من الأقدم إلىٰ الأحدث جادة العلماء المحققين، فقد حكىٰ برهان الدين =

عرَّف ابن جزي الكلبيّ (ت: ٧٤١هـ) التفسير بقوله: «شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصِّه، أو إشارته، أو نجواه»[١].

وعرَّفه الزركشيُّ (ت: ٧٩٤هـ) بقوله: «علم يعرف بهم فهم كتاب الله المنزل علىٰ نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه»[٢].

وعرَّفه أبو حيَّان (ت: ٧٤٥هـ): «التفسير: علم يبحث فيه عن كيفيَّة النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفراديَّة والتركيبيَّة، ومعانيها التي تُحمل عليها حال التراكيب وتتمَّات ذلك»[٣].

وعرَّفه الشَّريف الجرجانيُّ (ت: ٨١٦هـ): «توضيح معنىٰ الآية وشأنها، وقصتها، وسبب نزولها مع رواية عن الثقات»[٤].

وعرفه الكافيجيُّ (ت: ٨٧٩هـ) فقال: «وأما التفسير في العرف؛ فهو كشف معاني القرآن، وبيان المراد»[٥].

وعرَّفه الشيخ محمد علي سلامة (ت: ١٣٦٢هـ) بقوله: «علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته علىٰ مراد الله بقدر الطاقة البشريَّة»[٦].

= البقاعي في عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران، (١/ ١٢٤) عن الحافظ ابن حجر هذا المسلك فقال: «يأخذ كلام الشراح أولًا فأولًا إلىٰ عصره، فيبين صواب المصيب ووهم الواهم، ومن أين جاءه الغلط»، وفي سوابق هذا النص ولواحقه فوائد أجلُّها عندي إشارةٌ يُفهم من أن الحافظ كتب مقدمة الفتح [هدىٰ الساري] قبل إتمام الشرح.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، (١/ ١٥)، وتحليل شيخنا مساعد الطيَّار لهذا التعريف مفيد كما تراه في شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ص.٨٨

(٢) البرهان في علوم القرآن، (١/ ١٣).

(٣) البحر المحيط، (١/ ١٢١).

(٤) التعريفات، ص.٦٣

(٥) التيسير في قواعد علم التفسير، ص١٢٤,

(٦) منهج الفرقان في علوم القرآن، (٢/ ٦)، وقد شاع خطأ أنه تعريف الزرقاني كما في مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٣)، وأفاد شيخنا الدكتور محمد جابر القحطاني ما أثبتّه من أن الزرقاني نقله عن الشيخ محمد علي سلامة، انظر بحثه: المدخل النظري لتدريس مقرر =

وقال الطَّاهر ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) في تعريفه: «اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسُّع»[١].

وعرَّفه ابن عثيمين (ت: ١٤٢١هـ) بأنه: «بيان معاني القرآن الكريم»[٢].

وعرَّفه الدكتور مساعد الطيَّار بأنه: «بيان القرآن الكريم»[٣].

نلحظ في بعض التعريفات أن مفهوم التفسير كان موسَّعًا يشمل علومًا ومباحث نظريَّة عديدة، ونلحظ في تعريفات أخرىٰ أن جوهر العمليَّة التفسيريَّة ينحصر في تبيان معنىٰ المفردة القرآنيَّة، مع جعل هذه المباحث التي كانت ضمن تعريف التفسير علومًا مستقلَّة علىٰ خلاف العادة المنهجيَّة للعلوم بالتوسعُّ والتشظِّي الداخليِّ، وهذا ملحظ يحتاج وقفة منهجيَّة أوسع للتحليل والتتبع؛ ليس هذا مجالها.

وبالجُملة فالمتخصِّص أميل للتحفظ في توسيع حدود فنِّه، خشية الدخلاء، وهذه نزعة سائدة في كل العلوم، وهي ردَّة فعل متفهَّمة لتقحُّم من لا يحسن، والعاقل يوازن باعتدال بين الحفاظ علىٰ المكتسبات العلميَّة التي تراكمت لقرون، وبين رغبات التجديد.

ثانيًا: التأويل[٤]:

يدور أصل كلمة (أوَل) في اللغة علىٰ كشف المعنىٰ، سواء كان بالتحقُّق أو البيان.

= التفسير في المرحلة الجامعية، نُشر في مجلة جامعة الملك خالد العدد الأول عام ١٤٣٨هـ، المجلد ٢٥، ص٢٥.

(١) التحرير والتنوير، (١/ ١١).

(٢) أصول في التفسير، ص٢٣.

(٣) التفسير اللغوي، ص٣٢.

(٤) يُنظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، للدكتور: مساعد الطيار، ص٩١ وما بعدها.

وهما في لغة السلف علىٰ معنيين:

فالأول: تحقُّق المعنىٰ الذي يؤول إليه الكلام، فإن قلت: جاء محمد، كان تأويله دخوله مع الباب، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يُوسُفَ: ١٠٠]، أي: تحقَّق معناه.

والثاني: بيان مراد المتكلِّم، وكلاهما في مدار الكشف.

وقد استقرأت العلاقة الدلاليَّة بين التأويل والتفسير في المدوَّنات ووجدتها أربع علائق:

العلاقة الأولىٰ: **الترادف**: وهو قول السلف والمتقدِّمين، قال أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ (ت: ٢٠٩هـ): «التأويل: التفسير»[(١)].

وقال الأزهريُّ (ت: ٣٧٠هـ): «وأخبرني المنذريُّ عن ابن العبَّاس عن ابن الأعرابيِّ قال: «التفسير والتأويل والمعنىٰ، واحد»[(٢)].

العلاقة الثانية: **التغاير**: قال البدر الزركشيُّ (ت: ٧٩٤هـ): «ثم قيل التفسير والتأويل واحد بحسب الاستعمال، والصحيح تغايرهما»[(٣)].

والتغاير الدلاليُّ بين التأويل والتفسير علىٰ أضرب:

الضرب الأول: **التباين**؛ فيجعل التفسير كشفًا للمعنىٰ، والتأويل صرفًا للفظ عن المعنىٰ المحتمل، وهذا الضرب يطول فيه الحديث والتفصيل، وله أبعاد بلاغيَّة وعقديَّة.

---

(١) مجاز القرآن لمعمر بن المثنىٰ.

(٢) تهذيب اللغة، (١٢/ ٢٨٣). وتختلف نسخ التهذيب في وضع الفاصلة، فمنها ما يجعل الجملة مكونة من معطوفين «التفسير والتأويل، والمعنىٰ واحد»، ومنها ما يجعله بالنحو الذي أثبتّه بثلاث معطوفات، وهو الصواب قطعًا، فقد رواها الأزهري نفسه في موضع آخر بهذا اللفظ: «وأخبرني المنذري عن أحمد بن يحيىٰ قال: المعنىٰ والتفسير والتأويل واحد». تهذيب اللغة، (٣/ ١٣٥).

(٣) البرهان في علوم القرآن، (٢/ ١٤٩).

الضرب الثاني: **التبادل**؛ فيكون علىٰ قاعدة إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا[1].

الضرب الثالث: **التكامل**؛ قال السيوطيُّ (ت: ٩١١هـ): والتفسير «أكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل»[2].

العلاقة الثالثة: **التداخل**؛ قال الراغب الأصفهانيُّ (ت: ٥٠٢هـ): «والتفسير أعمُّ من التأويل»[3].

وهذا المعنىٰ الذي أختاره منهجيًّا وعملت به في هذا الكتاب، وأرىٰ أنه قد استقرَّت عليه الدلالة بعد التطور الاستعماليِّ والاصطلاحيِّ، ولا يتعارض مع الأصل اللغويِّ؛ لأسباب منها:

أولاً: أن التداخل لا يعارض القول بأن التأويل هو التفسير أو وجه منه.

ثانيًا: أن التطور الاستعمالي لأي علم يقتضي أن يتسع مدلول على حساب آخر؛ فاخترت توسيع مفهوم التفسير، وإبقاء التأويل على معناه.

ثالثًا: لأن التأويل لفظة بها اشتراك مع مفاهيم لها أبعاد كلامية وعقدية، ولو سُمي بها العلمُ لصار نزاع وتشويش.

وبهذا يتّسع الحائط الدلالي لمفهوم الاستهداء، وتدخل به أفواج من مستمدّي الهداية متعلمين ومعلمين، وتشمل متخصصين في علوم شرعية وعربية غير التفسير، وهذا هدف من أهداف أطروحتي في الكتاب.

---

(١) وخير من أصَّل لهذه القاعدة الشيخ تقي الدين ابن تيمية في كتاب الإيمان، ص١٣٠ وما بعدها، حيث ضرب نحو عشر أمثلة لها، وقد قال الشهاب الخفاجي (ت: ١٠٦٩هـ) في شرح درة الغواص: «وكان بعض مشايخنا يقول: كل لفظين تقارب معناهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا». ص٥١.

(٢) الإتقان، (٢/ ٤٦٠).

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني، (١/ ١١).

فيكون التفسير وصفًا للعلم الذي ينطوي علىٰ ممارسات منها التأويل الذي معناه هنا: تبيان معنىٰ الآي.

وقد استعمل التأويل بمعنىٰ تبيان معنىٰ الآي: مالك، وأحمد بن حنبل، وعمر بن عبد العزيز، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والفرَّاء، والبخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ[1].

فمعرفة معنىٰ الآي يسمَّىٰ تأويلًا بلا إشكال.

ومن ذلك قول النَّبي ﷺ في ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «اللهم فقِّهْه في الدين وعلِّمه التأويل»[2].

قال أبو جعفر الطبريُّ (ت: ٣١٠هـ): «وأمَّا قوله ﷺ: «وعلِّمه التأويل» فإنه عنىٰ بالتأويل: ما يؤول إليه معنىٰ ما أنزل الله تعالىٰ ذكره علىٰ نبينا ﷺ من التنزيل»[3].

العلاقة الرابعة: **التضاد**، ومنه قول نصر حامد أبو زيد (ت: ١٤٣١هـ): «إن التأويل يرتبط بالاستنباط في حين يغلب علىٰ التفسير النقل والرواية»[4].

وهذا القول باطل صُراح، وفيه حيلة حداثيَّة مكرورة تقوم علىٰ «الثنائيَّة الموهومة»، حين يضادون بين المتكاملَين، فيزعمون التأويل معقولًا والتفسير منقولًا، وهذه العادة تراها أيضًا في جعلهم الشاطبيَّ مُعَقْلِنًا والشافعيَّ نَصِّيًّا، وكذلك يفعلون مع الاعتزال والسُّنة؛ وخلاصة مرادهم: إلباس طرفٍ من الأطراف

---

(١) انظر: الدكتورة فريدة زمرد، مفهوم التأويل في القرآن الكريم والحديث الشريف، حاشية ص١٣٩، ولها بحث مركّز فيه إضافات اسمه: حدُّ التأويل في اصطلاح القرآن والحديث، نُشر في مجلة دراسات مصطلحيَّة، العدد الأول، عام ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٧)، وابن حبَّان (٧٠٥٥)، والطبراني (١٠٦١٤)، وأخرجه البخاري (٣٧٥٦)، ومسلم (٢٤٧٧) بلفظ مقارب.

(٣) تهذيب الآثار للطبري، ص١٨٣.

(٤) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، ص٢٣٣.

وصفًا يسمح لهم بتمرير مقولاتهم، فيكون سندهم التراثيَّ ولو بالتعسُّف.

والمعنىٰ الذي أتغيَّاه هنا إثبات أن التأويل في أصله لغة واصطلاحًا بمعنىٰ: بيان القرآن، وأنها جزء من التفسير، بل أهمُّ أجزائه.

ثالثًا: التدُّبر:

التدبُّر: مصدر (تدبَّر) وأصل هذه المادة: (د ب ر) يدلُّ علىٰ آخر الشيء وخلفه[١].

يقال: دبَر السهم الهدف، سقط خلفه[٢].

فصار المعنىٰ تدبَّر الأمر؛ أي: نظر في عاقبته وغايته.

ومنه قيل للنحل: (الدَّبْر)؛ لأنه يعقب ما ينتفع به[٣].

ومنه التدبير وهو: النظر في العواقب بمعرفة الخير[٤].

ومما سبق يظهر أن التدبُّر يعني النظر فيما لا يظهر ابتداء.

وهو والتفكُّر بمعنىٰ واحد، فصار تدبُّر القرآن: تأمُّل معانيه وتبصُّر ما فيه[٥].

وعرَّفه القرطبيُّ (ت: ٦٧١هـ) بقوله: «التفكُّر فيه وفي معانيه»[٦].

وعرَّفه الخازن (ت: ٧٤١هـ) فقال: «تأمُّل معانيه، وتفكُّر في حِكمه، وتبصُّر ما فيه من الآيات»[٧].

وقال أبو حيَّان (ت: ٧٤٥هـ): «هو التفكُّر في الآيات، والتأمُّل الذي يفضي

---

(١) معجم مقاييس اللغة، (٢/ ٣٢٤).
(٢) مفردات الراغب، ص١٦٤.
(٣) معاني القرآن للزجاج، (٢/ ٨٢).
(٤) التعريفات للجرجاني، ص٥٦.
(٥) الكشاف، (١/ ٥٤٦).
(٦) تفسيره، (٥/ ٢٩٠).
(٧) تفسير الخازن، (١/ ٥٦٣).

بصاحبه إلىٰ النظر في عواقب الأشياء»[1].

وقال ابن القيِّم (ت: ٧٥١هـ): «هو تحديق نظر[2] القلب إلىٰ معانيه، وجمع الفكر علىٰ تدبُّره وتعقُّله»[3].

ويظهر لي أن التدبُّر بمعنىٰ التفكُّر والتأمُّل وإعمال النظر بما وراء المعنىٰ الظاهر، فإذا استخرج منه معنىٰ صار استنباطًا.

رابعًا: الاستنباط:

أصل الاستنباط في اللغة من الاستخراج، نحو قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ [النِّسَاء: ٨٣]، أي: يستخرجونه[4].

وأصله من إنباط الماء من جوف الأرض، أي: استخراجه[5].

ويظهر من الأصل اللغويِّ أن لفظ الاستنباط يدور حول استخراج ما غاب وتوارىٰ، والمتأمِّل في تعريفات العلماء للاستنباط من القرآن يجدها تدور -تبعًا للإيحاء اللغويِّ- حول اشتراط الخفاء في المعنىٰ المُستخرج؛ ومن ذلك:

قال ابن جرير الطبريُّ (ت: ٣١٠هـ): «وكل مستخرج شيئًا، كان مستترًا عن

---

(١) البحر المحيط، (٧/ ٣٧٩).

(٢) في طبعة عطاءات العلم من المدارج (٢/ ٨٣)، «ناظر القلب» وكذا عند الشيخ شعيب الأرناؤوط، ص٣٢٠، وأيضًا في طبعة الشيخ محمد حامد الفقي (١/ ٤٥١)، وأيضًا طبعة دار طيبة بتحقيق الشيخ عبد العزيز الجليل (٢/ ٣٤)، والصواب: «نظر القلب» كما أثبتّه، وهذه صورة الكلمة من مخطوطة شستربيتي برقم ٣٦٢٧:

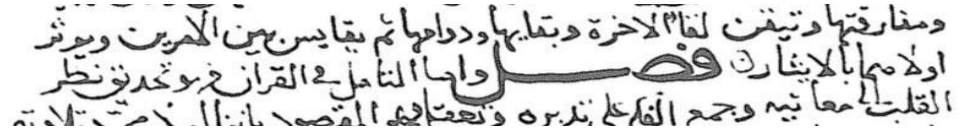

(٣) مدارج السالكين، (٢/ ٨٣).

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ، (١/ ١٣٤)، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، (٢/ ٨٣).

(٥) الفريد في إعراب القرآن المجيد للهمداني (١/ ٧٦٩).

أبصار العيون، أو معارف القلوب؛ فهو له مستنبط»[1].

وقال الجصَّاص (ت: ٣٧٠هـ): «اسمٌ لكل ما استخرج حتىٰ تقع عليه رؤية العيون، أو معرفة القلوب، والاستنباط في الشرع: نظير الاستدلال، والاستعلام»[2].

وقال الماورديُّ (ت: ٤٥٠هـ): «والاستنباط: مختصٌّ باستخراج المعاني من النصوص»[3].

وقال ابن حزم (ت: ٤٥٦هـ): «الاستنباط: إخراج الشيء المغيب من شيد آخر كان فيه»[4].

وقال أبو المظفَّر السمعانيُّ (ت: ٤٨٩هـ): «الاستنباط هو استخراج العلم»[5].

وقال محيي الدين النوويُّ (ت: ٦٧٦هـ): «قال العلماء: الاستنباط استخراج ما خفي المراد به، من اللفظ»[6].

وقال شمس الدين ابن القيِّم (ت: ٧٥٢هـ): «استخراج الأمر الذي من شأنه أن يخفىٰ علىٰ غير المستنبط»[7].

وقال الجرجانيُّ (ت: ٨١٦هـ): «استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن، وقوَّة القريحة»[8].

وقال شيخنا الدكتور مساعد الطيَّار: «ربط كلام له معنىٰ بمدلول الآية، بأي

---

(١) جامع البيان، (٤/ ١٨٤).
(٢) أحكام القرآن، (٢/ ٢١٥).
(٣) أدب القاضي، (١/ ٣٥٣).
(٤) الإحكام في أصول الأحكام، (١/ ٤٨).
(٥) تفسير القرآن للسمعاني، (١/ ٤٥٣).
(٦) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٥٨)
(٧) إعلام الموقعين، (١/ ١٧٢).
(٨) التعريفات، ص.٢٢

نوع من أنواع الربط، كأن يكون بدلالة إشارة، أو دلالة مفهوم، أو غيرها»[١].

وبتأمُّل ما سبق نجد أن السمتَ الكليَّ للمعنىٰ يدور حول استخراج المعنىٰ الخفيَّ بنوع من إعمال الجهد[٢].

خامسًا: الاستهداء:

حرَّرت فيما مضىٰ معنىٰ الاستهداء لغويًّا، وبينتُ صلاحيَّته للاستعمال الاصطلاحيِّ في مجال علوم القرآن بطريقة منهجيَّة متأنِّية.

والتعريف الذي أختاره للاستهداء هو:

«الانتفاع بالمعنىٰ القرآنيِّ في إصلاح اللسان، وتجديد الإيمان، وإرشاد الإنسان».

وهو بهذا المعنىٰ قريب المأخذ من مصطلحات سابقة، منها[٣]:

الأوَّل: مصطلح «الهدىٰ المنهاجيُّ» الذي صكَّه العالم المغربي الفاضل الدكتور الشاهد بوشيخي.

وقد وصفه بأنه: «الطريقة المثلىٰ في التفكير، وفي التعبير، وفي التدبير»، وعرَّفه بقوله: «الطريقة المثلىٰ في أداء الخلافة، وفي أداء العبادة، وفي أداء الشهادة»[٤].

---

(١) مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، ص١٦٠-١٦١.

(٢) وقد عرفه الدكتور فهد الوهبي بقوله: «استخراج ما خفي من القرآن بطريق صحيح». منهج الاستنباط من القرآن الكريم، ص٤٥، وقد أفدت منه مشكورًا في هذا المبحث.

(٣) انظر: المبادئ العشرة لعلم الهدايات القرآنية، الدكتور فخر الدين المحسي، ص٣١-٣٦، بتصرف وزيادات، وله اهتمام حسن بالتنظير لهذا المفهوم فمن أبحاثه أيضًا: تقريب الهدايات القرآنية، وضوابط تنزيل الهدايات القرآنية علىٰ الواقع، ومن المهتمين أيضًا بتأصيل مفهوم الهدايات الدكتور طه عابدين وله: طرق العلماء في استخراج الهدايات القرآنية وصياغتها.

(٤) نظرات في الهدىٰ المنهاجي في القرآن الكريم من خلال السور حسب ترتيب النزول، ص١٣-١٤.

وتبعه تلميذه الذي برَّ سلفه، وأشاد شرفه، فريد الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ١٤٣٠هـ) حين أقام مشروع المجالس القرآنيَّة تحت عنوان: مجالس القرآن: مدارسات في الهدىٰ المنهاجيِّ من التلقِّي إلىٰ البلاغ.

الثَّاني: الدلالات، كقول الماتريديِّ (ت: ٣٣٣هـ) في كلامه عن آية تسخير البحر: «وفي ذلك دلالات: إحداها: إباحة التجارة بركوب الأخطار، لأن الغائص في البحر يخاطر بنفسه»[١].

وقول القاسميِّ (ت: ١٣٣٢هـ) في آية التثبت: «ففيها دلالات: إحداها أنه لم يأمر بالتبيِّن عند مجيء كل فاسق بكل نبأ»[٢].

الثَّالث: الإرشادات: كقول ابن باديس (ت: ١٣٥٨هـ): «ولكن لا يفوتنا أن نختلس منها إرشادات، وما عليكم بعدها إلا أن تتدبَّروا الآية. ففيها: ١- نظام الشورىٰ صريحًا لا مواربة فيه»[٣].

الرَّابع: الفوائد: وهي أكثر الاطلاقات انتشارًا في كتب التفسير، ومنه قول الرازي (ت: ٦٠٦هـ): «في تفسير قوله (ربِّ العالمين)، وفيه فوائد»[٤].

وبعضهم يدخل المصطلحات المختلفة في هذا المعنىٰ كاللطائف، والإشارات، والتدبرات، والتدارس، وهي علىٰ اختلافها لمعنىٰ الاستهداء إلا أن استعمالها يتداخل معه بوجه من الوجوه.

وبعد التقديم النظري بتعريف كل مفهوم ومصطلح مقارب يكون الطريق رهوًا للحديث عن المبحث الآتي.

---

(١) تفسير الماتريدي، (٦/ ٤٨٦).

(٢) محاسن التأويل، (٧/ ٣١٨).

(٣) مجالس التذكير، ص. ٤٠٠

(٤) التفسير الكبير، (١/ ١٩٨).

المبحث الثَّاني
معمار الاستهداء وموقعه في الممارسة التفسيريَّة

خرجتُ بتصوُّر منهجيٍّ لعلم التفسير وحدوده بعد طول تفحُّص وتأمُّل[1]، وهو قائم علىٰ العلاقة بالمعنىٰ التفسيريِّ، وسأقربه بالتقسيمة الآتية:

أوَّلًا: **بوابة المعنىٰ التفسيريِّ**: وهي المباحث التي ترفد التصوُّر العامَّ وتكوِّن إطارًا كليًّا للوحدة -سواء كانت سورة كاملة أو مقطعًا منها-، مثل: فضائلها، وأسباب النزول فيها، وتناسبها النظاميُّ، ومكيها ومدنيها، وسفريها وحضريها، وليليها ونهاريها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها، ومقاصدها ومحاورها، وجملة الأنظار التي تشيد من الجزئيِّ معمارًا سياقيًّا كليًّا.

فهي بوابات للمعنىٰ، يسترفد بها المفسِّر في فهمه للدلالة دون تفصيل معنىٰ الآي بعينها.

ومن أمثلة بوَّابة المعنىٰ ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٧٢٨هـ): «وقد ذكرتُ في مواضع ما اشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم

(١) يعلم العاقل الذي خبر سياسة العلم وتدبيره أن القول الراجح المختار ليس القول السالم من كل اعتراض، ولكنه القول الذي يطيق دفع اعتراضاته باتساق أكثر من غيره، ومنه هذه التقسيمة التي اجتهدت بها، أما الحسم في مواطن الاحتمال فدلالة جموح نفسي وإن ظنها صاحبها ثقة وقوة شخصَّية علميَّة.

وقواعد الدين: أن الله افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتَّقين، فوصف أهل الهدىٰ ثم الكافرين ثم المنافقين. فهذه (جمل خبريَّة) ثم ذكر (الجمل الطلبيَّة) فدعا الناس إلىٰ عبادته وحده، ثم ذكر الدلائل علىٰ ذلك من فرش الأرض، وبناء السماء، وإنزال الماء، وإخراج الثمار رزقًا للعباد، ثم قرَّر الرسالة، وذكر الوعد والوعيد، ثم ذكر مبدأ النبوَّة والهدىٰ وما بثه في العالم من الخلق والأمر، ثم ذكر تعليم آدم الأسماء وإسجاد الملائكة له لما شرَّفه من العلم؛ فإن هذا تقرير لجنس ما بعث به محمَّد ﷺ من الهدى ودين الحق، فقصَّ جنس دعوة الأنبياء، ثم انتقل إلىٰ خطاب بني إسرائيل وقصة موسىٰ معهم وضمَّن ذلك تقرير نبوته، إذ هو قرين محمَّد، فذكر آدم الذي هو أوَّل، وموسىٰ الذي هو نظيره»[1].

ومنه قول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ (ت: ٧٥١هـ): «سورة النِّعم وهي سورة النَّحل التي ذكر فيها: أصول النِّعم، وفروعها، ومتمِّماتها، ومكمِّلاتها»[2].

ثانيًا: **عُقْر المعنىٰ التفسيريِّ**: التأويل ومعرفة معنىٰ الآي، وهو روح علم التفسير، وبدونه ينهار المعمار.

وأمثلة التأويل أكثر من الحصر، ومنه قولهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: الكوثر الشيء الكثير، وقيل: نهر في الجنة.

فتبيان المعنىٰ تأويل، وهو جزء من علم التفسير؛ بل أهم أجزائه.

ثالثًا: **رحبة المعنىٰ التفسيريِّ**: وتكون كالرحبة للمنزل متَّصلة به، متمَايزة عنه، وهي الاستنباطات التي تسُوق المعنىٰ لفنٍّ خارج حدَّ التأويل، لكنها مستمدَّة من الآية مفردة أو مركَّبة.

ومنه استنباط الشافعيِّ (ت: ٢٠٣هـ) من قوله تعالىٰ ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٧] علىٰ صحَّة صوم من أصبح جُنُبًا.

---

(١) مجموع الفتاوي، (١٤/٤٣ وما بعدها)، والنص طويل أبرز فيه أبو العباس محاور سورة البقرة ومعاقدها.

(٢) مفتاح دار السعادة، (١/٢٩٣).

قال إلكيا الهراسي (ت: ٥٠٤هـ): «وهذا لم يفهمه غيره وهو في القرآن تحقيقًا»[١].

وعزاه ابن العربيِّ (ت: ٥٤٣هـ) لابن عبَّاس ﵄ حين قال: «وبهذا احتجَّ ابن عبَّاس عليه، ومن ها هنا أخذه باستنباطه، وغوصه، والله أعلم»[٢].

فإباحة المباشرة إلىٰ الصبح تقتضي وقوع الغسل بعد الصبح.

فهذا استنباط ساق المعنىٰ القرآنيَّ للفقه، ودلالته مستقاة من النصِّ، وهذا تفسير بالمعنىٰ العامِّ، وليس تأويلًا.

رابعًا: **حِملُ المعنىٰ التفسيريِّ**: وهو عين الاستهداء بالقرآن، حيث يمدُّ المعنىٰ المستمدّ من الآية ليعالج فكرةً أبعد.

والاستهداء القرآني علىٰ أوجه ومسالك، نبيِّنها بالتفصيل والتمثيل في المبحث الآتي.

---

(١) أحكام القرآن للهراسي، (٢/ ٤٦٧).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي، (١/ ١٣٦-١٣٧).

المبحث الثَّالث
مسالك الاستهداء بالقرآن

قدَّمت فيما سبق تصوُّرًا منهجيًّا للعلاقة بين التفسير وبقية المفاهيم المجاورة، وقلت إنَّ التفسير اسم عامٌّ للعلم، وتندرج تحته ممارسات أهمها: التأويل، والاستنباط، والاستهداء، وأما التدبُّر فهو اسم لعمليَّة التفكير المركَّزة التي تُنتج تأويلًا، أو استنباطًا، أو استهداءً.

وفيما يأتي بسطٌ للمفهوم الذي قام الكتاب لتأصيله «الاستهداء بالقرآن».

وهو علىٰ أوجه ومسالك، كلها داخلة في الاستهداء.

المسلك الأوَّل: الاستشهاد بالقرآن:

وهذا ضربٌ من الاستهداء بالقرآن، وهو يكسب الكلام رصانة ورفعة وحلاوة.

قال ابن وهب الكاتب (ت: بعد عام ٣٣٥هـ): «وإذا استعمل المترسِّل في كتبه التمثيل بآداب الأوائل، والاستشهاد بالقرآن كان ذلك أحلىٰ لمنطقه، وأحسن عند سامعه»[(١)].

وذكر السيوطيُّ أنه لا يعلم خلافًا في جواز الاقتباس في النثر في غير المجون والخلاعة وهزل الفسَّاق ونحو ذلك[(٢)].

---

(١) البرهان في وجوه البيان، ص.٢٨٤

(٢) تنوير الحالك، (١/ ٣١٢).

والأمر أوسع من تزويق الأحاديث الأدبيَّة، ففي الاستشهاد اعتقادٌ بحاكميَّة القرآن، وإعطاؤُه المقادة، والركونُ إلىٰ حقائقه، وشدُّ الكلام بمعانيه العليَّة، فالكلام مطيَّة الأفهام.

ومن أمثلته ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلَّام (ت: ٢٢٤هـ) بسنده أن ابن عبَّاس ﵄ نُعي إليه أخوه قُثَم وهو في مسير، فاسترجع ثم تنحَّىٰ عن الطريق، فأناخ فصلَّىٰ ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلىٰ راحلته وهو يقول -أو يقرأ-: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]»[(١)].

وروىٰ بإسناده عن أبي وائل قال: «إن الرجل ليتكلَّم في المجلس بالكلمة من الكذب ليضحَك بها جلساؤه، فيسخط الله تعالىٰ عليهم جميعًا. قال العوام: فذكرت ذلك لإبراهيم [النخعيِّ] فقال: صدق، أوليس ذلك في كتاب الله ﷻ؟ ثم قرأ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ﴾ [النساء: ١٤٠]»[(٢)].

وعلاقته بالتفسير ظاهرة بأدنىٰ تأمُّلٍ، فهو تبيانٌ موقفيٌّ لمعنىٰ الآية.

المسلك الثَّاني: الاستمداد البيانيُّ:

وهو غير الاستشهاد، وصورته: اصطباغ قلم الكاتب بأساليب القرآن، أو ما أسمِّيه «**الاغتسال القلميّ**»، فيقرأ القرآن ويتحفَّظه ويكرِّره حتىٰ يظهر أثر المفردات والتراكيب القرآنيَّة علىٰ أسلوبه، وإنَّ عيبًا -دونه كل عيب- أن يصف الله كتابه بالبيان المعجز ثم نُعرض عن النهل من معين بلاغته، والمورد العذب لمن لا يرتوي منه بمنزلة الماء الموضوع علىٰ قبر.

وسآتي بأمثلة من الشعر والنثر:

فمنه قول البحتري (ت: ٢٨٤هـ) يعاتب إبراهيم بن الحسن بن سهل: [الوافر]

---

(١) الشواهد لأبي عبيد، ص٥٩-٦٠.

(٢) السابق، ص٧٤-٧٥.

وَمَـالِـي قُـوَّةٌ تَـنْـهَـاكَ عَـنـي وَلَا آوي إِلَـىٰ رُكْـنٍ شَـديـدِ[1]

وتلحظ استمداده من آية ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

ومنه قول لسان الدين بن الخطيب (ت: ٧٧٦هـ): [الكامل]

ولئن غدا بحر البلاغة بلقعًا فلربَّ كنز في أساس جدار[2]

وهنا ترىٰ أثر استلهامه آية ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٢].

ومنه قول الجواهري المعاصر (ت: ١٤١٧هـ): [المجتث]

لم يبقَ أي حراكٍ في قلبي النضَّاضِ
يا حاكمي يا خصيمي اقضِ بما أنت قاضِ[3]

وأمثلته كثيرة، وقد أعرضت عن التناصِّ اللفظيِّ مع الآيات لحاجته إلىٰ التفصيل الفقهيِّ الذي سيأتي في مبحث قادم إن شاء الله.

أما النثر فمثله ما نراه في كثير من أساليب المترسِّلين، وسأكتفي بناثر واحد معاصر، وأُعرض عن السابقين؛ لأنه في المتقدِّمين أظهر، وأسبابه أعمل، وهو عبد العزيز البشريّ (ت: ١٣٦٢هـ)، فقد لحظت هذا علىٰ نثره، ومنه قوله:

«فكأيٍ من رجل يؤمن أشد الإيمان».

«وكأيٍ من رجل يحذق قواعد الأخلاق».

«وكأيٍ من رجل أوتي البصيرة في فن الاقتصاد».

«أما الناقد الذي أضله الله علىٰ علم».

«وإن تعجب فعجب أني أرىٰ أن عدم إكباب حافظ . . .».

---

(١) ضمن ديوانه الذي جمعه عمر فاروق الطباع، (١/ ٣٤٢-٣٤٤).

(٢) انظر: نفح الطيب للمقري، (٦/ ٤٦٨).

(٣) من قصيدة له مطلعها:

طال السكوت لأمرٍ خيرًا عسىٰ أن يكونا

وهي ضمن الأعمال الشعرية الكاملة التي جمعها: عصام عبد الفتاح (١/ ٧٣).

وقد كتب مقالة اسمها (الحرب في الإسلام) حشد لها آيات وأحاديث كثيرة، ومقالة أخرىٰ عذبة عن (ميلاد السيد المسيح في الدين الإسلامي)، زيَّنها بما زيَّن به مقالته الأولىٰ[1].

وسيأتي مبحث برأسه حول تأثُّر غير المسلمين بأساليب القرآن وطرائقه البيانيَّة.

المسلك الثَّالث: جمع النظائر وتركيب المعنىٰ:

وهي ما يسمَّيها ابن القيِّم (ت: ٧٥٢هـ) دلالة التركيب، فقد قال بعد ذكره دلالة الإفراد: «أو بدلالة التركيب، وهو: ضمُّ نصٍّ إلىٰ نصٍّ آخر، وهي غير دلالة الاقتران، بل هي ألطف منها وأدقُّ وأصحُّ»[2].

وقال: «وأخصُّ من ذلك وألطف؛ ضمُّه إلىٰ نصٍّ آخر متعلِّق به، فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا علىٰ ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا ينتبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به»[3].

وقد يكون الضمُّ بين آيتين، أو أكثر، ومثال الارتباط بين نصين استهداء علي وابن عبَّاس ﷺ بآية ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وقوله ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بأن المرأة قد تَلِدُ لستة أشهر[4].

---

(١) انظر: النضار، الآثار الباقية لجاحظ العصر عبد العزيز البشري، جمع الدكتور عبد الرحمن قائد، ص٤٦، ٦٥، ٧٧، ١٥٤. وللشيخ دراز نص جميل يظهر فيه تأثره بالقرآن وأساليبه، انظره في: النبأ العظيم ص٢٨٨ طبعة الشيخ عمرو الشرقاوي، وبدايته: «أرأيت هذه المراحل الأربع»، مقطوعة بديعة تصلح للحفظ.

(٢) إعلام الموقعين، (١/ ٢٧٣).

(٣) السابق، (١/ ٢٦٧).

(٤) مصنف عبد الرزاق، (٧/ ٣٥٠).

ومن مسالك ضمِّ النصوص والاستهداء بها جمعُ الآيات التي يكون متعلَّقُها واحدًا بترتيب معيَّن، وهي طريقة عظيمة في تثوير المعنىٰ، ومن أمثلته:

ما قصَّه الله ﷻ من أحوال جوارح الكفار يوم القيامة، نأخذ العين علىٰ سبيل المثال؛ فالعين يزداد بصرها ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سُورَةُ قٓ: ٢٢]، ثم تشخص ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ [القِيَامَة: ٧]، وتخشع ذلة ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القَلَم: ٤٣]، وتتقلَّب ﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النُّور: ٣٧]، ولا تطرف خمسين ألف سنة ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، وينظرون للنار خائفين دون تحديق ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشُّورَىٰ: ٤٥]، ويرون أحبابهم ويعرضون عنهم ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المَعَارِج: ١٠-١١]، وتكون أعينهم حينًا عميًا ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإِسْرَاء: ٩٧]، وحينًا زرقًا ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طٰهٰ: ١٠٢][1].

وهكذا ترىٰ هذا الجمع لأحوال جارحة (العين) وحدها أفاد معاني إضافيَّة لمن استهدىٰ.

المسلك الرَّابع: استخدام أدوات الأصول والنظر في استخراج الدلائل:

الحقُّ -وأنفُ أهل الجمود راغمٌ- أنك كيفما قلَّبت النصَّ القرآني وجدت هداية منطوية، وأن سبيل المؤمن استسقاء الآية بكل وسيلة تحيي قلبه وعقله، ومن الوسائل تفعيل أدوات أصول الفقه في فهم النصوص واستخراج كنوز المعاني.

ومن الأدوات استعمال مفهوم الموافقة: وهو ما وافق المسكوت عنه المنطوق في الحكم، ويسمَّىٰ (فحوىٰ الخطاب) و(لحن الخطاب)[2].

---

(١) انظر: المراحل الثمان لطالب فهم القرآن، للدكتور عصام العويد، ص١١٧- ١٢٦.

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير، (٣/ ٤٨٣).

ومن أمثلة استخدامه في الاستهداء ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) في قوله تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]: «أي وأشربوا حبَّه، فإذا كان المخلوق الذي لا تجوز محبته قد يحبُّه القلب حبًّا يجعل ذلك شرابًا للقلب، فحبُّ الربِّ تعالىٰ أن يكون شرابًا يشربه قلوب المؤمنين أولىٰ وأحرىٰ»[(١)].

ومن أمثلته قول شمس الدين ابن مفلح (ت: ٧٦٣هـ) في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]: «وإذا كان توقُّف القلب عن الرضا بحكم الرسول ﷺ يُخرج عن الإيمان، فكيف يصحُّ الإيمان مع الاعتراض علىٰ الله تعالىٰ»[(٢)].

ومنه قول العزِّ بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ) في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]: «إذا أحبَّ مولاك المتطهِّرين من الأحداث والأنجاس، فما الظنُّ بمن تطهَّر من الذنوب والأدناس»[(٣)].

المسلك الخامس: تحقيق مناط الآية علىٰ أحوال الإنسان:

وهو نوعٌ لطيفٌ من أنواع الاستهداء، تلحظه في مدونات التفسير وغيرها، قوامُهُ إنزالُ الحادثة المجتمعيَّة أو الشخصَّية علىٰ تفسيره لآية، واستحضار المعنىٰ اللائق بالمقام. وقد كان ابن تيميَّة (ت: ٧٢٨هـ) يقول: «والنَّاس تغيب عنهم معاني القرآن عند الحوادث»[(٤)].

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية، (١/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) الآداب الشرعية، (٢/ ١٩٤).

(٣) شجرة الأحوال والمعارف، ص٥١، ومن الكتب النافعة التي أفدت منها في هذا المبحث كتاب شيخنا الدكتور خالد السبت (القواعد والأصول وتطبيقات التدبر).

(٤) مجموع الفتاوي، (٢٧/ ٣٦٣).

وكلام أبي العبَّاس حقٌّ، مصداقُهُ ما حدث للفاروق عمر ﷺ حين مات النَّبي ﷺ، فلقيه أبو بكر ﷺ فقال: «وقال الله ﷻ في كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]»، فقال عمر: «والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا»[(١)].

ومن أمثلته في كتب التفسير شكوىٰ القرطبيِّ (ت: ٦٧١هـ) عند تفسيره قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: «فقد لبسنا العدو في ديارنا، واستولىٰ علىٰ أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا، بقتل بعضنا بعضًا، واستباحة بعضنا أموال بعض، نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن»[(٢)].

ومنها حديث الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) عند تفسيره قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] عن الرباط وأحاديثه، ثم إيراده قصة «يا عابد الحرمين لو أبصرتنا»، وساق أبياتها[(٣)].

وهذا بلا شكٍّ خارج حدِّ التأويل وتبيان معنىٰ الآية، لكنه داخل في التفسير من بابة الاستهداء بالمعنىٰ القرآنيِّ ومَدِّهِ لمعالجة موضوع أبعد.

ومنه ما يكون في تحقيق مناط الآية علىٰ أحوال شخصيَّة، ومثاله ما سطَّره الفخر الرازيُّ (ت: ٦٠٦هـ) عند قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]: «والذي جربته من أول عمري إلىٰ آخره أنَّ

---

(١) القصة بتمامها في الروض الأنف للسهيلي، (٧/ ٥٨٦-٥٨٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٧/ ٩)، وله في تفسيره مواضع يشكو بها بعض أحوال مجتمعه؛ جمعها الشيخ مشهور آل سلمان في كتيب قديم اسمه (شكوىٰ القرطبي من أهل زمانه»).

(٣) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٠٢ -٢٠٣)، وهي في تاريخ الإسلام للذهبي، (١٢/ ٢٤٠)، وتاريخ دمشق لابن عساكر، (٣٢/ ٤٤٩)، ووفيات الأعيان لابن خلكان، (٣/ ٣٢)، وقد بالغ بعض المعاصرين في إنكار القصة والتشنيع عليها؛ انظر: المقالات القصار في فتاوي الأحاديث، للشيخ أحمد شحاتة الألفي السكندري، ص٤٣-٤٩، وقد سمَّىٰ مقالته: (طعن القنا في صدر مفتري: يا عابد الحرمين لو أبصرتنا).

الإنسان كلما عوَّل في أمر من الأمور علىٰ غير الله صار ذلك سببًا إلىٰ البلاء والمحنة، والشدَّة والرزية، وإذا عوَّل العبد علىٰ الله ولم يرجع إلىٰ أحدٍ من الخلق حصل ذلك المطلوب علىٰ أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرَّت لي من أول عمري إلىٰ هذا الوقت الذي بلغت فيه السابع والخمسين، فعند هذا استقرَّ قلبي علىٰ أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل علىٰ شيء سوىٰ فضل الله وإحسانه»[1].

وثمَّة مستوىٰ خفي أدقُّ وألطف، تراه في التلبُّس بحال مختلفة عند الحديث عن آية تعالج جرحًا كابده المفسِّر، فترىٰ المفسِّر الذي مرَّ بفتنة الحبس يتجلَّىٰ قلمه وينطلق بروح مختلفة عند الحديث عن آيات السجن من سورة يوسف، وترىٰ المفسِّر الذي جرَّب غبن الإفك والاتهام بالعرض يصوغ تفسير سورة النور بأحرف تنبض ألمًا، وهكذا.

ومن أمثلته ما جرىٰ لعلَّامة الشام في زمانه جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ حين ابتُلي بوشاية أدخلته السجن، وأثيرت الأقاويل، وأشيعت الأباطيل، حتىٰ اتُّهم بأنه ينتحل مذهبًا جديدًا اسمه (المذهب الجمالي) نسبة لنفسه، وقد عُرفت الحادثة بـ (حادثة المجتهدين)[2].

ولا تخطئ عين الناظر أنَّ من محرِّكات تلك الفتنة ما حصل له من بسطةٍ في العلم، وفتوحٍ في الفهم، والحسدُ كالروح؛ لا يخلو منه جسد، لكن لا يراه أحد.

وفي تلك الحادثة كما يرويها بقلمه أن المفتي الذي انتصب لضرِّ الشيخ جمال الدين ومن معه اعتذرَ آخر الأمر، وقال إنَّ الله نصر الشيخ القاسمي ومن معه عليه، وصار يطيِّبُ خواطرهم.

---

(١) مفاتيح الغيب، (١٨/ ٤٦٢).

(٢) انظر ما كتبه القاسمي نفسه عن (محنة المجتهدين) كما في كتاب: إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي، للشيخ محمد بن ناصر العجمي، ص٦٣-٩٥.

شرَع القاسمي بعد تلك الحادثة بمدَّة في تفسيره (محاسن التأويل)[1]، والحادثة لا تفارقه، ثم أتىٰ لتفسير سورة يوسف، عند آية ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يُوسُفَ: ٥] فقال وكأنه يبثُّ نفثة مكتومة، أكاد أتخيل زفرته وهو يتذكَّر ما حصل له: «وفي الآية دلالة علىٰ ما نشاهده من معاداة الأقران لمن ظهرت عليه مبادئ الجمال النفسيِّ، والخلق المرضيِّ، والجلال الظاهر علىٰ ملامحه، فيعيبونه بما يشينه في نفسه، أو عرضه، أو خلقه؛ دلالة علىٰ أن هذه سنة في الكون لا تغادر نبيًّا، ولا حكيمًا، ولا عالمًا، مهما حسُنت أخلاقه، وجمل ظاهرُه وباطنُه، جرت تلك السنة في الأناسي؛ فإنْ صبر الصالح، فاز بالولاية عليهم، وأحبُّوه بعد العداوة ولو بعد حين، وعادوا من آذاه»[2].

يكتب القاسميُّ نفثته المكتومة؛ يكاد يقول: هذا ما حصل لي أيضًا في حادثة المجتهدين.

وممن لحظت هذا في حياته العلَّامة عبد الحميد ابن باديس، فقد مرَّ والدهُ بأزمة ماليَّة خانقة، كانت فرصة لمدير الشؤون الأهليَّة آنذاك الفرنسي (ميرانت) ليضغط بكل ما أوتي من أدوات ليقنع ابنه بالاستجابة لمطالب الفرنسيِّين، مقابل تخليصه وترقيع حاله، ولما رفض الشيخ ابن باديس هذه الضغوط القاسية بأدب وحزم، خرج بيان صاعق يعلن فيه الوالد براءته من مواقف ابنه وأعماله، وهذا موقف يهزُّ الجبال، ويغيِّر أنصاف الرجال، لكن الإمام المصلح اختار دعوته، وتجرَّع هذا الموقف بثبات لافت[3].

---

(١) جاء في (بدع التفاسير) لعبد الله الغماري ص١٦١-١٦٢، ما يفيد أن تفسير القاسمي طُبع ناقصًا بسبب تدخل الطابع بحذف أجزاء منه دون رضا المؤلف، وفي ترجمة (عبد القادر السبسبي) من كتاب: رجال فقدناهم للشيخ مجد مكي (٢/ ٥٩١) ما ينص على أن نقدات السبسبي هي التي اعتمدها الناشر في حذفه، وقد أشار الكرام في مركز تفسير إلى عزمهم على طبعه كاملاً لأول مرة قريبًا إن شاء الله.

(٢) محاسن التأويل، (٦/ ٢٤١).

(٣) انظر تفاصيل هذه البراءة في كتاب (ابن باديس والإبراهيمي وجمعية العلماء المسلمين في الثورة الجزائرية)، للشيخ أحمد حماني، ص١٦٨-١٧٠.

قال لأبيه: «حاشا أن أعصي لك أمرًا، أو أن أخالف لك رأيًا، وأنا ابنك المطيع، إلا أنَّ هذا الذي تدعوني إليه ليس في استطاعتي إطلاقًا، لأنني إن أطعتك فيه خالفت أمر الله، وأمر الله فوق أمر الوالد بنصِّ القرآن»[1].

وحين فسَّر ابن باديس قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مَرْيَمَ: ٩٦] قال -وأريد منك أن تستحضر قصته مع أبيه-: «في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحقِّ وأنصار السنة ومرشدي الأمم، عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائرهم، ويلقَون منهم النفور والإعراض والبغض والإنكار، ويجدون أنفسهم غرباء بينهم، يعاديهم من كانوا أحبابهم، ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم، في الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنهم سيكون لهم علىٰ كلمة الحقِّ مؤيَّدون، وفي الله محبِّون، وسيكون لهم ودٌّ في القلوب ممن يعرفون وممن لا يعرفون»[2].

وعندي أمثلة أخرىٰ لمفسِّرين متقدِّمين ومتأخِّرين، تقرأ سيرتهم وتعرف تراجمهم ثم تجرد تفاسيرهم فتجد ندوب الروح كامنة في مطاوي الكلمات.

المسلك السادس: ردُّ الاعتراضات الحادثة:

من مسالك الاستهداء بالقرآن أن تُردَّ سهام الشبهات التي أوردت علىٰ الآية بحسب الزمان والمكان، وهو دائر في حِمىٰ المعنىٰ والذود عنه من عادية من يريد إبطاله.

ومن أمثلته صنيع الإمام الطبريِّ (ت: ٣١٠هـ) حين قال عقب تفسير الفاتحة: «مسألة يسأل عنها أهل الإلحاد الطاعنون في القرآن»[3]، ثم أفاض في

(١) ابن باديس الرجل العظيم، أحمد توفيق مدني، مجلة الأصالة، العدد ٤٤، إبريل ١٩٧٧، ص٥٩.

(٢) تفسيره، ص٥٧٠.

(٣) تفسير الطبري، (١/١٩٩-٢٠٣) طبعة: د. عبد الله التركي.

بضع صفحات ليرد علىٰ هذه الشبهة[1].

ومن أمثلته ما سطَّره القاسميُّ في تفسيره عند قوله تعالىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النِّسَاءِ: ١٥٨] قال بعد تأويل معنىٰ الآية وتبيان معناها: «تنبيه: لا خفاء في أن هذه الآية الكريمة لتكذيب اليهود في دعوىٰ الصلب التي تابعهم عليها أكثر النصارىٰ، ولتبرئة ساحة مقام عيسىٰ عليه السلام مما توهَّموه في ذلك، ولما كانت هذه الآية من مباحث الأمَّتين، ومعارك الفرقتين، أردت بسط الكلام في هذا المقام، انتهاجًا للحقِّ، وأخذًا بناصر الصدق، ورد أباطيل المكذِّبين، وتزييف أقوال الملحدين، نورد أولًا ما زعموه ورووه، مما نفاه التنزيل الكريم، ثم بطلان المروي عندهم وتهافته بالحجج الدامغة»[2]، ثم أفاض بالنقولات عن كتب القوم والردِّ عليها بالتفصيل في نحو خمسين صفحة، لا يجاوزها لآية أخرىٰ، وهذا بلا شكٍّ داخل في التفسير من قبيل الاستهداء وردِّ الاعتراضات علىٰ الآية[3].

المسلك السابع: التبيان الجمالي:

ومقصودي بهذا أن بعض المفسِّرين يغتنمون السياق المناسب ليبيِّنوا بعض محاسن الإسلام المتعلِّقة بالمعنىٰ القرآنيِّ المفسَّر، ويبسطون القول فيه تثبيتًا

---

(١) ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢/ ١٦١) أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: «أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنىٰ فيه الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة».
والذي يهمُّني من هذا النص أن الموجود بين أيدينا من تفسير الطبري عُشر ما كان ينوي تصنيفه، ومنطقيًّا لن تكون التسع أضعاف الأخرىٰ -لو أملاها- محصورة في فلك التأويل وتبيان معنىٰ الآية فقط، بل سيكون فيها استنباطات واستهداءات مبسوطة، تركها اختصارًا، لا لعيب منهجي في تضمين التفسير الاستهداءات المختلفة، فإن قلنا إن ما تركه الطبري هو تأويل فقط لزمنا القول بأنه ترك تسعة أعشار معاني القرآن، وهذا يعود بالثلب علىٰ تفسيره الذي بين أيدينا -وحاشاه-.

(٢) محاسن التأويل، (٣/ ٣٩٣-٤٤١).

(٣) وتفاسير علماء الهند حافلة بهذا النمط من الاستهداء، ومنها: تفسير القرآن بكلام الرحمن لثناء الله الآمرتسري (ت: ١٣٦٨هـ).

لنفوس المؤمنين، ولحظت أنهم يختارون من المعاني ما يكون حاضرًا في زمانهم.

ومن أمثلته صنيع الشيخ تقي الدين ابن تيميَّة (ت: ٧٢٨هـ) في تفسيره لسورة النور عند قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النُّور: ٢]: «وبهذا يتبيَّن لك أن العقوبات الشرعيَّة كلَّها أدوية نافعة يُصلح الله بها مرض القلب، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم الداخلة في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعانه علىٰ عذابه وهلاكه وإن كان لا يريد إلا الخير، إذ هو في ذلك جاهل أحمق كما يفعله بعض النساء والرجال الجهَّال بمرضاهم وبمن يربُّونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم، في ترك تأديبهم وعقوبتهم علىٰ ما يأتونه من الشرِّ، ويتركونه من الخير رأفة بهم، فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم»[(١)].

ومن أمثلته صنيع العلامة الأمين الشنقيطيِّ (ت: ١٣٩٣هـ) في تفسيره لسورة الإسراء، عند قوله ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإِسْرَاءِ: ٩] قال: «ذكر الله جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماويَّة، وأجمعها لجميع العلوم، وآخره عهدًا بربِّ العالمين جلَّ وعلا، «يهدي للتي هي أقوم»، أي: الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب».

ثم أفاض في تبيان أوجه الجمال والجلال والكمال في التوحيد والتشريعات الإسلاميَّة من طلاقٍ، وتعدُّدٍ، وميراثٍ، وقوامةٍ، وقصاصٍ، وحدودٍ، وتقدُّمٍ، وضلال متبع غير الإسلام، وأهميَّة ترابط المسلمين، وتحقيق المصالح، وحلِّ مشكلات العالم، وقد سطَّره في حِمىٰ معنىٰ الآية في نحو ستين صفحة[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوي، (١٥/ ٢٩٠).

(٢) أضواء البيان، (٣/ ٤٨٧-٥٤٢)، طبعة عطاءات العلم.

والشيخ الشنقيطي قد فسر القرآن كاملاً في الحرم النبوي مرتين: [انظر: ترجمة الشيخ السديس =

المسلك الثامن: الاقتباس التخصُّصي:

وأعني به أن يختار المتخصِّص في غير التفسير أمثلة قرآنيَّة لشرح مباحث فنِّه، قال ربيعة (ت: ١٣٦هـ): «من تعلَّم الفرائض بغير علمٍ من القرآن، فما أسرع ما ينساها. قال مالك: وصدق»[(١)].

ونظيره أن يشرح الأصوليُّ دلالات الألفاظ -مثلًا- بأمثلة قرآنيَّة، فيشرح دلالة الاقتضاء من قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٢٣]، ويشرح مفهوم الموافقة من قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإِسْرَاء: ٢٣]، ومفهوم المخالفة من قوله: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النُّور: ٤].

ويأتي النحويُّ ليشرح باب كان وأخواتها بأمثلة قرآنيَّة تغطي مسائلها وأحوالها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٢٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغَاشِيَة: ٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزُّمَر: ٣٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٨٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْصَنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مَرْيَم: ٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النِّسَاء: ١٣٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الرُّوم: ١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكَهْف: ٤٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القَصَص: ٤٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى

= له ص٦٩]، وقد حدّثني زين أصحابي ومقدّم أصدقائي الشيخ وليد العاصمي أنه سمع الشيخ عبد الله الغنيمان يقول: «سجلتُ تفسير الشيخ الأمين كاملاً من الفاتحة إلى الناس على أسطوانات، وأخذها طالب علم من بلد عربي ليفرغها ولم يره بعدها أو يرَ أي إثارة من علم هذه الدروس».

(١) الكافي في الفرائض، ابن المنمّر الطّرابلسي (ت: ٤٣٢هـ)، ص.٨٥

رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

وهذه الشواهد فقط في درس كان وأخواتها للنحويِّ، وقِسْ عليها بقيَّة الأبواب.

المسلك التاسع: التثوير الوعظيُّ:

وهذا المسلك عذب يطيِّب النفس، ويستنزل السكينة، ويرقِّق القلب.

قال الخطابيُّ (ت: ٣٨٨هـ): «في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه النَّاس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذُّ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلىٰ القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرىٰ مايخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتىٰ إذا أخذت حظَّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، ويغشاها الخوف والفرق، تقشعرُّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفوس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها»[1].

ومن أمثلته ما صنعه الإمام الرسعنيُّ (ت: ٦٦١هـ) في تفسيره، عند قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] قال: «وقد كنا نتدارس القرآن في بيت من بيوت الله برأس عين، سنة اثنتين وعشرين وستمئة، وكان عام قحط وغلاء وموت ذريع بسبب الجوع، فأتينا علىٰ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾، وعندنا رجل من ذوي اليسار يستمع القرآن سماع تفكُّر واعتبار، فصاح صيحة شديدة، وألقىٰ نفسه في وسط الحلقة

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٧٠.

كهيئة الولهان، ثم تراجعت إليه نفسه، فقال لنا: أشهدكم أنَّ لله في مالي مئة مكّوك[1] من الحنطة، وستمئة درهم أصلحها بها وأطعمها لفقراء المسلمين، أقي بها نفسي وأهلي من نار جهنم، ثم نهض وأمضىٰ ذلك باطِّلاع منا في أيَّام، فكان مجموع ما أنفقه نحوًا من مئتين وخمسين دينارًا تقريبًا»[2].

وهذا استهداء وعظيٌّ، واستطراد سلوكيٌّ، يدخل في التفسير بمعناه الواسع الذي تقرَّر.

المسلك العاشر: الخطاب السُّنني لكليَّات المفاهيم القرآنيَّة:

ومعناه تدبُّر سنن الله في الحياة والإنسان عبر القرآن، والخروج منها بدروس تكشف أسباب ضعفنا، وتُصلح ما وسعنا إصلاحه، وكل الذي أرجوه أن تطَّرد همم الدعاة في تكشيف هذه السنن، وإقامة الدروس التي تربط الأجيال بمعاني القرآن.

ولو أن المربِّين الفضلاء أفردوا دروسًا تتعلَّق ببعض الآيات التي يكون الاستهداء بها نافعًا لإيصال الرسائل الإصلاحيَّة لتغيَّر حالنا، ولا يشترط أن يعمّوا كل المصحف، فالفقهاء أفردوا (آيات الأحكام) بالتحليل والتفسير والتدقيق، ولا يمنع أن يحذو المصلحون حذوهم، ويقتفوا أثرهم، فيفردوا بعض الآيات التي تشتدُّ الحاجة إليها، ولكلِّ مجتمع أولويَّاته.

ومن الآيات التي تؤسِّس للتأمُّل السنني:

قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) المكّوك: مكيال تعرفه العرب يسع صاعًا ونصف الصاع، وتقديره المعاصر فوق الأربع ليترات بقليل. انظر: معجم لغة الفقهاء، ص٤٥٠.

(٢) تفسير الرسعني المعروف باسم: رموز الكنوز، (٨/١٨٩-١٩٠)، طبعة ابن دهيش.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ومن أمثلته في كتب المفسِّرين صنيع العلَّامة الطَّاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) عند تفسيره سورة الإسراء عند قوله تعالىٰ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١] قال: «والمقصود من هذا التنظير التنبيه إلىٰ أن عطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال، ألا ترىٰ إلىٰ ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتَّحد، وقد يفضل المسلم فيه الكافر، ويفضل الكافر المسلم، ويفضل بعض المسلمين بعضًا، وبعض الكفرة بعضًا، وكفاك بهذا هاديًا إلىٰ أن مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح، ولا مما يساق إلىٰ النفوس الخيّرة»[1].

(١) التحرير والتنوير، (١٥/ ٦٣).

وبذا تمت عشرة مسالك للاستهداء في كتب المفسِّرين، قسَّمتها بهذا الطريقة تقريبًا للمعنىٰ.

وأحسب أن الجوَّ صار صحوًا بعد انقشاع سحب الغموض لنتجه بسكينة للفصل الثاني.

الفصل الثَّاني
التعليل، بواعث الاستهداء بالقرآن

المتأمِّل في منهج القرآن في تقرير المعاني العقليَّة المحسوسة يجد ملمحين متكاملين:

أولاهما: أن البرهان لا ينفع إلا أصحاب الإيمان والهداية.

ثانيهما: أن المقصد الأعظم لنزول القرآن هدايةُ الناس.

وبهذا التركيب يكون القرآن سببًا لأنواع الهدايات الإيمانيَّة والعقليَّة، فالقرآن يخاطب البصائر لا البصر، فيأتي بالدلائل المحسوسة الواضحة ويجعل إدراكها معلّقًا بالبصيرة الإيمانيَّة التي لا تُفتح إلا بالهداية، والهداية لها طريق واحد اسمه: القرآن.

وتأمَّل معي هذه الآيات لتعرف مقصودي:

الآية الأولىٰ: قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

هنا علَّق إدراك آية التابوت بالإيمان فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الآية الثانية: قال تعالىٰ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ

وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وهنا علَّق الانتفاع بآيات الطير والإبراء وإحياء الموتىٰ وخبايا تفاصيلهم الاقتصاديَّة بالإيمان، فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الآية الثالثة: قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وهنا علَّق التأثُّر بآيات دورة الحياة الطبيعيَّة بالإيمان بقوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية الرابعة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

وهنا يستمرُّ تعليق النفع بالآية المرئيَّة الجليَّة بالبصيرة الإيمانيَّة كما قال: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية الخامسة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

وهنا -أيضًا- يجعل آية الليل والنهار مرئيَّة بالعين الباصرة؛ لكن الانتفاع بكونها آية لا يكون إلا ببصيرة الإيمان كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية السادسة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

حتىٰ النجاة من النار علىٰ مشهد من الناس سيكون مرئيًّا بالعين نعم، لكن الاستهداء بهذا الأمر ورؤية الإعجاز فيه لا يكون إلا بالإيمان: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الآية السابعة: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤].

حتىٰ أعظم المخلوقات وأكبرها في العين البشرية لا تكون آية مؤثرة إلا بشرط الإيمان، فعظم الدليل لا يؤثر بذاته، كما قال جل وعلا في ختام الآية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الآية الثامنة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٣٧].

وبسط الرزق وتضييقه علىٰ جلائه لا يكون عبرة ينتفع بها إلا بالإيمان، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الآية التاسعة: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢].

وهنا عبَّر بالعلم «يَعْلَمُوا» والآية السابقة «يَرَوْا»، وكلُّها متعلِّقة بالإيمان.

والذي قصدتُ إليه من هذا الجمع أن القرآن في خطابه العقليِّ يخاطب الإيمان بصفته ممهدًا ومصلحًا للأرض القلبيَّة، لتهطل معاني القرآن عليه فتنبت يقينًا وثباتًا، فالحجج العقليَّة المحسوسة وحدها لا تغيِّر، ونقل الغافل عن جهله أهون من نقلِ المعاند عن رأيه.

هكذا أفهم حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال: «كنَّا مع النَّبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة، فتعلَّمنا الإيمان قبل أن نتعلَّم القرآن، ثم تعلَّمنا القرآن فازددنا به إيمانًا»[1].

وبعد تحرير هذه المسألة أدلف مطمئنًا إلىٰ مباحث التَّعليل وبواعث الكتابة في الاستهداء بالقرآن.

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (٦١)، والطبراني (١٦٧٨)، والبيهقي (٣/ ١٢٠).

المبحث الأوَّل
لأن القرآن ينبوع الهداية

وتقرير هذه الحقيقة يكون بطريقين:

الطريق الأول: تدبُّر لفظة «الهدىٰ» مفردة في القرآن.

الطريق الثاني: تدبُّر الجمل التي فيها معنىٰ «الهدىٰ» وعلاقتها بالحديث عن نزول القرآن.

أمَّا الطريق الأول فقد أتت معاني الهدىٰ بأربعة عشر وجهًا، مردُّها إلىٰ القرآن سببًا أو نتيجة أو اسمًا أو وصفًا:

المعنىٰ الأوَّل: الوحي: فالهدىٰ هو الوحي، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [الكهف: ٥٥]، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [غافر: ٥٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]، أي: التوراة.

المعنىٰ الثَّاني: البيان، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [السجدة: ٢٦]، أي: يتبين لهم.

المعنىٰ الثَّالث: الاستقامة علىٰ دينه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ [الحج: ٦٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣].

المعنىٰ الرَّابع: الإيمان، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مَرْيَمَ: ٧٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سَبَإٍ: ٣٢].

المعنىٰ الخامس: الداعي، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢]، أي: تدعو، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرَّعْدِ: ٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأَنْبِيَاءِ: ٧٣]، وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأَعْرَافِ: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ [الأَعْرَافِ: ١٨١]، وقوله عن القرآن: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ في [الأَحْقَافِ: ٣٠]، وفي [الجِنِّ: ٢]: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾.

المعنىٰ السَّادس: المعرفة، ومنه قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النَّحْلِ: ١٦]، وقوله: ﴿نَظُرُ أَنَهْدِىٓ أَم تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النَّمْلِ: ٤١].

المعنىٰ السَّابع: أمر النَّبي ﷺ، ومنه قوله تعالىٰ في شأن اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ [البَقَرَةِ: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ [مُحَمَّدٍ: ٣٢].

المعنىٰ الثَّامن: السكينة: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التَّغَابُنِ: ١١][1]، وقوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَةِ: ١٥٧].

المعنىٰ التَّاسع: الدلالة إلىٰ الحجَّة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَةِ: ٢٥٨].

المعنىٰ العاشر: التوحيد: ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القَصَصِ: ٥٧]، وقوله في [التَّوْبَةِ: ٣٣] و [الفَتْحِ: ٢٨] و [الصَّفِّ: ٩]: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

---

(١) قال الثعلبي: «وأخبرني من سمع عكرمة يقرأ: «ومن يؤمن بالله يهدأ قلبه»، من الهدوء: أي يسكن ويطمئن» [الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٣٢٩)].

المعنىٰ الحادي عشر: الإصلاح، ومنه قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يُوسُفَ: ٥٢].

المعنى الثَّاني عشر: الإلهام، ومنه قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طٰهٰ: ٥٠]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأَعْلَىٰ: ٣]، وقد روىٰ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الحَجِّ: ٢٤]: «ألهموا إلىٰ القرآن»[1].

المعنىٰ الثَّالث عشر: الرشد، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفَاتِحَة: ٦]، وقوله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القَصَص: ٢٢]، وقوله: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طٰهٰ: ١٠].

المعنىٰ الرَّابع عشر: الاتِّباع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٢٢]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأَنْعَام: ٩٠][2].

وأما الطريق الثَّاني فهو: تدبُّر الجمل التي فيها معنىٰ «الهدىٰ» وعلاقتها بالقرآن.

وبالنظر في الآيات وتأمُّلها يتَّضح لنا أن سمت القرآن في تقرير هذا المعنىٰ يتفرَّع إلىٰ فرعين:

الفرع الأوَّل: الحديث عن الهدىٰ في سياق نزول القرآن مباشرة:

وهذا معنىٰ واسع الحضور في كتاب الله، منه الظاهر المفرد ومنه الخفي المركَّب، نظير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإِسْرَاء: ٩]،

---

(١) صحيح البخاري، الباب ٢٣٣، (باب تفسير سورة الحج).

(٢) وقفت على كتاب اسمه: «لا وجوه ولا نظائر» للدكتور: عبد الجبار الزيداني، وقد تكلم عن نفي وجوه لفظة الهدى ص٥٣ وما بعدها، والحق أن الكتاب فيه جرأة عجيبة، واستطالة نفسية تهزّ الضعيف وتمنعه من ردّ قوله؛ فتراه يقول أحيانًا: «وهذا مسوغ تافه» ويكثر من الجزم والتوكيد في مواطن لا تحتمل هذه اللغة؛ نعم قد نناقش في بعض الوجوه وتداخلها، لكن نسف الفكرة من أساسها بهذه الطريقة مسلك نفسي أكثر من كونه معطى معرفي.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى﴾ [البقرة: ٩٧]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وأما الفرع الثَّاني: اقتران الهداية بصفة للقرآن:

فقد اقترنت الهداية بالرحمة كما في قوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]، وغيرها.

واقترنت الهداية بالبشرىٰ كما قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وفي [النمل: ٢]: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي [النحل: ٨٩]: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

واقترنت الهداية بالموعظة في قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

واقترنت الهداية بالشفاء في قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقرنها بالنور في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢].

والذي نلحظه في السياقات السابقة:

الملحوظة الأوَّلىٰ: أنَّ الهداية مرتبطة بالحديث عن القرآن.

الملحوظة الثَّانية: أنَّ الهداية مقترنة بصفة من صفات القرآن، كالرَّحمة والبشرىٰ والموعظة والشِّفاء والنُّور.

الملحوظة الثَّالثة: ماقرَّرناه من اشتراط الإيمان للانتفاع، لذا ختمت في معظمها بشرط الإيمان أو الإسلام أو التقوىٰ.

المبحث الثَّاني
لأن القرآن ينبوع الهداية اليقينيَّة

للقرآن منهجٌ فريدٌ في تثبيت اليقين في النفوس، فهدايته ليست هداية عابرة، ولا تأثيرات لحظيَّة عاطفيَّة، ولا أوامر مجرَّدة بالتسليم.

لا يمتدح القرآن القلق المعرفيَّ، ولا يحثُّ علىٰ التساؤل اللامتناهي، بل يجعل الإيمان اليقينيَّ منقبة؛ قال ﷺ: «أفضل الأعمال عند الله تعالىٰ إيمان لا شكَّ فيه»[1]، فالسؤال جسر يقين، وعكَّاز يستعين به من دهمه طارئُ شكٍّ، والاسترسال معه وتوليده العبثي دلالة ضعف في السائل لا في المسؤول عنه، ولا يفخر بالشكِّ الدائم المتجدِّد ويجعله علامة عبقريَّة وتفرُّد إلا من سفه نفسه، أو هانت عليه آخرته، أو هما معًا.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

بل أتت الآيات بذمِّ عدم اليقين، وجعله صفة نقص لمن تلبَّس بها، كما في قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النَّمل: ٨٢]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرُّوم: ٦٠].

---

(١) أخرجه أحمد، (١٠٧٥٧)، والنسائي، (٢٥٢٦)، وابن حبان، (٤٥٩٧).

وما مَثل من دهمه شكٌّ عاصف إلا كراكب سفينةٍ اضطربت به، فوجد ظهر حوت، فاستروح له، ونزل به، فإن أطال المكث ما لبث أن يتحرَّك الحوت فيغرقه، وكان حقًا عليه ألا يطيل البقاء علىٰ ظهره، وأن يبحث عن جزيرة تكون مستقرَّه ومأمنه، فالحوت السؤال، والجزيرة اليقين.

والمتعيِّن علىٰ من أتاه متسائل سُمِّمت روحه بالشكِّ أن يعينه ويرحمه، وأن يأخذ بيديه إلىٰ شواطئ السكينة القرآنيَّة.

❁ ❁ ❁

جعل الله اليقين سببًا للانتفاع بالقرآن، والقرآن سببًا في تثبيت اليقين، كما في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ومنهاج الشريعة مطَّردٌ في أنَّ الله لا يأمر بأمر إلا ويشرع معه مايعيننا عليه، ويقوينا علىٰ أدائه، فأمر سبحانه بالصبر علىٰ المرض، وشرع ما يعيننا عليه من إباحة التداوي، واستحضار أجر البلاء، وحث المسلمين علىٰ زيارة المريض، وكلُّها معينات علىٰ أمر الله بالصبر.

ومن معينات العبد علىٰ اليقين وترسيخه في النفوس تأمُّل المنهج القرآنيِّ في تثبيت محكمات الشريعة، وتجذير الهداية بطرائق حكيمة[1].

منها: التدرُّج في النزول، فالله سبحانه أنزل القرآن منجَّمًا مفرَّقًا، تثبيتًا للنفوس، وتجذيرًا لليقين، وإعانة علىٰ تفهم حقائقه، والتملِّي من أنوار طرائقه.

---

(١) انظر: اليقين في القرآن الكريم، للدكتورة وفاء الزعاقي، ص٥٦ وما بعدها، وص٩٧ وما بعدها.

قال ابن باديس (ت: ١٣٥٩هـ): «كان كلُّ نجم ينزل من القرآن العظيم -والنجم القسم الذي ينزل معًا آية أو آيتين أو أكثر- يزداد به عجزهم وعنادهم ظهورًا، وتزداد حجَّة النبي ﷺ وصدقه وضوحًا، فيزداد بذلك سكون قلبه وطمأنينته بظهور أمره علىٰ عدوه، وعلو كلمة الحقِّ علىٰ كلمة الباطل.

وفي ذلك تقويّة له، وأي تقوية، لا عن شكٍّ كان في قلبه، أو تردُّد، ولكن البراهين المتوالية، والحجج المتتالية، تزيد في سكون القلب واطمئنانه، وإن كان معقودًا من أول أمره علىٰ اليقين، فهذا وجه من تثبيت فؤاده بالآيات المتفرقات في النزول.

وقد كان كلُّ نجم من نجوم القرآن ينزل بشيء من العرفان، مما يرجع إلىٰ العقائد أو الأخلاق أو الأحكام أو التذكير بالأمم وأخبار الرسل المتقدِّمين، أو باليوم الآخر أو بسنة الله في المكذِّبين، إلىٰ غير ذلك من علوم القرآن؛ فيقوىٰ قلبه عند نزول كلِّ نجم بما يكتسبه منه من معرفة وعلم.

وكان يلقىٰ من الجهد والعناء في تبليغ الرسالة ما تضعف عن تحمله القوىٰ البشريَّة، فإذا نزل عليه القرآن، واتصل بالملك الروحانيِّ النورانيِّ، وقذف في قلبه ذلك الوحي القرآنيَّ، تقوَّىٰ قلبه علىٰ تحمُّل أعباء الرسالة وميثاق التبليغ.

ولما كان البلاء والعناء في سبيل التبليغ متكرِّرًا متجدِّدًا، كان محتاجًا إلىٰ تجديد تقوية قلبه، وكان ذلك مقتضيًا لتفريق نزول الآي عليه، فهذه ثلاثة من وجوه التثبيت.

قلوبنا معرَّضة لخطرات الوسواس، بل الأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم»[1].

ومنها: الوضوح والبيان عند عرض المسائل والبعد عن التعقيد، وهذا الأمر نراه في سورة الفاتحة، فمن حِكَم تكرارها أنها إعلان مبادئ عامَّة، وتبيان

(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص.١٧٩

أساسيَّات المعتقد، نعلن أفكارنا بوضوح ونكررها دون جمجمة ولا غمغمة ولا تمتمة.

قال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرَّعۡدِ: ٢].

هذا التبيان التفصيليُّ مُعينٌ علىٰ حصول اليقين، «وذلك أنه تعالىٰ وصف الآيات بكونها مبيِّنة واضحة الدلائل لمن يطلب اليقين التام، أو لمن يستعد له، وذلك ينافي خفاءها، وينافي أيضًا احتياجهم إلىٰ اقتراح آيات زائدة عليها لطلب مزيد يقين، لأنه تعالىٰ أظهر، وبيَّن من الدلائل والآيات ما فيه كفاية لحصول اليقين التام الكامل»[(١)].

ومنها: الحثُّ علىٰ التفكُّر والتدبُّر، وأولاها تدبُّر آيات كتابه المسطور، وثانيها تأمُّل كون الله المنظور، وثالثها التبصُّر في الأنفس والآفاق، وكلما زاد عقل المتدبر ارتوىٰ يقينه أكثر؛ فمن طال رشاؤُه كثر متحُه.

ومنها: التنويه بعظيم ثمرات اليقين، لتهفو لها النفوس، وتطلبها مظانها، وتلحُّ علىٰ الله بتحقُّقه، قال ﷺ: «سلوا الله العفو والعافية، واليقين في الآخرة والأولىٰ»[(٢)].

قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجۡدَةِ: ٢٤][(٣)].

وكان شيخ الإسلام ابن تيميَّة (ت: ٧٢٨هـ) يكرِّر هذا المعنىٰ في مصنَّفاته وبين إخوانه: «بالصبر واليقين، تُنال الإمامة في الدين»[(٤)].

---

(١) حاشية محيي الدين شيخ زاده القوجوي (ت: ٩٥١هـ) علىٰ البيضاوي، (٢/ ٢٦١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨)، والنسائي في الكبرى (١٠٧١٧)، وأحمد (٦) بنحوه.

(٣) قال أبو الحسن الصفاقسي في غيث النفع ص٤٢٧: (لما صبروا) وقرأ الأخوان [أي: حمزة والكسائي] بكسر اللام وتخفيف الميم). فيصير المعنى: لِمَا صبروا؛ أي: بسبب صبرهم.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨)، وقاعدة في الصبر (١/ ٩٤)، ومواضع كثيرة، ونقلها تلميذه ابن القيم عنه في أكثر من كتاب له بسياقات مختلفة.

المبحث الثالث
لأن القرآن ينبوع الهداية اليقينيّة المُغنية

روىٰ البخاريُّ في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»[1].

وفي تحرير معنىٰ التغنِّي أقوال:

منها: أنها بمعنىٰ الاستغناء، وهو قول جلَّة من أهل العلم، منهم سفيان بن عيينة، وأبو عبيد، وابن الأنباريِّ، وابن المنيّر، وإليه ميل البخاريِّ كما يظهر.

والاستغناء والاستكفاء بالقرآن معنىٰ يشهد له القرآن، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقد روىٰ أبو عبيد القاسم بن سلَّام بإسناده حديثًا: «لا توسدوا القرآن، واتلوه حقَّ تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وتغنَّوه، وتقنَّوه، واذكرُوا ما فيه لعلكم تفلحُون»، قال أبو عبيد: قوله «تغنَّوه» اجعلوه غناكم من الفقر»[2].

وهذا وإن كان في معنىٰ الغنىٰ الماليِّ إلا أنه يثبت أصل معنىٰ الاستغناء بالقرآن.

---

(١) البخاري، ٧٥٢٧.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص٢٥٦.

ويمكن أن يُستأنس له بما أخرجه أبو داود، وابن الضريس، وصحَّحه أبو عوانة عن ابن أبي مليكة عن عبيد الله بن أبي نُهيك، قال: «لقيني سعد بن أبي وقَّاص وأنا في السوق، فقال: تجَّار كسبة، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»، هكذا أورده الحافظ ابن حجر[1].

وتفسير التغنِّي بالاستغناء جائز في كلام العرب، قال الأعشىٰ: [المتقارب]

وَكُنْتَ امرأً زمَنًا بِالعِراقِ خَفِيفَ المَنَاخِ طَوِيلَ التَّغنِّي

أي كثير الاستغناء.

ومن نفس البابة قول ابن مسعود رضي الله عنه: «من قرأ سورة آل عمران فهو غني»[2].

ومن التحريرات النفيسة في نصرة هذا القول ما أساله قلمُ ابن المنيّر (ت: ٦٨٣هـ)، فقال في نهاية تفصيله: «وعندي أنَّ التفسير صحيح لغة، يدلُّ عليه قول النَّبي ﷺ في الخيل: «ورجل رَبَطَها تَغَنِّيًا وتعفُّفًا» ولا خلاف لغةً أنه مصدر «تَغَنَّىٰ»، ثم لا إشكال بعد أن تغنَّىٰ بها. وهذا بمعنىٰ استغنىٰ بها وتعفَّف، ولم أقف علىٰ هذا الاستشهاد لغيري، والله الموفق»[3].

ومن معاني التغنِّي: تحسين الصوت به، وهو قولٌ رجحه ابن بطَّال، ونصره ابن القيِّم نصرًا أطال فيه، وبعض السياقات تعضده، نحو قوله ﷺ: «ما أذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أذِنَ لنبيٍّ أن يتغنَّىٰ بالقرآن»، وقد استظهر هذا القول الطاهر ابن عاشور، وكلامه في هذا الموطن ليس علىٰ عادته في الدقَّة والتفصيل واستقصاء أقوال اللغويِّين، لكن الظَّاهر كتب في آخر المسألة بالأصل بخطه: «يُحرر»، فيبدو أنه لم يرتضِ القول، وعزم علىٰ العودة له ولم يفعل[4].

---

(١) فتح الباري، (٩/ ٦٩ وما بعدها)، طبعة السلفية.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٣٧٤).

(٣) المتواري علىٰ أبواب البخاري، ص٣٩٠-٣٩١.

(٤) انظر: النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، ص١٩٦، حاشية (١).

ومن معانيه: التلذُّذ به، حكاه ابن الأنباريِّ (ت: ٣٢٨هـ) في الزاهر[١].

ومن معانيه: التشاغل به، تقول العرب: «تشاغل بالمكان إذا أقام فيه»، حكاه ابن الجوزيِّ (ت: ٥٩٧هـ)[٢].

ومن معانيه: الترنُّم به، كما يجعل المسافر والفارغ هجّيراه الغناء، قال ابن الأعرابيِّ (ت: ٢٣١هـ): «كانت العرب إذا ركبت الإبل تتغنَّىٰ، وإذا جلست في أفنيتها، وفي أكثر أحوالها، فلما نزل القرآن أحبَّ النَّبيُّ ﷺ أن يكون هجيراهم القراءة مكان التغنِّي بالرُّكبَان[٣].

ولشيخ الإسلام ابن تيميَّة نصٌّ نقله ابن المِبرَد عن ابن رجب، يجمع بين بعض الأقوال:

قال ابن المِبرَد: «قال الحافظ ابن رجب: أنبأنا غير واحد من شيوخنا عن

---

(١) عزاه له الحافظ ابن حجر، وتوارد علىٰ نقله عنه من بعده، ولم أظفر به في طبعات الزاهر التي بين يدي، بل وجدت أوجهًا أخرىٰ كالجهر والاستغناء، أما التلذذ فلم أجده، ولست أعجل بتوهيمه فلربمًا كان في المطبوع سقطًا، انظر: الزاهر في معاني كلام الناس، (٢/ ٧)، طبعة حاتم الضامن، وهو ليس في مختصر الزجاجي له، ص٣٠٨، طبعة الأوقاف القطرية.
وقد تباحثت مع الصديق الشيخ أيوب الجهني في هذه اللفظة وعزو الحافظ لها، وراجع هو مخطوطان «الزاهر»، وراجعت مخطوطات «الفتح»، ويظهر أن النقل صحيح عن ابن الأنباري لكنه في غير الزاهر، ويرجّح أنه في كتابه المفقود في غريب الحديث، ويحتمل أن ناسخ الفتح أضاف اسم الكتاب، وهذا احتمال قوي يرجحه عندي:
أ- طريقة الحافظ في العزو في الفتح لابن الأنباري تكون دون التصريح بالكتاب، عدا هذا الموضع.
ب- أني وجدت ببعض المخطوطات تضطرب في اسم الكتاب فترى: (الزهر)، و(الزهريات). ويبقى احتمال أن ذكر الحافظ للكتاب سبق قلم.
ومما يقوي كون النقل صحيحًا عن ابن الأنباري دون الجزم بكونه في «الزاهر» أن الشريف المرتضى (ت: ٤٣٦هـ) سبق ابن حجر لهذا النقل وعزاه لابن الأنباري دون ذكر كتاب معيّن. [انظر: أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد (١/ ٣٤) ت: محمد أبو الفضل إبراهيم].

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، (٣/ ٣٦٧-٣٦٩).

(٣) كذا نقله عنه الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) في غريب الحديث، (١/ ٣٥٨).

الإمام أبي العبَّاس ابن تيميَّة -رحمه الله تعالىٰ- قال: «لما كان الله تعالىٰ قد حمَّل بني آدم علىٰ أنه لا بدَّ للإنسان من كلام يتغنَّىٰ به، لأن النفس لا تستغني إلا بنوع من التغنِّي كما لا يقوم الجسد إلا بالغذاء، قال ﷺ: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»، يعني: من لم يكن القرآن له بدل الشعر لغيره يتغنَّىٰ به، فليس منَّا، فإن من لم يتغنَّىٰ بالقرآن تغنَّىٰ بغيره، ومن تغنَّىٰ به استغنىٰ عن غيره، والتغنِّي هو الترنُّم والجهر به من غير التلحين المكروه»[1].

(١) ومن الكتب المفقودة في هذا السياق: كتاب الحافظ ابن رجب (ت: ٧٩٥هـ) الاستغناء بالقرآن في طلب العلم والإيمان، وقد حُفظت لنا أشتات نصوص منه في ثلاثة كتب:

الكتاب الأول: مصاعد النظر، لبرهان الدين البقاعي (٨٨٥هـ)، فقد أحصيت له نحو سبعين موضعًا نقل فيها عن هذا الكتاب.

الكتاب الثاني: لجمال الدين يوسف ابن عبد الهادي الشهير بـ (ابن المِبرد) (ت: ٩٠٩هـ)، غير مطبوع حتىٰ الآن، حقق في خمس رسائل بالجامعة الإسلامية، وقد صرَّح ابن المبرد بمقدمته أن أصل كتابه هو الاستغناء لابن رجب، وسماه (هداية الإنسان إلىٰ الاستغناء بالقرآن)، ألف الجزء الأول عام ٨٧٧هـ، والثاني عام ٨٧٨هـ، ويظهر من سماعاته أنه أقرأه عام ٨٨٢هـ. وقد وصف كتابَ ابن رجب المفقود بأنه «كتاب بليغ متقن، وفن صحيح مبرهن»، وهذا الكتاب كما يظهر مبنيٌّ علىٰ كتاب ابن رجب وليس اختصارًا بالمعنىٰ الدقيق، وقد غيَّر ترتيبه، وتبويبه، وساق آثاره بأسانيده، والعجيب أنه نقل عن الزَّين ابن رجب في مواضع قليلة جدًا، ومنها موضع النقل الذي ذكرته هنا.

الكتاب الثالث: محمد بن عمر الحضرمي الشهير بـ (بحرق) (ت٩٣٠هـ)، وقد اختصره بعنوان: ذخيرة الإخوان في اختصار الاستغناء بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان، حققه الدكتور حسن سالم هبشان، ونشر في مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد: ١٣، السنة التاسعة، ص٢٧٧-٣٥٤.

وآخر من رأيته يشير للكتاب بلا واسطة النجم الغزي (ت: ١٠٦٩هـ) في كتابه: حسن التنبه، (٤/ ٢٣٢)، الذي ألف قبل عام ١٠٢٤هـ تقريبًا.

ولابن بدران الحنبلي (ت: ١٣٤٦هـ) نقل يصرح فيه بخطِّه علىٰ طرَّة نسخته من المقصد الأرشد أنه قرأ جميع كتب ابن رجب عدا شرح الترمذي، وهذا لا يعني وقوفه علىٰ كتاب الاستغناء ضرورة، لكنه احتمال. انظر: مخطوطة المقصد الأرشد لابن مفلح الحفيد، نسخة الظاهرية وعليها تملك وتعليقات ابن بدران، رقمها: ٨٧٥٠، ل: ١٥٧.

أيًّا يكن؛ فالذي أرتضيه منهجيًّا قبول تعدُّد المعاني المنطوية في اللفظة الواحدة، شرط أن تحتملَها اللغة، ويؤيِّد الدلالتين نصوص أخرىٰ، وقد يُقال بصواب معنىٰ، واستلطاف آخر ولو كان مرجوحًا، وقد يرجَّح ما ليس متبادرًا للذهن، أو يكون المعنيان لهما وجه من الصحَّة باعتبار ما، ومن معاقد الاجتهاد في هذا الباب توسيع الدلالة ما احتملت اللغة ولم تتعارض مع أصل معتبر[1].

ومن أمثلة ذلك في فلك موضوعنا قول الله تعالىٰ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]: نحملها علىٰ التلاوة، وعلىٰ الاتِّباع أيضًا؛ قال أبو عبيد: «يتلونه حقَّ تلاوته: يتَّبعونه حقَّ اتباعه، ألا ترىٰ أنك تقول: فلان يتلو فلانًا، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[2].

ومن أمثلة ذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه: «إن هذا القرآن مأدُبة الله»، ويروىٰ: مأدَبة الله، قال الرامهرمزيُّ (ت: نحو ٣٦٠هـ): «قال لي أبو موسىٰ الحامض: من روىٰ هذا بضمِّ الدال فإنما أراد الوليمة، ومن رواها بفتح الدال أراد أدب الله ﷻ الذي أدَّب به عباده»[3].

وهذا بابٌ دلاليٌّ لطيفٌ، ومنزعٌ يتذوَّقه كلُّ شريف، تتغالب فيه الأنظار، ويطول فيها التقرير، وأكتفي بما ذكرته حتىٰ لا أُملّ وأخرج عن المقصود.

وبذا تقرَّر يقينًا بأن أوقع الأمور للدين، وأتلفها للإيمان، وأقتلها للعقل، وأزراها بالحقيقة، وأسرعها في الضلالة؛ أن تعتقد أن القرآن لا يكفيك للهداية النافعة للدنيا، المنجية الرافعة في الآخرة.

وبذا تمَّ مطلوبي في إيضاح ملامح الهداية القرآنيَّة اليقينيَّة المُغنية عن كل هداية أخرىٰ.

---

(١) وممن صنع هذا الفخر الرازي، فقد قال عن استنباط من اشترط كون الربيبة بالحجر لتحقق المحرمية: «وهذا استدلال حسن»، ثم بيَّن عدم صحته بعد ذلك، فدلَّ علىٰ استحسانه واستلطافه لما قد يكون مرجوحًا عنده. انظر: التفسير الكبير، (١٠/٢٨).

(٢) غريب الحديث، (٤/١٧٣-١٧٤).

(٣) أمثال الحديث، ص١٧.

الفصل الثَّالث
التمثيل، نماذج للاستهداء بالقرآن

رأسُ الأمر ومنبتُه وأصلُه أنْ تعلمَ أنَّ القرآن روح، وأنَّ العلم -علىٰ الحقيقة- روحُ تُنفخ، لا معارفَ تُنسخ.

وفي هذا الفصل سنتعرض بالتمثيل لأضربٍ من الاستهداء البيانيِّ والإيمانيِّ والإصلاحيِّ.

المبحث الأوَّل
الاستهداء البيانـيُّ[1]

كانت العرب ترىٰ البيت من الشعر يخفض ويرفع، ويقيم حربًا ويخمد أخرىٰ، والكلمة تقوم مقام الرمح في استوائه، والسيف في مضائه، وكان لكلِّ قومٍ شاعرٌ يدفع عنهم، فإن أجاد شركوه المنفعة والفخار، وإن كان عارًا تقلَّده وحده.

ثم نزل القرآن لتتغير الحالة البيانيَّة، ويخفَّ وهج الشعر، ويضعف الاستلاب لسطوته، ولذلك أسبابٌ برأيي:

منها: الدهشة بالقرآن، ومحاولة الاستيعاب اللسانيِّ لعظمته[2]، فهم في حالة طوارئ عامَّة.

---

(١) من الكتب التي بحثت فتور شِعر صدر الإسلام قبولًا وردًّا:
الأول: الشعر في عصر النبوة، للدكتور محمود عكاشة.
الثاني: الإسلام والشعر، للدكتور يحيىٰ الجبوري.
الثالث: الأدب في عصر النبوة والخلفاء الراشدين، للدكتور صلاح الدين الهادي.
الرابع: الإسلام والشعر، للدكتور سامي مكي العاني.

(٢) من قواعد فهم الأفكار أنْ تعلم أن المجتمعات تحتاج وقتًا أكثر من الأفراد لاستيعاب تغيرات الوعي المفصلية، وقد نصَّ علىٰ هذا المعنىٰ هابرماس بقوله: «وفي الحقيقة أن العتبة التاريخية التي تقع حول العام ١٥٠٠ لم يتم إدراكها كتجديد إلا في القرن الثامن عشر»، القول الفلسفي للحداثة، ص١٣-١٤، يورغن هابرماس، ترجمة: فاطمة الجيوشي.

ومنها: الاشتغالُ بالقرآن تعبُّدًا وتذوُّقًا أغنىٰ القلب عن تتبُّع التأثير الموجود فيما هو أدنىٰ.

ومنها: أن بعض أغراض الشعر المشتهرة آنذاك تتنافىٰ مع محكمات الإسلام، كالتفاخر بالأنساب، والغزل الفاحش، والكذب[1]، والهجاء المقذع، والنياحة علىٰ الأموات.

ومنها: أن الأمَّة تحوَّلت من الأقوال إلىٰ الأفعال، والإنسان طُبع علىٰ خلائق لا يتركها، من أبينها أنه لا يمدُّ لسانه حين يمكنه مدَّ يده.

ومنها: أن الشعر الجاهليَّ بلغ الذروة الجماليَّة، وإن صدق زعمي -وهو صادق إن شاء الله- فإن فترة الجاهليَّة بما فيها من علوٍّ شأن البيان كانت -بتدبير الله- تهيئة لنزول القرآن، فنزل علىٰ قوم وُطئت ذائقتهم، وارتقت أمزجتهم[2]؛ عرفوا قدر بلاغته، نزل القرآن فثبَّت مؤمنهم، وتحدَّىٰ معاندهم، وكان تأثيره معجزًا لا يطيقون دفعه.

ومنها: أن العبادات أعلت من شأن فنون أخرىٰ كالخطابة -خطبة الجمعة والعيدين- فانصرف الناس للنثر وتجويده.

ومنها: تغيُّر نمط الحياة مع الفتوحات، وتحوُّلُ السمتِ الحضاريِّ أوجبَ تغيُّر الحالة التعبيريَّة عن يوميَّات الإنسان وهمومه[3].

---

(١) قيل لحسان بن ثابت ﷺ: لانَ شعرك أو هَرِم شعرك في الإسلام يا أبا الحسام. فقال للقائل: يا ابن أخي، إن الإسلام يحجز عن الكذب، أو يمنع من الكذب، وإن الشعر يزينه الكذب». الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (١/ ٣٤٦).

(٢) قال الأصمعي (ت: ٢١٦هـ): «إنما ضُبطت العربية قبل الإسلام بمئتي سنة، وذلك لخروج النبي ﷺ باللسان العربي المبين للمعاني، وإنما سميت الجاهلية لأنها جهلت بما جاء بهم الأنبياء عليهم السلام». التفسح في اللغة، لأبي الحسين عبدالله بن محمد بن سفيان النحوي (ت: ٣٢٥هـ)، ص١٩١، وللجاحظ تقدير قريب من هذا في: الحيوان، (١/ ٥٣)، ولأبي السَّامي الرافعي تعليقة علىٰ كلمة الجاحظ في: تاريخ آداب العرب، (٣/ ١٤).

(٣) من مسالك أهل العلم ذكر ما يصلح للاعتضاد ولو أورد عليه بعض الانتقاد، لكنه مع المجموع =

والتحقيق أن ما حصل للحالة البيانيَّة ليس ضعفًا بالمعنىٰ المتبادر، وإنما إعادة تشكيل للأغراض والأساليب والأطر، فظهر أثر القرآن وتعاليمه في الألفاظ والتراكيب والمعاني، ومن أجلىٰ الخصائص الفنيَّة المتغيِّرة:

القسَم: فتراه كما في قول أبي صخر الهذلي: [الطويل]

أما والذي أبْكَىٰ وأضْحَكَ والذي ... أماتَ وأحيا والذي أَمْرُهُ الأمْرُ

فهنا تلحظ التأثر بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النَّجۡم: ٤٣-٤٤].

ومنه: الدعاء: كما تراه في قول النعمان بن بشير الأنصاري: [الخفيف]

رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي كَثَيْرًا ... فَاعْفُ عَنِّي أَنتَ الغَفُورُ الوَدُودُ
وَقِنِي شَرَّ مَا أَخَافُ فَإِنِّي ... مُشْفِقٌ خَائِفٌ لما تَسْتَعِيدُ
مِنْ خُطوبٍ إذا ذَكَرْتُ ذُنُوبِي ... وقرأتُ القرآنَ فيه الوَعِيدُ

ومنه: القصص: كما في قول الشمردل: [الطويل]

وَلَو قِيلَ مثلا كنز قارونَ عِنْدَهُ ... وَقِيلَ التمسْ مَوْعوده لا أعاوده

فأثرُ القرآن بيِّنٌ في ذكره قصة قارون وكنزه.

وقول الجعدي: [المتقارب]

فَأَصْبَحَ فِي النَّاسِ كَالسَّامِرِيِّ ... إذْ قَالَ مُوْسَىٰ لَهُ: لَا مِسَاسَا

وهذا ظاهر التأثُّر بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طٰهٰ: ٩٥-٩٧].

= يصير ذا شأن، وهذا مسلك أشار له الشيخ تقي الدين ابن تيمية فقال: «إذا ذكر حكم بدليل معلوم ذكر ما يوافقه من الآثار والمراسيل وأقوال العلماء وغير ذلك لما في ذلك من الاعتضاد والمعاونة، لا لأن الواحد من ذلك يعتمد في حكم شرعي، ولهذا كان العلماء متفقين علىٰ جواز الاعتضاد والترجيح بما لا يصلح أن يكون هو العمدة فما يصلح للاعتضاد نوع، وما يصلح للاعتماد نوع». الاستغاثة في الرد علىٰ البكري، ص١١٨.

ومنه: الاقتباس: كقول حسان بن ثابت رضي الله عنه عن الشيطان: [البسيط]

دَلَّاهُمُ بِغُرورٍ ثُمَّ أَسلَمَهُم ... إِنَّ الخَبيثَ لِمَن والاهُ غَرَّارُ
وَقالَ إِنّي لَكُم جارٌ فَأَورَدَهُم ... شَرَّ المَوارِدِ فيهِ الخِزيُ وَالعارُ

وقول عمار بن ياسر رضي الله عنه: [الخفيف]

إِنَّهَم عِنْدَ رَبِّهِم فِي جِنَانٍ ... يَشْرَبُوْنَ الرَّحِيْقَ وَالسَّلْسَبِيلَا
مِن شَرَابِ الأَبْرَارِ خَالَطَهُ المِسْـ ... ـكُ وَكَأْسًا مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلَا

❁ ❁ ❁

هذا الاستهداء البيانيُّ لا يؤتي ثمرته لمن تأمَّل المسألة والمسألتين، ولا تلين عريكته لملول أو مرتشف، بل لا بدَّ من طول الممارسة، وكثرة المدارسة، مع جودة عقل، واشتعال ذكاء، وسلامة قريحة، وهو فوق ذا مفتقر للتوفيق الربانيِّ، والتيسير الإلهيِّ.

وكان ممن عاش مستهديًا بالبيان القرآنيِّ مدَّة طويلة الإمام عبد القاهر الجرجانيُّ (ت: ٤٧١هـ) صاحب (دلائل الإعجاز)، فقد وُجد بآخر نسخة خطيَّة للدلائل بقلم أحد النُّسَّاخ ما نصُّه:

«في النسخة المنقول عنها بخط كاتبها هذه الأسطر: سمعتُ الإمام أبا زيد الجرجانيَّ سلَّمه الله يقول: إن الشيخَ الإمام الأستاذ أبا بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانيَّ رحمه الله تأمَّل وتدبَّر خمسًا وعشرين سنة من سني آخر عمره في استخراج طريق الإعجاز في الكلام، حتىٰ كتب فيه من الفصول التي عرفتها، وبيَّن فيه من مآخذ الفصاحة والبلاغة ما وقفت عليه إلىٰ ههنا.

ولم يبلغ به عمره تحصيل ما فيه تمام غرضه من تصنيف هذا الكتاب، فأتاه في خلال التأليف الموت، وبسطت إلىٰ ما فيه تمام مأموله من هذا التصنيف يد الفوت.

وقد كاد ﷺ أن يأتي لما مهَّده من قواعد الفصاحة وطرق البلاغة التي فيها تحصل الإعجاز بأمثلة من آي القرآن، فأدركه الموت قبل أن يدركها ﷺ»[1].

ومن الجهود المتقنة التي استغرقت سنين عددًا في هذا الباب كتاب الدكتور محمد عبد الخالق عضيمة (ت: ١٤٠٤هـ) (دراسات لأسلوب القرآن الكريم)، فقد جاء الكتاب في أحد عشر مجلدًا، بصفحات تزيد علىٰ السبعة آلاف صفحة، وقد مكث في تأليفه خمسة وعشرين عامًا، استفتحها من جوار الحرم، علىٰ سُنة من يبتغي البركة.

ومن لطيف أخبار أهل اللغة المتأدِّبين مع القرآن -وهو متَّصل بسبب من سياقنا- أن أحمد عبد الغفور عطَّار عرض علىٰ أستاذه العقَّاد أن يفسِّر القرآن الكريم، وكان عطَّار متحمسًا لهذه الفكرة، فلما وافقه العقَّاد وجد أنه يحتاج إلىٰ سنتين يتفرَّغ فيهما لقراءة تفاسير القرآن المختلفة، ويطَّلع علىٰ مناهج المفسِّرين، لكن حالته الماديَّة لم تكن تسمح بهذا، فعزم عطَّار علىٰ بيع منزله وتسديد ديونه ودفع مبلغ مجزٍ لأستاذه العقَّاد ليتفرَّغ لهذا المشروع، لكن الفكرة لم ترَ النَّور لوفاة العقَّاد، ولم يكتب حرفًا في ذلك التفسير[2].

❁ ❁ ❁

وقد سرت سُنة المتأدِّبين، وتواترت وصاياهم، بأن أجدىٰ المسالك لتقوية اللغة في الاستهداء البيانيِّ بالقرآن، يقول محمد كرد علي: «إذا درس العربي القرآن حقَّ دراسته، لا يحتاج إلا إلىٰ قليل من كلام العرب ليعدَّ من البلغاء الفصحاء»[3].

---

(١) المخطوطة من محفوظات شوراي ملي برقم ٨٣٨٠، وقد وقفتُ علىٰ هذه النسخة بإفادة الدكتورأسامة الشيراني -وفقه الله-.

(٢) من مقالة غير منشورة لتلميذ عطّار: أحمد الحقيل (ت: ١٤٠١هـ)، أفاد هذا الخبر الأستاذ إبراهيم بن سعد الحقيل.

(٣) مذكراته، (٤/ ١١٦٧).

وهذا الاغتسال الأسلوبيُّ، والاستسقاء البلاغيُّ، ليس حكرًا علىٰ المتشرِّعة وطلاب العلم، بل شركهم في ذلك عامة الأدباء من المسلمين وغير المسلمين حتىٰ زماننا هذا.

منهم: زكي مبارك، فقد حكىٰ عن أيام تدريسه بالجامعة الأمريكيَّة، فقال: «كنت رأيت أن يحفظ الطلبة سورًا من القرآن، وسمع المستر وطسون بهذا فدعاني، وقال: أنت تعرف يا دكتور مبارك أن هذه مدرسة مسيحيَّة، فكيف تفرض علىٰ الطلبة أن يحفظوا سورًا من القرآن؟ قلت: القرآن أساس اللغة العربيَّة، وأنا أهتمُّ بتلاميذي لينجحوا في الامتحان.

قال: أنت صاحب رأي، ولك أن تعلِّم تلاميذك بالأسلوب الذي ترتضيه، ولك أن تبشِّر بالدين الإسلامي، كما أبشِّر أنا بالدين المسيحي»[1].

ومنهم: مارون عبود، أديبٌ مسيحيٌّ لبنانيٌّ، يقول: «سحر العقول بيانه، فعكفوا عليه يحفظون ويتقتبسون منه ويحاكونه، ويتأثرون بألفاظه وتركيبه. فللقرآن أعظمُ فضل علىٰ اللغة»[2].

ومنهم: مي زيادة، أديبة مسيحيَّة لبنانيَّة، أهداها أحمد لطفي السيد نسخة من القرآن، ثم قالت: «أستطيع أن أقول أن أهم الحوادث التي أثَّرت في مجرىٰ حياتي ثلاثة: النظر إلىٰ جمال الطبيعة، والقرآن الكريم بفصاحته وبلاغته، والحركة الوطنيَّة المصريَّة»[3].

---

(١) ملامح دينية، زكي مبارك، ص١٥٤.

(٢) كان عذب القلم، حلو الفكاهة، محبًا للعربية وأهلها، سمىٰ ابنته (فاطمة)، وابنه (محمدًا)، وقال في ذلك: [الرمل]

عشت يا بني عشت يا خير صبي ... ولدته أمه في رجبِ
فهتفنا باسمه محمدًا ... أيها التاريخ لا تستغربِ
خفف الدهشة واخشع إن رأيـ ... ـت ابن مارون سميًا للنبي

(٣) من لقاء لها مع مجلة الهلال السنة ٣٨، العدد ٤، فبراير١٩٢٠.

ومنهم: أمين نخلة، أديبٌ مسيحيٌّ لبنانيٌّ، يقول: «إن النثر العربي ارتفع بالمصحف [أي: ارتفع بسبب المصحف] إلىٰ ما وراء الفكر، وجاء الذروة التي تنقطع دونها الأعناق، فإنما القرآن هو المعجز في بلاغته، وأسلوبه، ولفظه وحلاوة فواصله، وسوق معانيه، لا كلام في هذه العربية يبلغ مبلغه في ذلك كله»[(١)].

وقد كان منبهرًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هُوٓد: ٤٤][(٢)]» فقال: «وما وفق له من تمثيل في النبر لفعلي الأمر المتلاحقين في الآية، ومن تمثيل في الإرسال للجمل الإخباريَّة الآخذ بعضها ببعض في أبلغ واوات عرفها هذا اللسان العربي، وما سهَّل عليه في تلاعب النغم بالخفوت والتراخي والنشف من مماثلة لما قرَّ بعد الحادث الجلل من سيول وأمطار وأواذي وأعاصير وسحائب ورعود وبروق وصياح وجلبة وهولٍ عميم، أقول إن ذلك من عجب الفنِّ الذي لا يتعلَّق به وصف»[(٣)].

وقد قال في لحظة صفاء فريدة: «ما قرأت في (القرآن) قطّ، وتلقفتني تلك الفصاحة من كل جهة، وشهدت ذلك الإعجاز الذي يطبِّق العقل، إلا صحتُ بنفسي: «انجي، ويحك، فإنني علىٰ دين النصرانيَّة»[(٤)].

---

(١) الأساتذة في النثر العربي، أمين نخلة، ص٢٧.

(٢) ومن العجائب أن أحمد زكي باشا -شيخ العروبة- زار بودابست قبيل الحرب وحضر دروس جولدتسهير في تفسير القرآن ثم قال: «لم أشهد في حياتي أعجب من يهودي يدرِّس قرآن المسلمين للنصارىٰ». وراء البحار، محمد أمين حسّونة، ص١٧٤، وكان هذا اليهودي محبًا للشيخ طاهر الجزائري وبينهما مراسلات.

(٣) الأعمال الكاملة له، (٢/ ١٠٠)، وعادة الأدباء -حتىٰ المسلمين منهم- التسمُّح عند تحليلهم لألفاظ القرآن وأساليبه، بما عندهم من معجم أدبي قد لا يليق بعضه بمقام القرآن الكريم، فيشتد عليهم الفقهاء صيانة للديانة.

(٤) في الهواء الطلق، أمين نخلة، ص١٧٤، وهو ضمن الأعمال الكاملة أيضًا، (٢/ ٢٢٩).

هذا بلسان مقالهم، وصريح منطقهم وقد علَّمتني الحياة أن الذي يجري علىٰ لسان المادح المخالف إنما هو فضول إعجاب قلبه.

أمَّا تأثُّرهم الخفي في الأساليب والتراكيب فقد جمع قدرًا صالحًا منه الأستاذ البحَّاثة أحمد العلاونة، في كتابه (أثر القرآن الكريم في لغة النصارىٰ العرب في العصر الحديث)، وقد أورد فيه أربعة وخمسين عَلَمًا من أعلام النصارىٰ تأثَّروا بأساليب القرآن.

كقول إيليا أبي ماضي:

«... ولكني رأيت المجموع خيرًا وأبقىٰ».

وقول الشاعر القروي:

«قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، أقل هاك حكاية من الحكايات».

وقول حنَّا حداد حين يهدي تحقيقه لوالديه بقوله:

«إلىٰ اللذَين أخفض لهما جناح الذل من الرحمة»[1].

ومع ما يظهر من بهاء تراكيب القرآن وأساليب الفصاحة والبيان فإن المقصود الرئيس من بلاغته أن تؤمن بأنه وحيٌ يسوق للإيمان، لا مجرَّد تزاويق تزيِّن الكلام، وتهزُّ الرؤوس طربًا، وهذا من لوازم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطَّارِق: ١٣-١٤].

(١) الكتاب نُشر عن دار القلم بدمشق عام ١٤٤٢هـ، ٢٠٢١م، في نحو ٣٠٠ صفحة.

المبحث الثَّاني
الاستهداء الإيمانـيُّ

أحقُّ ما صان المرء أمر دينه، وأعذب الموارد وأهناها لهذا المقام أن يألف المسلمُ القرآن، فمن حالف كتاب الله هُدي، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، ومن جافاه تخبَّط وسهل قياده للهلكات، قال تعالىٰ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠١].

«وقد كان النَّبي ﷺ يدعو الخلق بالقرآن إلىٰ الدخول في الإسلام الذي هو الصراط المستقيم؛ وبذلك استجاب له خواصُّ المؤمنين كأكابر المهاجرين والأنصار، ولهذا المعنىٰ قال مالك: فُتحت المدينة بالقرآن. يعنىٰ: أنَّ أهلها إنما دخلوا في الإسلام بسماع القرآن.

كما بعث النَّبي ﷺ مصعب بن عمير قبل أن يهاجر إلىٰ المدينة، فدعا أهل المدينة إلىٰ الإسلام بتلاوة القرآن عليهم، فأسلم كثير منهم»[(١)].

والقرآن في تحريكه للإيمان ينهج سبلًا متعدِّدة، وطرائق متنوِّعة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٤١]، أي: نوَّعنا من جهة إلىٰ جهة، ومن مثال إلىٰ مثال[(٢)]، ومن هذه الطرائق:

---

(١) شرح حديث «مثل الإسلام»، للحافظ ابن رجب، مطبوع ضمن مجموع رسائله، (١/ ٢٠٦).
(٢) انظر: البحر المحيط، (٦/ ٣٦).

الطريقة الأولىٰ: ذِكرُ شرف الإيمان وثمراته ترغيبًا للصالحين، وتثبيتًا لقلوبهم، ومن ثمراته: الاستخلاف والتمكين والأمن كما في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

ومن ثمراته: الحياة الطيبة كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٧-٩٨].

ومن جميل الاستنباطات لهذه الثمرة، قول الدكتور عبد العزيز الحربيُّ: «من لطيف ما حضرني وأنا أستشهد في هذا المقام بقوله ﷻ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أن أهل القرآن يدخلون في معنىٰ الآية دخولًا أوليًّا، وكأنهم المقصودون بذلك، وكأن سعادتهم وحياتهم الطيِّبة كانت بإيمانهم وعلمهم بالقرآن وعملهم به وتلاوتهم، من ثم تناسبَ أن يأتي بعده مباشرة قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1].

وهذا استنباط مُطرب، نظر في رابط التناسب بين الآيتين، وقد هُديت لمثله.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ﴾ [فاطر: ٢٨]، ففي مدح الله للعلماء أهل الخشية الحقيقيَّة له يدخل أهل القرآن فيهم دخولًا أوليًّا، ولهذا ناسب أن يعقبها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩] والله أعلم[2].

---

(١) تحزيب القرآن، عبد العزيز الحربي، ص٣٢.

(٢) ولما قرأ الحبيب القريب الشيخ علي بن ناصر الشهري هذا الاستهداء أضاف: «ومثله التناسب بين قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فهنا حديث عن الهداية =

ومن ثمراته: شرف الخيريَّة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البَيِّنَة: ٧].

ومن ثمراته: حصول البركات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأَعْرَاف: ٩٦].

ومن ثمراته: محبَّة العباد، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مَرْيَم: ٩٦].

ومن ثمراته: دخول الجنَّة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكَهْف: ١٠٧][1].

الطريقة الثَّانية: الإشراك في المسؤوليَّة، وهذا معنىٰ يدركه من استقرأ أساليب القرآن ووازنها بأساليب المنظومات الفكريَّة الأخرىٰ، فالقرآن يرسِّخ معنىٰ البلاغ، ثم علىٰ المُستقبِل أن يقوم بدوره في الاستهداء، بينما المنظومة الغربيَّة تربط فكرة الإقناع بالتأثير، دون أي مسؤوليَّة علىٰ المتلقي.

يقول تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [التَّغَابُن: ١٢].

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النَّحْل: ٣٥].

وقوله جلَّ وعلا: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النَّحْل: ٨٢].

وقوله سبحانه: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النُّور: ٥٤].

= تلاها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ فدل ذلك على أن أهل التلاوة هم أولى الناس بالهداية».

(١) ويعجبني في هذا المقام ما سطره العلامة السعدي في: التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص٦٥-٩١.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

الطريقة الثَّالثة: تنوُّع أساليب الخطاب علىٰ مستوىٰ اللغة، فترىٰ الشرط كما في قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، والقسَم كما في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢]، والاستفهام كما في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، والاستعارة كما في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

الطريقة الرَّابعة: تنوُّع أساليب الحجاج العقليِّ، فتارة يحثُّ علىٰ التفكُّر بالمحسوس القريب، كقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]، وتارة ترىٰ المواجهة النفسيَّة كما في قوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]، وتارة تلحظ القياس والمقارنة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وتارة تشهد النفي المباشر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، وتارة تقرأ استدراجًا بالأسئلة والإلزام المُحكم، كما في قوله سبحانه: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٩٠ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٢].

الطريقة الخامسة: التَّحدي، وهو أمر يقطع المقاولة، ويسدُّ مجاري المغالبة، كما في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقوله جلَّ وعلا وتقدَّس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

وأثر القرآن في تحريك الساكن، وتسكين المتحرِّك مما يشجيني تأمُّله، ويعجزني بيانه؛ فالقرآن نزل علىٰ العالم والجاهل، والعربيِّ والأعجميِّ، واليقظ والغافل، وفي كل مرَّة يجدُ فيه كل امرئ بغيته، ويشهد ما يلامس روحه.

وقد حُدثت عن شخص أعجميٍّ أسلم، كان يبكي عند سماع آيات المواريث، ويتعجَّبُ من حوله، فكيف لهذه الآيات أن تكون موطن عظة، وعند التتبع ظهر أنه دارسٌ للاقتصاد، مهتمٌّ بفلسفته العدليَّة، وكلما مرَّ علىٰ هذه الآيات ذرفت عينه، ورجف قلبه، واقشعرَّ بدنه، فقد لامست نقطةً في روحه، وبدَّدت حيرةً لطالما آلمته.

والاستهداء الإيمانيُّ يعني التأثُّر بالقرآن، وتحريك الإيمان، وتسكين القلق، وسيِّد هذه المقامات رسول الله ﷺ، فقد قال لابن مسعود رضي الله عنه: اِقرأْ عليَّ، قلت: آقرَأُ عليكَ وعليكَ أُنْزِل؟ قال: إنِّي أَشتهي أنْ أسمعَهُ مِن غَيري، قال: فقرأتُ النِّساءَ حتىٰ إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، قال لي: كُفْ -أو أمسك- فرأيتُ عينيه تذرفان»[1].

(١) البخاري، (٥٠٥٥)، ومسلم، (٨٠٠).

وقصص الاستهداء بالقرآن سماعًا وتلاوة في جيل الصحابة ومن بعدهم بيِّنة، وأخبارهم متواترة، إنما أذكر من جاء بعدهم حثًّا علىٰ الاقتداء بمن قارب الحال، وحتىٰ لا يُقال: أولئك قوم هُذبت أرواحهم بالصحبة، وطُهِّرت قلوبهم برؤية النَّبي ﷺ، أو رؤية من رآه واقترب من زمنه، وقد عجمتُ عيداني واخترت من الأخبار شذرات مختلفًا ألوانها، لا تختصُّ بقوم ولا صنعة ولا ديانة ولا بقعة ولا حقبة زمنيَّة.

ورأيت الأخبار تندرج تحت نوعين:

النَّوع الأوَّل: من استهدىٰ بالقرآن فتغيَّرت عقيدته:

منهم عبد الله بن أبي الحسن الحنبلي يقول: «كنا قومًا نصارىٰ، وكان في قريتنا جماعة من المسلمين يقرؤون القرآن، فإذا سمعتهم أبكي، فلما دخلتُ أرض الإسلام أسلمتُ»[1].

ومنهم عالم رياضيات -اشتهر لاحقًا- اسمه جيفري لانغ، يروي قصة شكِّه، وانتقاله من الإلحاد إلىٰ الإيمان عبر استهدائه بالقرآن، يقول: «وإذا ما اتخذتَ القرآن بجدِّية، فإنه لا يمكنك قراءته ببساطة . . . بدا واضحًا أن مبدع القرآن كان يعرفني أكثر مما كنت أعرف نفسي . . . وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، ولكنني كنت إلىٰ حدٍّ ما أكتشف الإجابة في اليوم التالي؛ ويبدو أنَّ هذا المبدع يقرأ أفكاري . . . كنت أشعر بالانقياد بحيث أشقُّ طريقي إلىٰ الزاوية التي لم تحتوِ سوىٰ خيار واحد»[2].

ومنهم نازك الملائكة؛ التي ملأتِ الأرض شعرًا، حفظتُ لها مرة معنىٰ لطيفًا يخالف السائد المعتاد من أوصاف المتغزِّلين، تقول: [الكامل]

قطّب، سئمتك ضاحكًا، إن الربىٰ

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة، (٣/ ٨٩).

(٢) الصراع من أجل الإيمان، جيفري لانغ، ص٣٤، ترجمة: منذر العبسي.

بـــردٌ ودفءٌ لا ربـــيـــع خـــالـــدُ
الـعـبـقـريَّـة يـا فـتـاي كـئـيـبـة
والـضـاحـكـون رواسـبٌ وزوائـدُ[1].

كانت كأنها تصفُ نفسها، فقد مرَّت بحالة شكٍّ واكتئاب وتساؤل، تحكي عن حالها في لجج الشكِّ وكيف وجدت حبل الإنقاذ أمامها، تقول: «لقد أنقذني القرآن الكريم من الإلحاد، وكان ذلك عام ١٩٥٥، فقبل هذا العام كنت ملحدة لا أؤمن بوجود الله، وأعتقد أن القرآن من إنشاء الرسول ﷺ، وفي هذا العام كنت في الولايات المتحدة للدراسة، فدعتني إحدىٰ الجمعيات النسائيَّة الأميركيَّة إلىٰ إلقاء بحث عن المرأة في الوطن العربي، وكنت أكاد لا أعرف من القرآن إلا ما درسته في المدرسة، وألجأني البحث المذكور إلىٰ القرآن بحثًا عن الآيات المتعلِّقة بالمرأة، وما كدت أرجع من مكتبة جامعة (وسكونسن) التي كنت أدرس فيها حتىٰ عثرت علىٰ رفٍّ كامل من نسخ القرآن، وانغمست في قراءته، فإذا هو يبهرني بهرًا كاملًا. لاح لي أن هذا الكلام يبلغ من الجمال والتعبيريَّة مبلغًا لا يمكن لبشر أن يصل إليه، وثبت عندي أن هذا كلام الله، كان في الآيات نور أحسسته بكياني كله.

وكانت هذه المناسبة سببًا مباشرًا للإيمان الكامل الذي تمَّ في حياتي سنة ١٩٥٧ عندما بدأت أصلي، والإيمان بالله غيَّر حياتي من حال إلىٰ حال، فقد كنت حزينة فأصبحت فرحة مطمئنة»[2].

ومنهم الدكتور عبدالصمد روميرو، كان اسمه: أنطونيو روميرو رومان، أسلم بسبب سماعه تلاوة للشيخ عبد الباسط عبد الصمد أثناء زيارته للمغرب في منتصف سبعينيَّات القرن الميلادي الماضي، وسمَّىٰ نفسه عبد الصمد تيمُّنًا به.

---

(١) ديوان نازك الملائكة، قصيدة (دعوة إلىٰ الحياة)، (٢/ ٤٠٤)، اللطيف أن القصيدة خرجت ضمن ديوان (قرارة الموجة) عام ١٩٥٧م، أي: بنفس فترة الاكتئاب التي تحكيها عن نفسها.

(٢) محاورات أجراها الأستاذ محمد رشيد العويد، ص١-٢.

غادر إلىٰ مكة ومكث بها زمنًا، وتعلم العربيَّة، ثم عاد إلىٰ بلده وبدأ دعوته، والآن هو مدير كلية الدراسات الأندلسيَّة بغرناطة، وله ابنة مسلمة اسمها: الدكتورة أديبة روميرو، وقد حكت أعاجيب مشجية عن حياة الأندلسيين المعاصرين، تمنَّيت لو سطرتها في كتاب[1]، وهي باحثة جادَّة وحكَّاءة متقنة تجيد العربيَّة[2].

النَّوع الثَّاني: من كان مسلمًا لكنه انتفع بالقرآن بصورة ما:

منهم: بديع الزمان النورسيُّ، فقد حكىٰ عن نفسه قائلًا: «كنت أتقلَّب في هذه الحيرة الشديدة، إذ بخاطر رحمانيٍّ من الله ﷻ يغطي علىٰ قلبي ويهتف بي:

إن بداية هذه الطرق جميعها ... ومنبع هذه الجداول كلها ... وشمس هذه الكواكب السيَّارة ... إنما هو القرآن الكريم؛ فتوحيد القبلة الحقيقيُّ إذن لا يكون إلا في القرآن الكريم»[3].

ونقطة التحول الإيمانية في حياة النّورسي أتت بسبب القرآن، ففي عام ١٨٩٨ أظهر والي طاهر باشا له خبرًا من إحدىٰ الجرائد، ووفقًا للخبر فإن (جلادستون) الذي شغل منصب رئيس الوزراء ووزير المستعمرات في إنجلترا؛ قال في خطاب له في البرلمان ممسكًا في يده القرآن ومشيرًا إليه: «طالما أن هذا القرآن في أيدي المسلمين لن نستطيع السيطرة عليهم، إما أن نزيل هذا القرآن من أيدي المسلمين أو أن نبعدهم عنه.

---

(١) مما روته وأشجاني قصة، وهي أنهم في أثناء عمليات التنقيب في مدينة غرناطة وجدوا كفنًا كُتب فيه بالأحرف الإسبانية: «يا منكر -أي الملَك- هو مسلم لكنه نسي». من لقاء لها مع محمد الرمَّاش، الجزء الأول، د٥٦، ولك أن تتخيَّل بعد هذا معنىٰ الغربة التي عاشها مسلمو الأندلس بعد سقوطها.

(٢) من الكتب التي تحكي تفاصيل الأندلسيين المعاصرين كتاب السيد الشريف علي المنتصر الكتاني (انبعاث الإسلام في الأندلس)، ص٣٢٢-٣٨٢.

(٣) سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي، ص١٩٤، أعدها وترجمها: إحسان قاسم الصالحي، وقد جمعها من مجموعة كتاباته وواعم بينها.

كان لهذا الخبر أثره البالغ في نفسه، وعليه قرر قائلًا: «سأثبت للعالم أن القرآن هو شمس روحانية لا تنطفئ ولا يمكن إطفاؤها»[١]

هذه اليقظة القرآنية صارت منهاج حياة له، ففي أثناء جهاده الروس عام ١٩١٤م ألف كتابه «إشارات الإعجاز»[٢].

كان الملا سعيد النورسي يكرر عبارة «الداء منّي والدواء من القرآن»، وقد كان مؤمنًا بأن الرد علىٰ الشبهات المناقضة للإيمان تكون بالقرآن والاستهداء به[٣].

واتصل أثر الأستاذ النورسي إلىٰ ماهو أبعد من الحفاظ علىٰ الهوية القرآنية، بل كانت له بصمته في الحفاظ علىٰ اللغة العربية؛ وذلك عبر مشروعه الذي يشترط فيه كتابة القرآن بحروفه العربية، ولم يكن يقبل العدول عن هذا إلىٰ الأحرف اللاتينية رغم صعوبة الحال، وشدة الضغوط؛ لكن الله أعانه، فجعل من شروط الانتساب لجمعيته جمعية أهل النور أن يقوم الطالب بنسخ رسائل النور كاملة بالأحرف العربية[٤].

---

(١) حياة كُرّست للقرآن ص٩ Kur'ana Adanan Bir Haya، والتزامًا بالمنهج العلمي الصارم لم أعتمد علىٰ المترجَم عن حياة النورسي؛ لأنه بين تبجيل محب وتبخيس خصم، وقد تفضلَ بترجمة النصوص المطلوبة عن التركية الأستاذة: آية عز.

(٢) السابق ص١٢.

(٣) السابق ص ٥٢.

(٤) انظر: (حياة كُرست للقرآن) ص٣٢، ص٦٨، ص٧٠، وفي تجربة معاكسة يقول الفريق سعد الدين الشاذلي رحمه الله في كتابه أربع سنوات في السلك الدبلوماسي ص ٧٥: «وفي البرتغال تعلمت اللغة البرتغالية. وقد كان هدفي من تعلم اللغة في أول الأمر هو التأقلم والاعتماد علىٰ النفس في التخاطب بما يكفل لي حل المشاكل اليومية.
ومع مرور الأيام اتضح لي أن المسلمين البرتغاليين ينطقون القرآن نطقا خاطئا. وبدراسة المشكلة اتضح لي أن كتابة القرآن بالحروف البرتغالية يشوبه الكثير من القصور، لأن هناك أصوات في اللغة العربية لا يوجد لها مثيل في اللغة البرتغالية. ولكي أتغلب علىٰ هذه المشكلة أدخلت ١٦ حرفًا جديدًا علىٰ الحروف الأبجدية البرتغالية وأصدرت كتابا أسميته (كتابة اللغة =

ومنهم: الدكتور زكي مبارك، يقول عن تبديد وحشته بالقرآن: «في مكتبتي بمصر الجديدة خمس نسخ من المصحف الشريف، وكان معي في باريس نسخة من المصحف الشريف، وقد أخطأت نحو نفسي أبشع الخطأ حين قدمتُ بغداد وليس معي نسخة من المصحف الشريف، ولكن لا بأس، لقد استعرت نسخة من المصحف حين قهرتني الهموم في بغداد»[(١)].

ومنهم: الدكتور جابر عصفور، فقد استهدىٰ بالقرآن وقت كربه، يقول: «ولولا انفرادي عن الآخرين، ووجودي في مكتبتي مع القرآن الكريم، عندما ماتت ابنتي الكبرىٰ الدكتورة سهير، وكانت ولا تزال قرة عيني ونور قلبي؛ لكنت أصبت بالجنون»[(٢)].

وهذا شبيه بما فعله غوته، فقد أرسل لصديقه هردر عام ١٧٧٢، وكان مكروبًا مهمومًا، فقال: «وأودُّ أن أدعو دعوة موسىٰ في القرآن: رب اشرح لي صدري»[(٣)].

= العربية بالحروف البرتغالية) (Fonética arabe Com Letras Portuguesas) ولم يكن هذا الكتاب إلا مدخلا للعمل الكبير الذي كنت أنوي عمله وهو كتابة القرآن الكريم بالحروف الأبجدية البرتغالية. وقبل أن أغادر البرتغال في يونيو ١٩٧٨ كنت قد أصدرت الجزء الثلاثين من القرآن الكريم بالحروف الأبجدية البرتغالية».

ولست أشك في حُسن نية المرحوم الشاذلي، لكن الأظهر منع هذا إلا في أضيق الحالات المعيّنة.

ولبيان الحكم الفقهي لكتابة الآيات بغير العربية انظر: (تحريم كتابة القرآن الكريم بحروف غير عربية أعجمية أو لاتينية) لـ: صالح بن علي العود.

(١) وحي بغداد، للدكتور زكي مبارك، ص٥٧.

(٢) زمن جميل مضىٰ، مذكراته الشخصية، ص١٠٦.

(٣) الاستشراق والإسلام: دراسة في أدب غوته، محمد فلاح الزعبي، ص١٠٧، والقول بأن غوته أسلم لا يبعد، ولا أجزم به، فقد نطق الشهادة مرتين في كتاباته، وصلىٰ الجمعة مع بعض الجنود الروس المسلمين في مسقط رأسه فايمر، وذلك في ٢٧ يناير عام ١٨١٤، وقد قال في إحدىٰ قصائده: «إذا كان الإسلام يعني التعبد للإله فإننا جميعًا نعيش ونموت مسلمين»، والله أعلم بحاله ومآله، وهل كان ميولًا ثقافيًّا أم اقتناعًا دينيًّا، وهذه صورة لخطه وقد كتب: علي والي الله.

ومن النّاس من لا تزيده الكربات إلا بُعدًا عن القرآن، واستخفافًا به، تحكي نوال السعداوي عن حالها في السجن: «ثم نضحك، تضحك عواطف ولطيفة وأمينة وصافيناز، كلنا كنا نقاوم ونضحك أحيانًا إلا اثنتين، لم تكن عيونهما تعرف اللمعة أو التفاؤل، واحدة منهما كان اسمها (بدور)، شابة في الثلاثين من عمرها، في نقابها الأسود، ثقبان للعين، ترتل القرآن بصوت يذكرني بترتيل القرآن في المآتم، وملابس الحداد، والطرح السوداء وفي السجن لم أسمع من (بدور) إلا كلمة حرام، كل شيء عندها حرام حتىٰ الرياضة البدنيَّة، فالمرأة يجب ألا تهتزَّ بجسمها، والضحك عندها حرام؛ لأن في القرآن آية تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾»[1].

(١) مذكراتي في سجن النساء، نوال السعداوي، ص٥٣، والمحزن أن مثل هذه الأقاصيص السخيفة تُصدّق وتؤثر ويضلُّ بها فئام من الناس، ومن نكد الحياة علىٰ أهل الحق أن الجواب الصحيح ليس بالضرورة الجواب المقنع، وهذا معنىٰ أحب لمن انتصبوا للرد علىٰ الشبهات تفحَّصه برويَّة، وتقليب أوجهه وتطبيقاته.

المبحث الثالث
الاستهداء الإصلاحيُّ

هنا وقفات تحليليَّة لشخصيَّات أصلحها القرآن ثم أصلحت به، وشروطي في اختيار النماذج ما يأتي[1]:

الشرط الأوَّل: أن يكون عالمًا مصلحًا له تأليفٌ قرآنيٌّ.

الشرط الثَّاني: أن يكون ممن عاش في القرن الماضي (١٣٠٠-١٣٩٩)، فبذورهم بدأت بالإثمار.

الشرط الثَّالث: ألا آتي بمثالين من بلد واحد.

الشرط الرَّابع: أن يكون لمشروعه الإصلاحيِّ امتداد في زماننا، وسند متَّصل إلىٰ حاضرنا.

وسأدرس كل واحد منهم من عدَّة جوانب:

الأوَّل: **مجمل سيرته**: وأهتمُّ فيه بأخذ تصوُّر عامٍّ عن شخصيَّته، وأهمِّ معاقد حياته.

---

(١) وقد أخرجت الاشتراطات نماذج كنت أتمنى الحديث عنها في هذا السياق، منهم: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ جمال الدين القاسمي، والأستاذ بديع الزمان النورسي، والشيخ محمد ابن عثيمين، والشيخ عبد الرحمن حبنّكة الميداني، والدكتور فريد الأنصاري، ولعل الله ييسر أن أفرد لجهودهم الاستهدائية بالقرآن قوالب مختلفة.

الثَّاني: **مشروعه القرآني**: وفيه أعرض نتاجه القرآنيَّ، ومقاصد مشروعه الفكري.

الثَّالث: **مفتاح نبوغه**: أي محور نظره الإصلاحي الذي فعَّله في محيطه.

النَّموذج الأوَّل: طاهر الجزائريُّ (١٢٦٨-١٣٣٨هـ):

مجمل سيرته:

وُلد الشيخ طاهر بن محمد صالح بن أحمد حسين بن موسىٰ بن أبي القاسم السمعوني الوغليسي الحسني الجزائري المغربي[١] ثم الدمشقي ليلة الأربعاء الموافقة للعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ١٢٦٨هـ، وقد سمَّاه شيخ والده الشيخ محمد المهدي الزواويُّ، وسجَّل هذه الحادثة والده الشيخ محمد صالح علىٰ هامش كتاب (المجموع الفقهي) للعلامة الأمير المالكي ثم دعا له بقوله: «طهَّره الله من رجس دنياه، وبارك في عمره، ورزقه العلم والعمل به»[٢].

والشيخ سليل أسرة معروفة، فجدُّه سيدي الحاج أحمد حسين كانت له زاوية في أعالي وادي بني (وغليس)، وأسرته تنتسب للحسن بن علي رضي الله عنه[٣].

أما والده فقد كان من علماء المالكيَّة في زمانه، بل مفتي المالكيَّة في دمشق[٤]، وله مصنَّفات، هاجر إلىٰ دمشق مع شيخه محمد المهدي السكلاوي

---

(١) وجدته ينسب نفسه بخطه: المغربي ثم الدمشقي، في تملكه لمخطوط شرح الكافية وشرح الشافية لابن الحاجب، وهي من محفوظات جامعة القديس يوسف ببيروت.

(٢) كنوز الأجداد، محمد كرد علي، ص٩.

(٣) انظر: مقالة لمازن المبارك (الشيخ طاهر الجزائري)، في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، عام ١٤١٤، ص١٨٣-١٨٤. كان لا يحفل بنسبته للشرف ولا يتفاخر بنسبه كما حكىٰ مترجموه؛ انظر: محمد سعيد الباني في تنوير البصائر ص١٣٩، وكنوز الأجداد لكرد علي، ص١٧، وقد رُويت أقوال أخرىٰ بأمازيغيته عند بعض الباحثين.

(٤) ذكر عبد الله حنا ذلك بقوله: «ونشأ في حجر والده مفتي السادة المالكيَّة». انظر كتابه: حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص٨٤.

الزواوي الخلوتي في أواخر سنة ١٢٦٣هـ وهو في الثالثة والعشرين من عمره، وقد هاجر قبل هجرة الأمير عبد القادر الجزائري بمدَّة.

وقد روىٰ الابن الطاهر بنفسه سبب الهجرة فقال: «ثم لما دهم بلادهم -الجزائر- من حادثة الكفرة الفرنسيس -دمَّرهم الله- خرج منها فارًا بدينه»[١].

ترك الشيخ محمد صالح الجزائر وقد خلف فيها قلبه، وحمل معه قضيته، فأصدر في جمع من الجزائريين بدمشق صحيفة (المهاجر) الأسبوعيَّة، وكانت بدعم من الأمير عبد القادر الجزائريِّ[٢].

وفي هذا الكنف الكريم نشأ طاهر، مغترفًا من والده الشيخ أولًا، ثم من مدرسة رشدية الابتدائيَّة، ثم الجقمقيَّة الإعداديَّة، وفي هذه الأثناء تعلَّم العربيَّة والفارسيَّة والتركيَّة علىٰ يد الشيخ عبد الرحمن البوسنوي.

وكان من طيب أقداره أنه اتصل بعدها بالشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني، الذي كان فقيهًا حنفيًّا، وتلميذًا لابن عابدين صاحب الحاشية.

كان الشيخ عبد الغني مستقلَّ التفكير، مفارقًا لأفكار أجداده المتصوِّفة، يقول الدكتور عبد الله حنَّا: «ومن الغنيمي أخذ الجزائري بذرة التمرُّد علىٰ الجمود. والغنيمي هي إحدىٰ الطرق الصوفيَّة المتشعبة عن الشاذليَّة، وقد ترك الغنيمي طريقة أجداده الصوفيَّة، وسلك طريق الكتاب والسنة»[٣].

وفي تلك المدَّة تردَّد الشيخ طاهر علىٰ مدرسة حكوميَّة ثانويَّة، وتعلَّم معهم العلوم الطبيعيَّة، والرياضيات، والتاريخ، والفيزياء، والجغرافيا، وتعلَّم أيضًا السريانيَّة، والعبريَّة، والحبشيَّة، والأمازيغيَّة، والفرنسيَّة، وكانت إجادته الكبرىٰ

---

(١) تذكرة طاهر الجزائري، ص.١٢٣

(٢) الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام، عمار هلال، ص١٦، والشيخ طاهر الجزائري ودوره الإصلاحي بالمشرق العربي، عبد العزيز العميد، ص.٤٩

(٣) حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص٨٥، ولا يستبعد المؤلف -عبد الله حنا- أثر الوهابية آنذاك علىٰ الغنيمي والطاهر من بعده.

للعربيَّة والفارسيَّة والتركيَّة[1].

سمته:

كان الشيخ طاهر معتدل القامة، يضع نظَّارة نحو أربعين سنة، لحيته كثيفة، قلق الحركة، لا يهنأ له بال، عصبيّ المزاج، كثير المشي، ولعل هذه السمات الشخصيةَّ صبَّت في تكوين مفتاح نبوغه كما سيأتي.

ومما أطبقوا عليه أنه كان معتصمًا بدينه، مواظبًا علىٰ صلاته[2]، لا تُذكر له نزوة، ولم تُؤْثر عنه صبوة، وقد أدَّىٰ الحجَّ، ومات ولم يتزوج.

ومن جملة طباعه أنه كان بسيطًا بعيدًا عن التكلُّف، في ملبسه[3]، وحديثه، وتعليمه، وهو رافد ثانٍ لمفتاح نبوغه الآتي.

وهو مع ما جُبل عليه من جديَّة في الطلب، واستقصاء للمعارف، كان يشعر بالآخرين، ويحسُّ بآلامهم، ولا يتعالىٰ عليها أو يهرب منها، فقد عُرضت عليه جبَّة جديدة إبان زيارته للقاهرة، ودمشق حينها في حالة حرب فقال: «يا فلان، تريد مني اقتناء جبَّة جديدة، وأهل الشام يموتون من الجوع»[4].

وهذا الرافد الثالث لمفتاح نبوغه، وبقي الرابع.

ألا وهو حبُّه الشديد للعلم، وكلفه بالتدقيق والتنبيش عن خبايا الزوايا.

مشروعه القرآني:

للشيخ طاهر مشروعات قرآنية متعددة، جلّها مخطوط لم يطبع، وكلها موجود في الظاهرية.

---

(١) انظر: الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، حازم زكريا محيي الدين، ص٢٧-٢٨.

(٢) وقد روي عنه أنه زار أحد المعارض في باريس، وكان إذا أدركته الصلاة صلَّىٰ في الحديقة العامة، مع تعجب الناس من حركاته. انظر: كنوز الأجداد، ص١٦-١٧.

(٣) انظر قصة العمامة الجديدة في كتاب: (رجال من التاريخ)، للشيخ علي الطنطاوي ص٣٧٨.

(٤) تنوير البصائر، ص١٢٦.

أولها: تفسيره الذي تعددت مسمياته؛ فقد سماه بعض الباحثين (تفسير القرآن الحكيم)، وبعضهم سماه (التفسير الكبير).

ومن الاحتمالات القائمة أن الشيخ أراد بحاشيته علىٰ البيضاوي التحضير لتفسير يكتبه استقلالًا، وعليه قرائن تحتاج مزيد تدقيق.

وقد منّ الله علي بالحصول علىٰ مخطوطة حاشيته، فجردته وتفحصته؛ وسامح الله المفهرسين الذين أودعوه بغير اسمه، لذا طال بحثي عنه، لكن لذة الظفر به مضاعفة.

وهذه معالم من منهجيته فيه:

- ذكر الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله أن الشيخ طاهرًا رحمه الله كتب كتاب (التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن علىٰ طريق الإتقان) وجزم أنه مقدمة لتفسيره[1]؛ ويظهر لي أن الكتاب مستقلّ عن التفسير تمامًا، ولا علاقة له به.

- هذا المشروع حاشيةٌ علىٰ كتاب تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، أخذ فيه نسخة مطبوعة من البيضاوي في أربع مجلدات، وكتب علىٰ هوامشها تعليقات ونقولات بأقلام ملونة: أزرق، وأسود، وأحمر، وأخضر، وزاد أوراقًا خارجية كثيرة وربطها بمشبك مع الكتاب، وسيعاني الناظر في المخطوط من تشتت أوراقه؛ لكن الله يسر لي النظر فيه والترتيب المبدئي له.

- الشيخ طاهر كثير الموارد، واسع الاطلاع، ويهتم بالعزو للمخطوط والمطبوع، ويدقق حتىٰ في موارد البيضاوي ومن أين استمد القول، وهل هي بنصها أو بمعناها. ومن موارده في الكتاب:

شرح الأصفهانية لابن تيمية[2]، والجواب الصحيح لابن تيمية، وبدائع

---

(١) انظر: مقدمة تحقيقه للكتاب ص١٧.

(٢) الشيخ طاهر كثير النقل عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية في حاشيته، ويسميه اختصارًا (التقي)؛ فكل نقل في حاشيته كتب فيه (التقي) فهو ابن تيمية، وقد مرّ بنا أنه كان يتلطف في نشر مصنفاته بحيلةٍ للنساخ، ووقفتُ علىٰ نسخة من العقيدة الواسطية من محفوظات المسجد الأقصىٰ =

الفوائد لابن القيم، وأمالي ابن الحاجب، ودرة التأويل للراغب[1]، وشرح القاضي نفسه علىٰ مصابيح السنة، وطبقات النحاة للسيوطي، والريحانة للخفاجي، والموافقات للشاطبي، والمشكل لابن قتيبة، وغيرها كثير جدًا.

- نَفَس الشيخ النقدي ظاهر؛ فتراه يقول: (وليراجع هذه النكتة أحد)، ذكر إشكالًا ثم قال: (فما الحكم فليراجع)، (أقول السياق يناسب القولين فلينظر في مرجع آخر)، (وهذا معنىٰ غريب يحتاج إلىٰ مراجعة)، (ولعل ما في عبارة القاضي حاصل ما هنالك)، (كأنه يريد أن هذا من باب المشاكلة)، (الجواب الثاني أسدّ).

- في الحاشية استهداءات تمد القول لما بعد المعنىٰ؛ كموازنة نقل البيضاوي في قصة موسىٰ بما هو موجود من التوراة التي بين أيدينا، ونقله عن (بولس) والإنجيل في مواضع.

= المبارك -رده الله إلينا محررًا عزيزًا- رقمها: (٢٨٧) ضمن مجموع كتب علىٰ غلافه (لم يصور) (ج٢)، وإذ بها كُتبت بخط الشيخ طاهر:

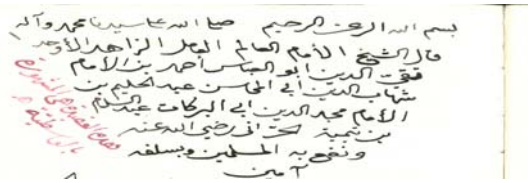

وكتب في آخرها بخطه: «قد تم نقلًا في بيروت في يوم الاثنين ١٦ ربيع الأول ١٣١٧هـ علىٰ يد طاهر بن صالح وفي النسخة المنقولة عنها وهي بخط مغربي كتبه أحد تلاميذ شيخ الإسلام: تمت العقيدة المنصورة إلىٰ قيام الساعة، عقيدة أهل السنة والجماعة، أبقىٰ الله مصنفها ونفع به المسلمين».

وللشيخ طاهر قصة في حفظ قبر ابن تيمية -رحم الله الجميع- حين أراد بعضهم إزالته لوقوعه في حديقة خارج دمشق، فأهاج الرأي العام ضد ذلك، وبقي قبر ابن تيمية محفوظًا بسعي الشيخ طاهر وعنايته. انظرها في: المنثور من سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ الصديق: عبد الله البراك حاشية ص٢٠٤-٢٠٥، وقد أحال علىٰ مصادرها.

(١) كذا عزاه الشيخ طاهر، ومعلوم عند المتأمل أن تفسير الراغب (ت: ٥٠٢هـ) من موارد البيضاوي نفسه، أما (درة التنزيل) فأستبعد نسبته له، وقال قومٌ إنه لقوام السنة الأصفهاني (ت: ٥٣٥هـ)، وقال قومٌ -وأبعدوا- إنه للفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، وأميل لقول من قال إنه للخطيب الإسكافي (ت: ٤٢١هـ).

ونقاشه المطول لمسألة فناء النار، وطوفان نوح جيولوجيًا، ورؤية الله في الآخرة، وأطفال المشركين في الآخرين، والميزان عند أهل السنة، قال في آخرها بخطه: «وأما نحن فقد اتبعنا النصوص الواردة في ذلك فقط، ولا نقول إلا بما جاء به قرآن أو سنة صحيحة» وقال بعد تقرير مطول لمعنىٰ الإلحاد في الأسماء والصفات وخطورة التشبيه والتعطيل: «نسأل الله أن يهدينا لنوره، ويسهل لنا السبيل إلىٰ الوصول لمرضاته ومتابعة رسوله إنه قريب مجيب».

- في الحاشية مخطوطات تامة حفظها من الضياع بوضعها بين الأوراق، منها عقيدةٌ كتب ناسخها في آخرها:

«بُيّضت في اليوم السابع من ذي الحجة الشريفة في سنة خمس وستين وألف بعد الهجرة النبوية».

وكتب الشيخ بعدها بخطه: «إنما وضعنا هذه الرسالة لتضمن الآية إن الدين والملة بمعنىٰ واحد».

- الفوائد المنوعة التي تظهر موسوعيته؛ منها: «الكتابة الحميرية وجدت بين بادية الشام إلىٰ حضر موت، بل وجد في ضواحي دمشق منها . . . سر قول من قال إن إرم هي دمشق فإنها تسمىٰ بذلك».

ومنها: «أطول التماسيح في هذا العصر قلما يزيد علىٰ ١٧ قدمًا».

ومنها: «إن الجنين يتكون من امتزاج جرثومتين صغيرتين الواحدة من نطفة الأب والثانية من بيضة وهذا الامتزاج يتم داخل البيضة الملقحة».

وعند قوله تعالىٰ: «إن تحمل عليه يلهث» قال: إذا كان الكلب في حالة الطبيعية يتنفس من ٢٠ إلىٰ ٣٠ مرة في الدقيقة ولكنه إذا تحرك . . .».

- استنباطاته؛ ومنها قوله في بداية سورة التوبة عن عدم وجود البسملة فيها: «والظاهر أن السبب في ذلك هو أن الكفار كانوا لا يسمون الله سبحانه باسم الرحمن والرحيم، ولأجل أن يكون أولها ما يقرع مسامعهم المقصود معهم بالذات، وهو البراءة منهم ومن كفرهم».

وقوله عند آية (فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم): «أقول: ونظير ذلك قولك لمسرف علىٰ نفسه دع المعاصي في رمضان، فليس المقصود أن لا يتركها بعد، بل التحضيض علىٰ الترك لعلمه أمر العقوبة في ذلك، ولأنه إذا اعتاد تركها في رمضان ربما تركها بعده، وهذا أسلوب بديع في الحكمة».

وقوله عند آية (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء): «قُدّمت الأرض مع تأخرها في سورة سبأ لأن السياق لما كان سياق تحذير وتهديد بأنه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها اقتضىٰ ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء».

- وجدت في الأوراق بعض الإشارات التاريخية لتلك الحقبة، منها نقولاته عن بعض المحاضرات التي دوّنها، وسؤالاته لجلادستون، ونقله عن روبنسون سمث، وخطبة ماسبوري وغيره.

- ردّه لبعض الشبهات بطريقته؛ نحو قوله: «خبر الطوفان التي وجد في الآثار الكلدانية وبهذا ينحل مشكل عظيم».

وبالجملة فالكتاب يستحق العناية والتحقيق، والدراسة والتمحيص.

ثانيها: تفسير بعض الآيات الكريمة من سور مختلفة، وهو في الظاهرية بأرقام (١١٦٢٣)، (١١٦٧٨)، (١١٦٨٠)[1].

وهي أشبه بكنانيش الفوائد، مجموع ألواحها نحو سبعين، وأحدها مكتوب علىٰ طرته بخط الشيخ طاهر: «فيه تفسير آيات من الطبري والنيسابوري»، وليس بها مزيد تحقيق أو ما يحرص عليه.

---

(١) أعانني علىٰ تصوير الكنانيش الصغيرة من مركز (جمعة الماجد) الشيخ الخلوق: عادل بن عبدالرحيم العوضي، وللفائدة: فبعض مصورات مركز جمعة الماجد من الظاهرية أجود مما هو الآن في الأسدية نفسها، لأنها صورت مطلع التسعينيات الميلادية، ومع انتقال الظاهرية فُقد بعضها، وتقادم آخر.

وقد أمدني الشيخ: نور الدين طالب بمصورته المحشاة بخط يده لكتاب (الفهرس العام لمخطوطات دار الكتب الظاهرية) الذي صنعه شيخنا ومجيزنا: محمد مطيع الحافظ -أطال الله عمره وشفاه- وصاحبه، وفيها بعض الشذرات القرآنية من نتاج الشيخ، منها:

أ- فوائد منقولة فوائد منقولة من طبقات المفسرين للداودي، رقمها: (١١٤٦٨).

ب- أسماء سور القرآن الكريم، رقمه: (١١٧٤١).

ت- تفسير آيات ومسائل دينية، ورقمه: (١١٧٢٣).

ث- أحاديث وتفسير بعض الكلمات العربية وما في القرآن من اللغات، ورقمها: (١١٧٣٨).

ج- شيء من التفسير، رقمه: (١١٧١٨).

ح- ترجمة بعض الآيات إلىٰ التركية وأسماء بعض الكتب، رقمها: (١١٦٥٢).

خ- تفسير بعض الآيات وأقوال وأشعار، ورقمها: (١١٦٣٩).

د- تفسير بعض آيات من القرآن الكريم، ورقمه (١١٦٢٣).

ونَفَس الشيخ التقريبي التعليمي في مشروعه القرآني ظاهر، فتارة يحشّي علىٰ تفسير، وتارة ينتقي آيات، وتارة يقتبس من تفاسير مخطوطة آنذاك.

ولا يزال أهل العلم يباينون الأساليب، وينوّعون التراكيب، فيولفون كتب المداخل والمختصرات والأنظام العلمية والمشجرات والملخصات للمبتدئين، ويكون له نصيب من التواليف العميقة المحررة لكبار الطلبة والمتخصصين.

مفتاح نبوغه:

بعد تأمُّل شخصيَّته، وتحليل سيرته، وجدت مفتاح نبوغ الشيخ طاهر هو «**التقريب الرَّشيد**».

تحقيق وتطبيق:

قد جرت محاولات تقريبيَّة في تراثنا الإسلامي، نستطيع تقسيم هذه المحاولات في ثلاث مراحل عامَّة:

الأولىٰ: مرحلة التدوين والجمع المعلوماتي:

كانت الثقافة الشفاهيَّة العربيَّة تتسيَّد المشهد، فالحفظ والرواية عمدةُ نقل المعارف، وكانت طرق التعليم تراعي هذه الثقافة؛ ثم جرت محاولة كتابة الوحي وما بعده، وجرىٰ في ذلك العهد خلاف حول جدوىٰ الكتابة، والذي يهمنا أن الكتابة آنذاك كانت بهدف تعليمي؛ لتقريب العلم وضبطه، وهو ما كشف عنه الحافظ ابن رجب حين قال: «والذي كان يكتب في زمن الصحابة والتابعين لم يكن تصنيفًا مرتَّبًا مبوَّبًا، وإنما كان يُكتب للحفظ والمراجعة»[1].

فانتشارُ العلم وتزايدُ الروايات فرضَ حاجة التدوين؛ لتقريب العلم للطلاب، وفي علوم الحديث مباحث حول الصحف والوجادات المكتوبة، ومدىٰ حجِّيتها، فالعلم انتقل لمرحلة التدوين بالتدريج.

الثَّانية: مرحلة الاختصار اللفظي:

المتأمَّل لمرحلة التدوين يجدُ أنها امتلأت بالتفاصيل الضروريَّة آنذاك لحفظ العلم؛ كسرد الأسانيد، وتبيين دقائق أحوال الرواة، وغيرها، وهذا ما جعل التقريب بحذف هذه التفاصيل مهمَّة مرحلة التقريب الثَّانية، وقد أخذ التقديم لهذه الخطوة أشكالًا عدة؛ فمثلًا نجد من أشكاله الحديث عن تواضع الهمم، ونعي الزمان، تمهيدًا لهذه الخطوة الإيجازيَّة.

يقول ابن الجوزيِّ: «كانت هِمم القدماء من العلماء عليَّة، تدلُّ عليها تصانُيفهم التي هي زبدةُ أعمارهم، إلا أنَّ أكثر تصانيفهم دثرت؛ لأن هِمم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطوَّلات»[2].

---

(١) شرح علل الترمذي، (١/ ٣٤١)، تحقيق: همام سعيد.

(٢) صيد الخاطر، ص٤٥٣.

ونحوه قول ابن الهمام الحنفيِّ في سبب تأليفه (التحرير): «وعرفت من أهل العصر انصراف هِمتهم في غير الفقه إلىٰ المختصرات، وإعراضهم عن الكتب المطوَّلات؛ فعدلت إلىٰ مختصر . . .»[(١)].

هذا سبب صناعيٌّ؛ ألحقه سببٌ فنيٌّ في طريقة التعلُّم والتفقُّه، فطالبُ العلم بحاجة إلىٰ الحفظ، وليسهل الحفظ نحن بحاجة إلىٰ الاختصار والتقريب، وهذا صريح في قصة الحافظ ابن حجر إذ علَّق في نزهة النظر في سياق حديثه عن المصنَّفات الحديثيَّة قبل الحافظ ابن الصلاح بقوله: «واختصرت لتيسير فهمها». فأورد عليه تلميذه الإمام ابن قطلوبغا قائلًا: «أوردت علىٰ المصنف: أن الاختصار لتيسير الحفظ، لا لتيسير الفهم، فأفاد: أن المراد فهم متين لا يزول سريعًا، فإنها إذا اختصرت سهل حفظها، وحينئذ يسهل فهمها، بسبب حفظها»[(٢)].

والحفظ مقصدٌ ظاهِر للمختصرات، كما عبر الحجويُّ عن المختصرات بأنها بنيت علىٰ «تقليل الألفاظ تيسيرًا علىٰ الحفظ»[(٣)]، وقد اتجهت الحركة التقريبيَّة نحو تقليل الألفاظ، وتكثيف المعاني حتىٰ صارت المتون في طور حادث أشبه بالرموز والألغاز، وهنا أتت الحاجة للشروحات والحواشي بصورة أكبر.

قال الحطَّاب الصغير عن مختصر خليل: «إلا أنه لفرط الإيجاز، كاد يعدُّ من جملة الألغاز»[(٤)].

---

(١) انظر: تيسير التحرير، لأمير باد شاه، (١/ ٧).

(٢) انظر: المدخل إلىٰ علم المختصرات، للدكتور عبد الله الشمراني، ولدراسة الظاهرة المتونية يضاف له: (الدليل إلىٰ المتون العلمية)، للشيخ عبد العزيز القاسم، وبحث (دفاع عن ظاهرة المتون)، للدكتور عبد الكريم الأسعد، و(التعاليق والشروح وأثرها في تطوير الدرس الفقهي)، للدكتور هيثم الرومي، ومقالة (وظائف شارح المتن الفقهي، دراسة تأصيلية تطبيقية)، للدكتور محمد مهدي العجمي، في مجلة الجمعية الفقهية السعودية، العدد ٦١، ص٤٧٧ وما بعدها.

(٣) الفكر السامي، (٢/ ٤٥٨). كذا في ا لمطبوع، ويظهر أن الصواب (تيسيرًا للحفظ) أو (تيسيرًا على الحافظ).

(٤) مواهب الجليل، (١/ ٢).

ووصفُ الباعث علىٰ الشرح بأنه أتىٰ للحدِّ من الإلغاز مكرور في أكثر من كتاب.

وبهذا نعلم أن المنتقدين للاكتفاء بالمتون التقريبيَّة آنذاك يختلفون في أسبابهم؛ وأول سبب ذكرناه «استغلاق الفهم» لما تضمَّنته من ترميز.

أما السبب الثَّاني فهو «إضعاف الملكات» وخلق حالة من الكسل المعرفي؛ لسهولة الوصول للنتيجة الحكميَّة، وما يترتَّب عليه من جرأة المبتدئين علىٰ التخوض في مقامات لا تبلغها أدواتهم، ومن ذلك النوع نقد الصاحب بن عباد لصاحب كتاب الألفاظ عبد الرحمن بن عيسىٰ بن حماد الهمذاني.

قال الصاحب بن عباد: «لو أدركته لأمرت بقطع يده ولسانه؛ لأنه جمع شذور العربيَّة الجزلة المعروفة في أوراق يسيرة، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب، ورفع عن المتأدِّبين تعب الدرس والحفظ والمطالعة»[1].

وأغلب النقد المتَّجه إلىٰ وصف المتون بإضعاف الملكات يتكئ علىٰ نصٍّ مطوَّل لابن خلدون في مقدِّمته تحت فصل بعنوان: (في أن كثرة الاختصارات المؤلَّفة مخلَّة بالتعليم)[2].

الثالثة: مرحلة الوسائل التقنيَّة:

حين انتشر (الويب) عام ١٩٩٨م طرح غوستاف كونيلس ورقة علميَّة في المؤتمر العالمي العشرين للفلسفة بعنوان (هل شعبنة العلم ممكنة؟) [أي تقريب العلوم وجعلها شعبيَّة]، تحدَّث فيها عن تجارب تقريب مفاهيم العلم والكونيَّات، وضرب مثالًا بكتاب (تاريخ موجز للزمن) لستيفن هوكينغ، وكان في مجمل الورقة يدعو للاتزان في «حقِّ العلم» بعدم تضييعه بالتبسيط الزائد، و«حقِّ الجمهور» في

(١) انظر القصة في تاريخ الإسلام للذهبي، (٧/ ٣٨٨). ط. بشار عواد معروف.

(٢) الفصل السادس والثلاثون من مقدمته، ص.٧٣٣

الاقتراب من العلم وفهمه[1].

والحديث عن هذه المرحلة يطول، وتحت مجاري القول إلماحات لبعض الضوابط والعثرات والأطر، لعل الله ييسر بسطًا يليق في موضع منفرد.

تقريب العلوم عند الشيخ طاهر الجزائري:

عاش الشيخ طاهر وسيِّد أعماله تقريب العلوم، وقد أعانته عليه طبيعة غير متكلِّفة، وحبٌّ للعلم، ورحمة بالخلق، وسعة في الاطلاع، وقلق لا يهدأ؛ فاجتماعها فيه مؤذنة بمشاريع تقريب العلوم.

وكان الشيخ يكرر قوله: «إن الإتقان لا حدَّ له، والأغلاط تصحَّح مع الزمن»[2].

وحين تباطأ صديقه الأستاذ أحمد زكي باشا في طباعة بعض الأعمال حتىٰ مضىٰ العام، وقيِّدت الميزانية المعدَّة للعام التالي، وهكذا حتىٰ أُلغي الاعتماد؛ غضب منه الشيخ طاهر، وقال له: لقد أسأت إلىٰ أمتك العربيَّة بإبطائك في إخراج الكتب للناس، وإذا ادعيت أنك تقصد نشرها سالمة من الخطأ، مشفوعة باختلاف النسخ والتعاليق، فالتأنُّق لا حدَّ له، ويكفي أن ينتفع الناس بالموجود»[3].

فالشيخ يؤمن بالاعتدال في تطلُّب الكمال، «وكم أماتت رغبة الكمال إنجاز كثير من الأعمال! كما أمات التراخي والتسويف كثيرًا من فريد التآليف»[4].

وكان يقول لتلاميذه: إذا جاءك من يريد تعلُّم النحو في ثلاثة أيام، فلا تقل له هذا غير ممكن، فتفلَّ عزيمته، وتكسر همته، ولكن أقرئه وحبِّب إليه النحو،

---

(١) الورقة منشورة في جامعة بوسطن، رابطها:
https://:www.bu.edu/wcp/papers/scie/sciecorn.htm

(٢) كنوز الأجداد، ص١٥.

(٣) كنوز الأجداد، ص٢٢.

(٤) الرسول المعلم، للشيخ عبد الفتاح أبي غدة، ص٥.

فلعله إذا أنس بها واظب علىٰ قراءته[1].

ومن مظاهر تحقيقه لهذا المفتاح:

أولًا: تأليف الكتب المدرسيَّة:

خرجت للشيخ طاهر مصنفات تقريبيَّة تعليميَّة في شتىٰ العلوم، منها:

١. إتمام الأنس في حدود الفرس، في العروض والقوافي.

٢. إرشاد الألباء إلىٰ طريق تعليم ألف باء، وهو كتاب مدرسيٌّ يصلح للناشئة، طبع عام ١٣٢١هـ.

٣. التقريب لأصول التعريب، طبعه قبل وفاته بعام واحد.

٤. تمهيد العروض في فن العروض، طبع عام ١٣٠٤هـ.

٥. رسائل في علم الخط.

٦. مدخل الطلاب إلىٰ فن الحساب، وغيرها.

وله مؤلَّفات علميَّة متخصِّصة، ونشرات تحقيقيَّة لبعض الكتب، ومختصرات طبعها بعنايته.

والمتأمِّل في مسيرة الشيخ يجدُ أن بساطته وتقريبه للعلوم كانت تواجه بالتهوين حينًا، وباللمز أحيانًا أخرىٰ[2]، لكنه لم يكن يبالي بصورته الذهنيَّة؛ فلا الرسوم العلميَّة تستلبه، ولا أحاديث الناس تغيره، فعاش مصلحًا مقرِّبًا للعلم، نافعًا للطلاب، مع تفنُّنه وتعمُّقه الذي تشهد بها تواليفه، وتقرُّها تصانيفه، فمن يقرأ هذه الكتب يظنها بذور علمه، بينما هي ثمرات ناضجة.

---

(١) انظر: فكر ومباحث، للشيخ علي الطنطاوي ص١٣١.

(٢) انظر مقالة الأستاذ: صالح مخلص رضا -شقيق الشيخ محمد رشيد رضا- في المنار، المجلد (٢٢)، ذو الحجة عام ١٣٣٩، بعد وفاة الشيخ طاهر بعام واحد، فقد كتب مقالة في تقريظ كتاب (تنوير البصائر)؛ لا تخطئ عين الناظر تهوينه من قدر الشيخ طاهر، ولا أبعد إن قلت: التعالي عليه.

وهكذا يعيش العالم المصلح أيامه، بين قريب متسوِّر لحقِّه، وغريب طاعن في صدقه، وكما قال أبو الحسن حازم القرطاجني (ت: ٦٨٤هـ) في ميميَّته النحويَّة -عند ذكر المسألة الزنبوريَّة-: [البسيط]

وَلَيْسَ يَخْلُوْ امْرَؤٌ مِنْ حَاسِدٍ أَضِمِ ... لَوْلَا التَّنَافُسُ فِي الدَّنْيَا لَمَا أَضَمَا
والغُبْنُ فِي العِلْمِ أَشْجَىٰ مِحْنَةٍ عُلِمَتْ ... وَأَبْرَحُ النَّاسِ شجوًا عالمٌ هُضِمَا[1]

ثانيًا: تأسيس المدارس الحديثة:

اجتمع الشيخ طاهر والشيخ علاء الدين ابن عابدين[2] (ت: ١٣٠٦هـ) وبهاء بك لتأسيس (الجمعية الخيريَّة الإسلاميَّة)، وقد افتتحت الجمعية ثماني مدارس للذكور، ومدرستين للإناث.

ففي ٥ شباط عام ١٨٧٩ افتتحوا المدرسة الأولىٰ في بناء جامع (السباغورشية) وقد انتسب لها (١١٦) طالبًا.

وفي ٢٥ شباط (فبراير) ١٨٧٩م افتتحوا المدرسة الثانية في بناء جامع (الكردي)، وقد انتسب لها (١٠٦) طلاب.

وفي ٣ آذار (مارس) ١٨٧٩م افتتحوا مدرسة (الحبال) التي انتسب لها (١٠٠) طالب.

وفي ٨ آذار (مارس) ١٨٧٩م افتتحوا مدرسة (السباهيَّة)، وانتسب لها (٤٧) طالبًا.

وفي ١٦ آذار (مارس) ١٨٧٩م افتتحوا مدرسة (الشاميَّة) وانتسب لها ١٥٢ طالبًا.

---

(١) ص١٨٠، بتحقيق وشرح: الدكتور محمد السيد عزوز.

(٢) هو ابن الشيخ محمد أمين عابدين صاحب حاشية (رد المحتار علىٰ الدر المختار)، وعليها معتمد التصحيح عند السادة الأحناف، ومن اللطيف أن مجالس الدمشقيين المصلحين كانت تضم أصحاب المذاهب الأربعة؛ فالحنابلة منهم ابن بدران، والشافعية منهم جمال الدين القاسمي، والأحناف منهم علاء الدين ابن عابدين، والمالكية منهم الشيخ طاهر.

وفي ١٨ آذار (مارس) ١٨٧٩م افتتحوا مدرسة (الخانكيَّة) وانتسب لها (٩٧) طالبًا.

وفي ٢٤ آذار (مارس) ١٨٧٩م افتتحوا مدرسة (السليمانيَّة) للبنات.

وفي ١ نيسان (أبريل) ١٨٧٩م افتتحوا مدرسة (الصالحيَّة) وانتسب لها (٥١) طالبًا.

وفي ١١ حزيران (يونيو) ١٨٧٩م افتتحوا مدرسة (المغيربيَّة) للبنات.

وفي ١٦ حزيران (يونيو) ١٨٧٩م افتتحوا مدرسة (البزوري)[١].

ثالثًا: تشجيع الروح العلميَّة:

كان الشيخ طاهر المحيي للمكتبة الظاهريَّة، وقد جمعها من عشر مدارس مختلفة في دمشق، وكان للشيخ طاهر أثر حسن في تزويدها بالمخطوطات، وفهرستها[٢]، وتشجيع الأهالي علىٰ تأسيس المكتبات، وله في ذلك طرائق بديعة. وهو أيضًا ممن ساعد في إنشاء المكتبة الخالديَّة في القدس[٣].

ومن ذلك حسن تهدّيه لبثِّ الأفكار التي تخالف معتقد الجمهور، يبثها في العقول بدون جعجعة، ومثال ذلك أنه أولع بكتب شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وكان جمهرة الفقهاء في عصره تكفِّر ابن تيميَّة، فلم يرَ الشيخ طاهر لتحبيب ابن تيمية إليهم إلا نشر كتبه بينهم من حيث لا يدرون، فكان يستنسخ رسائله وكتبه ويرسلها

---

(١) انظر: الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث، ص٣٤-٣٥.

(٢) انظر: منادمة الأطلال لابن بدران، ص١١٩ وما بعدها، وإذا أردت معرفة تفاصيل تاريخ الظاهرية فانظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، للشيخ عبدالرزاق البيطار، والدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، ومقالة مركزة للدكتورة عزة حسن، بعنوان: المدرسة الظاهرية بدمشق، نشرته بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨٢، الجزء ١.

(٣) زارها الشيخ جمال الدين القاسمي عام ١٩١٤م، ومدحها بأبيات، انظرها في كتاب: جمال الذين القاسمي وعصره، لظافر القاسمي، ص١١٤.

مع من يبيعها إليهم في سوق الورَّاقين بأثمان معتدلة، لتسقط في أيدي بعضهم فيطالعونها، وبذلك يصل غرضه[1].

وقد حكىٰ ذلك الأمر الشيخ علي الطنطاوي بقوله: «كان الشيخ في حياته يشجع كلَّ عامل، ولا يثني أحدًا عن غاية صالحة»[2].

النموذج الثَّاني: عبد الحميد بن باديس (١٣٠٧-١٣٥٩هـ):

مجمل سيرته:

وُلد الشيخ عبد الحميد بن محمد المصطفىٰ بن مكي بن باديس عام ١٣٠٨هـ[3]، في بيت له مكانة وثراء، فأبوه تقلَّب في العديد من المناصب العالية، إذ كان عضوًا بالمجلس الجزائري الأعلىٰ والمجلس العام، كما كان عضوًا في المجلس العمالي، وكان يتمتع بشبه حصانة برلمانيَّة، وأعطي نيشان الافتخار الفرنسي، وقد عرف بدفاعه عن مطالب السكان المسلمين، أما أم الشيخ عبد الحميد فهي زهيرة بنت علي بن جلول من أسرة معروفة في قسنطينة هي أسرة (عبد الجليل).

وأسرة ابن باديس عريقة مشهورة في الجزائر والمغرب العربي كله منذ قرون عديدة، فممن نبغ منهم: بلكين بن زيوي، والمعز بن باديس، الذي استقلَّ بولاية أفريقيا عن الفاطميين، وحارب الشيعة، ونشر مذهب السنة، مما جعل عبد الحميد يفخر بذلك ويذكره في مناسبات عديدة[4].

---

(١) انظر: كنوز الأجداد، ص٩.

(٢) فكر ومباحث، ص١٣١.

(٣) ذكر الزركلي في الأعلام (٤/ ٦٠)، وتبعه عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين (٥/ ١٠٥)، أن مولده كان عام ١٣٠٥ هـ، والتصحيح من: القائد الرائد، محمد الصالح رمضان، مجلة القبس، العدد الثاني، السنة الرابعة، ١٩٧٠م، ص٢٩، والإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، للدكتور: عمار الطالبي، (١/ ٧٦).

(٤) انظر: عبد الحميد ابن باديس مفسرًا، للدكتور حسن السلوادي، ص٤١ وما بعدها، وهي دراسة مميزة في جوانب عدة.

تعلَّم القراءة والكتابة في منزل والده، وأتمَّ حفظ كتاب الله علىٰ يد الشيخ محمد المداس في الثالثة عشر من عمره، وقدَّمه شيخه لإمامة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير بقسنطينة، وحين بلغ عبد الحميد الخامسة عشر زوَّجه والده بفتاة من أسرة مترفة، ورُزق منها بولد سمَّاه (عبده إسماعيل)، توفي مبكرًا؛ وعبده هنا علىٰ اسم الشيخ محمد عبده.

وقع للشيخ بلاء اجتماعيٌّ انتهىٰ بتطليقه زوجه، ولم يتزوج بعدها[1].

سافر بعدها إلىٰ تونس لطلب العلم في الزيتونة عام ١٩٠٨م، وهناك اتصلت أسبابه بشيخه الطاهر بن عاشور، وعاد إلىٰ بلاده بعد حصوله علىٰ شهادة التطويع (العالميَّة) سنة ١٩١٢م.

استفتح مرحلة العطاء العلمي في الجامع الكبير بدروس في الشفا للقاضي عياض، ولكن السلطات الاستعماريَّة منعته بتحريض من مفتي المدينة آنذاك محمد بن الموهوب، وفي ذلك عبرة للمصلحين أن العدو لا يصل إلىٰ مبتغاه منك إلا علىٰ جسرٍ من أبناء جلدتك ودينك ومنهجك، فالأذىٰ لا يصلك إلا حين يمدِّد أحدهم جسده لتعبر قوافل الظلم إليك، وما أشرع مصلح سواري سفينته لنفع الناس وأقبلت القلوب عليه إلا كان العدو الخفي أضر من العدو الظاهر، وذلك بدافع من عمالة أو جهالة.

ولو نطق العقلاء عن لسان واحد لقالوا إن جهد البلاء أن يسلِّط الله عليه الضعيف الصوَّال، الذي تحمله ذلَّته -ممن فوقه- إلىٰ الإمعان في استضعاف من يتولَّىٰ أمره.

حينها عزم الشيخ علىٰ الذهاب للمشرق، وقد ذكر الباحثون أسبابًا أربعة

---

(١) مجمل قصة هذا الإفك ومن تولىٰ كبره من الصحف والأشخاص موجود في: ابن باديس والإبراهيمي وجمعية العلماء المسلمين في الثورة الجزائرية، للشيخ أحمد حماني ص ٤٢-٤٣، وص١٧٠-١٧١.

لرحلته؛ فقالوا إنه سافر لأداء فريضة الحج[1]، والاستزادة من علوم المشرقيين[2]، والتهرُّب من الخدمة العسكرية الإجباريَّة[3]، ورغبة في لقاء شيخه المهاجر (حمدان الونيس) في المدينة المنورة[4].

مكث بالمدينة ثلاثة أشهر، تعرَّف فيها إلىٰ رفيقي الكفاح والإصلاح: محمد البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي.

يحكي ابن باديس بنفسه قراره المصيري الذي كان له ما بعده، يقول: «أذكر أني لما زرت المدينة واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان الونيس، وشيخي حسين الهندي، أشار علي الأول بالهجرة إلىٰ المدينة، وأشار علي الثاني -وكان عالمًا حكيمًا- بالعودة إلىٰ الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربيَّة بقدر الجهد، فحقَّق الله رأي الثاني، ورجعنا إلىٰ الوطن بقصد خدمته، فنحن لا نهاجر، نحن حرَّاس الإسلام والعربيَّة والقوميَّة بجميع مدعماتها في هذا الوطن»[5].

رُبَّ شوكٍ أمهد من وطاء، ومنعٍ أكرم من عطاء، ولأنَّ «أعنف الموج يخلق أمهر السباحين»[6] عاد الشيخ إلىٰ وطنه قويًّا نافذ العزم، وكان أول ما صنعه افتتاح درس قرآني استمرَّ ربع قرن، وأسَّس الشيخ كثيرًا من ينابيع الإصلاح؛ من معاهد، وصحف، وجمعيات، ما زال أثرها ماثلًا إلىٰ اليوم، وكل ذلك بتأنٍ ودأب، وقد علَّمتنا سيرته أن المصلح هو الذي يمهد طريق الإصلاح، ومن يأتي بعده ثمارٌ لبذرته ولو كان الصيت لهم، وكم من عالم عطس قبل قرون، فلم يشمته أحدٌ من أهل عصره، ولا مَن تلاهم، ثم أتت أجيال لم تدرك أحفادَه لتقول: يرحمك الله يا إمام.

---

(١) ابن باديس حياته وآثاره، (١/ ٨٠).

(٢) عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، تركي رابح، ص١٦٨.

(٣) الحركة الوطنية الجزائرية، أبو القاسم سعد الله، ص٤١٣.

(٤) عبد الحميد بن باديس مفسرًا، حسن السلوادي، ص٤٤.

(٥) الشهاب، ج٨، م١٣، أكتوبر ١٩٣٨م.

(٦) الكلمة للشاعر عبد الله البردوني، انظر: اليمن الجمهوري، ص٢٧٦.

في يوم ختم تفسيره قال ابن باديس: «إنني أعاهدكم علىٰ أن أقضي بياضي علىٰ العربيَّة والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما، وإنهما واجبات، وإني سأقصر حياتي علىٰ الإسلام والقرآن، ولغة الإسلام والقرآن، هذا عهدي لكم».

وقد صدق الشيخ وبرَّ، والمصلح إذا وعد الخير وفَّىٰ، وإذا أوعد بغيره أخلف وعفا. وبقي محافظًا علىٰ عهده حتىٰ رحل إلىٰ ربِّه مساء الثلاثاء الثامن من ربيع الأول عام ١٣٥٩هـ، الموافق السادس عشر من إبريل عام ١٩٤٠م، وقد قيل بأنه مات مسمومًا، وقيل مات بسرطان الأمعاء، وقيل بسلِّ العظام.

رحمه الله جزاء ما قدَّمه، وأخلف علينا بخير.

مشروعه القرآني[١]:

فسّر الشيخ ابن باديس القرآن كاملًا درسًا لا تأليفًا، ولم يكتب تفسيره بل ألقاه، وهو ما قرَّره صديقه البشير الإبراهيمي، حين قال: «كان يرىٰ [يعني ابن باديس] حين تصدَّىٰ لتفسير القرآن أن تدوين التفسير بالكتابة مشغلة عن العمل المقدَّم؛ لذلك آثر البدء بتفسيره درسًا تسمعه الجماهير»[٢].

شرع الشيخ في تفسيره عام ١٩١٣م، وانتهىٰ منه آخر فصل الربيع عام ١٩٣٨م، فكان مجموع المدة خمسًا وعشرين سنة[٣].

لم يصلنا من تفسيره الذي كان يلقيه شيء سوىٰ ما كتبه في المجالس التي كان ينشرها في مجلة الشهاب، وسماها (مجالس التذكير)، والذي جُمع منها: سورة الإسراء، والفرقان، والنمل، ويس، والمعوذتين، ثم آيات متفرقة من سور يوسف، والنحل، والمائدة، والنور، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والذاريات.

---

(١) انظر: ما كتبه مرصد مركز تفسير حول تفسير ابن باديس.

(٢) تفسير ابن باديس، ص٢٠.

(٣) انظر: عبد الحميد بن باديس مفسرًا، ص٦٦,

وقد طُبع الكتاب عدة طبعات، أوَّلها ما نشرته دار الكتاب الجزائري بالجزائر، وطبع بمطبعة الكيلاني بالقاهرة عام ١٣٨٤هـ، بعناية محمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين، ثم طبع مرارًا في دور مختلفة.

يؤمن ابن باديس أن المخرج والمنجىٰ بالقرآن لذلك شرع في تفسيره، يقول: «لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلىٰ القرآن؛ إلىٰ علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه»[١].

وكان الشيخ ابن باديس أنيق التصنيف، يحسن التقاسيم علىٰ هدي وسط بين الخطاب الصحفي والعلمي، ومن ذلك تفريعه للعناوين قبل الفوائد بأسماء دالَّة نحو قوله: تمهيد، توجيه، استنتاج وتطبيق، إرشاد واستنهاض، رجاء وتفاؤل، استنباط، ترغيب وترهيب، تعليم، تنظير، وغيرها كثير[٢].

وقد كان من موارد تفسيره: تفسير الطبري، والكشاف، ومفاتيح الغيب، والبحر المحيط.

---

(١) تفسيره، ص١٧٥.

(٢) مما أستملحه في هذا المقام صنيع من عقد الفصول والمباحث بمسميات أنيقة تناسب الحال المؤلَّف فيه؛ ومنهم: ابن عبدربّه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ) صاحب العقد حين نحله تسميات من الجواهر اتساقًا مع عنوان كتابه فقال: «وقد أفردتُ كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد، فأولها: كتاب اللؤلؤة في السلطان، ثم كتاب الفريدة في الحروب، ثم الزبرجدة في الأجواد والأصفاد . . . «. مقدمته للعقد، (١/٧).
وممن سلك مسلك اللطف في تسمية أجزاء الكتاب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري -صاحب النفح- (ت: ١٠٤١هـ) في (أزهار الرياض في أخبار عياض)، فقد كسر فصول الكتاب علىٰ أسماء الورود: «روضة الورد في أولية هذا العالم الفرد، وروضة الأقحوان في ذكر حاله في المنشأ والعنفوان، وروضة البَهار في ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار»، وأكمله علىٰ هذا المنوال البديع لفظًا ومعنىٰ علىٰ عادة الأندلسيين في التأنق والإبهار الجمالي. =

ومنهجه في التفسير أن يعالج المعنىٰ المجمل، ثم يدلف لما بعد المعنىٰ من استهداء.

مفتاح نبوغه:

بعد تأمُّل شخصيّته، وتحليل سيرته، وجدت مفتاح نبوغ الشيخ عبد الحميد هو «**دفن البذور**».

ومقصودي من دفن البذور ظاهرٌ، فالتخطيط الإصلاحي مطلب، والعجلة محرقة، وقد جرت سنة الله أن الفتوحات تتطامن للمتأني، وتجفل عن المتعجِّل العشوائي، وفي السيرة النبويَّة قبس من دفن البذور، ومنها:

دعوة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب، مع تنويع الشرائح رجالًا ونساء، صبيانًا وموالي، ثم انطلاقه بما يناسب كل مرحلة.

ومن أوجهها ما روته عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتىٰ إذا ثاب الناس إلىٰ الإسلام نزل الحلال والحرام»[1].

ومن أوجه دفن البذور تخصيصه يومًا للنساء يعلمهن فيه، فالمرأة روح الأسرة، ومصنع الرجال.

ومنها: أنه قال ﷺ لملك الجبال حين عرض عليه أن يطبق عليهم الأخشبين: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا

= ومنهم السيد عبد الحي الكتاني (ت: ١٣٨٢هـ) فقد كان يستخدم في كسر الأبواب والفصول والمباحث كلمة «وصل» عوضًا عن «فصل»؛ لما تحمله دلالة الوصل من الفأل بالاتصال والقرب، وبعدًا عن إيحاء كلمة الفصل من القطع والوحشة، وقد صنع ذلك في كتابه (كشف اللبس عن حديث وضع اليد علىٰ الرأس)، وفي تاريخ هذا المسلك أفاد محمد الأمير المالكي (ت: ١٢٣٢هـ) في (ضوء الشموع شرح المجموع) (١/٤٨)، أن صاحب السبق في هذا المأخذ محيي الدين ابن العربي صاحب الفتوحات المكيَّة (ت: ٦٣٨هـ).

(١) البخاري، (٤٦٠٩).

يشرك به شيئًا»[1].

وأوجه ذلك المعنىٰ علىٰ سبيل الحصر أو قريبًا منه بحاجة إلىٰ مصنَّفٍ خاصٍّ.

دفن البذور عند ابن باديس:

كانت الجزائر ذلك الوقت تعيش غربة خانقة، ولم يكن هيِّنًا علىٰ الإنسان آنذاك تخيُّل البلد بدون استعمار فرنسي، إذ الفأل في بعض الأحوال عملٌ ثوريٌّ تامُّ الأركان، وهذه شهادة من الشاعر محمد الأمين العمودي (ت: ١٣٧٧هـ)، وسترىٰ تحت مجاري حديثه حالته الشعورية؛ يقول: «أما حياتي فحياة كل مسلم جزائري، حياة بلا غاية ولا أمل، حياة من لا يأسف علىٰ أمسه، ولا يغبط علىٰ يومه، ولا يثق في غده، تلك حياتي من يوم عرفت الحياة، لم أظفر بعقد هدنة مع الدهر الذي أشهر عليَّ حربًا عوانًا لا أدري متىٰ يكون انتهاؤها، ولا أظنُّ أن يكون لها انتهاء، لأن هذا العدو القوي الظلوم الجائر الغشوم لا يمسك عني إحدىٰ يديه إلا ليصفعني بالأخرىٰ»[2].

وهذه شهادة أخرىٰ مؤلمة للحالة العلميَّة وقتئذٍ، يقول الزعيم المصري محمد فريد بك (ت: ١٣٣٨هـ)، بعد زيارة دامت لأشهر لكبريات المدن الجزائرية تلمسان والجزائر العاصمة وقسنطينة: «أصبحت البلاد وليس فيها من المدرِّسين بالجوامع إلا ما يعدُّ علىٰ الأصابع، وقل الطالب والمطلوب، وهجرت ربوع العلم، وخرِّبت دور الكتب، وصارت الديار مرتعًا للجهل والجهلاء، وكادت تندرس اللغة العربيَّة الفصحىٰ، وباختصار فحالة التعليم بالقطر الجزائري سيئة جدًّا، ولو استمرَّ الحال علىٰ هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسيَّة محل اللغة العربيَّة في جميع المعاملات، بل وربما تندرس اللغة العربيَّة مع مرور الزمن، فلا الحكومة تسعىٰ

---

(١) البخاري: (٣٢٣١).

(٢) انظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، محمد الهادي الزاهري السنوسي، (٢/ ٢٠).

في حفظها، ولا تدع الأهالي يؤلِّفون الجمعيَّات لفتح المدارس؛ لمنعها أي اجتماع خوفًا من أن تشتغل جمعيَّاتهم بالأمور السياسيَّة»[1].

ودفن البذور مصطلح أريدُ به أن يعمل المصلح القرآني علىٰ ترسيخ أدوات الخير، دون انتظار نتيجة عاجلة، وأهل هذه الرتبة -الذين هم أهلها حقًّا- صفوة العاملين لله.

ومن أوجه تطبيق الشيخ ابن باديس لهذه المنهجيَّة:

أولًا: **التعليم**: فقد كان أول ما قام به لما نزل قسنطينة التعليم، وأخذ يعلِّم صغار الصبيان الذين يقرؤون القرآن في الكتاتيب، خصيصًا في كتَّاب سيدي فتح الله[2].

وحين التقىٰ ابن باديس الشيخ البشير الإبراهيمي في المدينة المنورة اتفقا أن يشرعا في دفن بذور حركة علميَّة واضحة المعالم، يكون فيها التركيز علىٰ الكيف لا الكم، يقول الإبراهيمي: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء، هي ألا نتوسَّع له في العلم، وإنما نربيه علىٰ فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمَّت هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا»[3].

انتقل الشيخ إلى المسجد الأخضر للتعليم والتربية، وحوَّل المسجد إلىٰ مَناخٍ للاستهداء، فقدَّم للطلاب المسكن والطعام والدواء والرعاية التأَّمة، وكانت له لفتات حانية؛ إذ كان يستقبلهم فور وصولهم قسنطينة، ويوِّدعهم بعد انتهاء السنة الدراسيَّة، وكان يوقظهم قبل الفجر بنفسه.

ولم يكن مشروعه التعليمي مقتصرًا علىٰ جنس دون آخر، وكان يدعو الآباء

---

(١) التعليم والمدارس في الجزائر، مقالة لمحمد فريد بك، جريدة اللواء، العدد ٦١٢، ١٣/ ١٠/ ١٩٠١م، وقد أفدت هذا النقل والسابق من كتاب الدكتور السلوادي (عبد الحميد بن باديس مفسرًا).

(٢) انظر: الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، عمار الطالبي، (١/ ٨٥).

(٣) أنا، محمد البشير الإبراهيمي، ص.١٤٣

لتعليم بناتهن، وإلحاقهن بجمعيَّات التعليم، وقد قال في إحدىٰ المناسبات: «لماذا تعاقب المرأة بعلمها؟ هل العلم وِرْدٌ صفاء للرجل ومنهج كدر للنساء؟ هل له تأثيران؛ حسنٌ علىٰ فكر الذكور قبيحٌ علىٰ فكر الإناث»[1].

يحكي الشيخ بنفسه عن دأبه في دفن البذور فيقول: «لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة عام ١٣٣٢هـ [١٩١٣م] وعزمنا علىٰ القيام بالتدريس، أدخلنا في برنامج دروسنا تعليم اللغة العربيَّة وآدابها، والتفسير، والحديث، والأصول، ومبادئ التاريخ، ومبادئ الجغرافيا، ومبادئ الحساب، وأخذنا نحثُّ علىٰ تعليم جميع العلوم، لما قمنا بهذا وأعلنا قامت علينا القيامة، قيامة أهل الجمود والركود، وصاروا يدعوننا -للتنفير والحطِّ منا- عبداويِّين، أي: الذين ينصرون فكرة محمد عبده الإصلاحيَّة».

ثم يقول -وهنا تلحظ جلَده وعدم استعجاله النتائج-:

«لم نلتفت إلىٰ قولهم، ولم نكترث لأفكارهم علىٰ كثرة سوادهم، وشدة مكرهم، وعظيم كيدهم، ومضينا علىٰ ما رسمنا من خطة، وصمدنا إلىٰ ما قصدنا من غاية، وقضينا عشر سنوات وأظهرت بحمد الله نتائجها»[2].

ثم عقب الشيخ أحمد حماني: «واسمحوا لي أن أذيع الأسرار. جمعيَّة العلماء عقيدة اقتنع بها ابن باديس وإخوانه وفي طليعتهم الإبراهيمي، إن فترة العشر سنوات كانت كافية لتكوين نواة نشء علميٍّ كفء للقيام بالدعوة، ولكنها لم تكن كافية للإقدام علىٰ عمل جماعيٍّ، وعلىٰ تأسيس جمعيَّة عظيمة، تنسِّق أعمال الأفراد وتربط بينهم، وتعمِّم المبادئ والمشاريع في جميع البلاد، لأن عملًا مثل هذا يجب أن تلتف حوله الأمَّة وتستعدَّ للتضحية، ولا سبيل إلىٰ ذلك إلا بإنشاء رأي عامٍّ في الأمَّة يدفع العلماء إلىٰ تأسيس الجمعية».

---

(١) انظر: عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، مازن مطبقاني، ص٥١-٦٤.

(٢) انظر: ابن باديس والإبراهيمي وجمعيَّة العلماء المسلمين في الثورة الجزائرية، الشيخ أحمد حماني، ص٤٨-٤٩.

ويقول ابن باديس بخطه في المقالة السابقة: «فكان لِزامًا علينا أن نؤسِّس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس»[1]، وهنا بدأت المرحلة الثانية.

ثانيًا: **الصحافة:**

بدأت المرحلة الثانية من دفن البذور حين ساهم الشيخ في تأسيس صحيفة (النجاح) عام ١٩١٩م، وكان يكتب فيها بأسماء مستعارة: كالقسنطيني، والعبسي، والصنهاجي، وقد ترك الصحيفة وأسَّس صحيفته الخاصَّة.

أسس صحيفة (المنتقد) عام ١٩٢٥م، ثم توقَّفت بعد صدور ثمانية عشر عددًا، ثم أعقبها فورًا بصحيفة (الشهاب) التي استمرَّت حتىٰ عام ١٩٣٩م، وكانت أسبوعيَّة ثم صارت شهريَّة.

«صنوان أنشئا علىٰ مبدأ واحد، ولغاية واحدة، قضت طوارق الزمن علىٰ أحدهما فخلفه الآخر»، هكذا وصف ابن باديس (المنتقد والشهاب).

وورد في أول مقالاته في الشهاب: «تستطيع الظروف تكييفنا، ولا تستطيع إتلافنا».

وفي نفس العام أصدر الشيخ محمد السعيد الزاهري جريدة (الجزائر)، وعطَّلتها الحكومة.

وأصدر رفيق ابن باديس الشيخ العقبي والشيخ أحمد العابد جريدة (صدىٰ الصحراء)، ثم صدرت جريدة (البرق) سنة ١٩٣٧م، وأصدر الشيخ العقبي أيضًا جريدة (الحق) في بسكرة سنة ١٩٣٦م.

كما أصدر الشيخ أبو اليقظان جريدة (وادي ميزاب) في سنة ١٩٢٦م، فعطَّلتها الحكومة بعد نحو عامين ونصف، ثم أصدر بعدها جريدة (ميزاب) فصودرت، فأصدر بعدها (المغرب)، ثم (النور)، ثم (النبراس).

وهكذا استمرَّت سياسة «جز العشب»، كلما طالت نبتة، واقتربت ثمرتها جزَّتها يد المستعمر، لتعيدهم لنقطة الصفر الإصلاحي.

---

(١) السابق، ص٥٠.

وهنا أتت فكرة قديمة، هي بذرة (جمعيَّة العلماء المسلمين)؛ لتكون المرحلة الثالثة.

ثالثًا: **الجمعيَّات**:

البذرة المدنيَّة آذنت بالإثمار، ففي إحدىٰ ليالي طيبة الطيِّبة وضعت مخططات إنشاء جمعيَّة العلماء المسلمين، لكن سبقها مهاد تعليميٌّ نحو عشر سنوات، ومهاد إعلاميٌّ عامٌّ امتدَّ هو الآخر سنوات عدة.

يقول البشير الإبراهيمي: «وأشهد الله علىٰ أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣م هي التي وضعت الأسس الأولىٰ لجمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م»[(١)].

ثمانية عشر عامًا والبذرة مدفونة في تربة الإصلاح، لا يعلم عنها العدو شيئًا، حتىٰ أينعت وأزهرت.

كان الشيخ ابن باديس في فترة الصحافة يوطئ لفكرته بأحاديث عن الوحدة والاتحاد، فمثلًا قال في العدد الثالث من الشهاب: «أيها السادة العلماء المصلحون المنتشرون بالقطر الجزائري، إن التعارف أساس التآلف، والاتحاد شرط النجاح، فهلمُّوا إلىٰ التعارف والاتحاد بتأسيس حزب دينيٍّ محض»[(٢)].

وفي يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي الحجة عام ١٣٤٩هـ (الموافق: ٥/ ٥/ ١٩٣١م) ولدت جمعية العلماء الجزائريين، برئاسة ابن باديس[(٣)].

---

(١) آثار البشير الإبراهيمي، (٥/ ٢٨٧).

(٢) انظر: التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد ابن باديس، إعداد مركز البحوث والدراسات، ص١٤٧ وما بعدها.

(٣) اطلعت علىٰ رسالتين جامعيتين مفيدتين في تأريخ الجمعية. الأولىٰ: للدكتور إسحاق السعدي (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منهجها وآثارها)، رسالة ماجستير بجامعة الإمام حمد بن سعود، عام ١٤٠٧هـ، كلية الشريعة. والثانية: للدكتور مازن مطبقاني (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية)، رسالة ماجستير من جامعة الملك عبد العزيز عام ١٤٠٤-١٤٠٥هـ، قسم التاريخ. =

وبذا صارت أرض الجزائر صالحة للتغيير الذي خُتمت سلسلته بجهاد المستعمر، بعد سنوات من دفن البذور التي كان يتوارىٰ بها المصلحون، ويتنادون إليها همسًا، كان ابن باديس يفكِّر حين كان التفكير ممنوعًا، وينطق حين كان البقية يخشون التفكير؛ لأن المصلح القرآنيَّ أوسع خطوًا ببصيرته من غيره، فهو صاحب الخطوة الأولىٰ، وقد جرت سُنة الله ألا يعان طالب المعالي ما دام في طريقها، فإذا وصل ادَّعىٰ كل من حوله أنهم كانوا رفاقه أثناء المسير.

النموذج الثالث: عبد الرحمن السعدي (١٣٠٧-١٣٧٦هـ):

مجمل سيرته:

هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي من بني العنبر، من بني عمرو، أحد أفخاذ بني تميم، وأخواله هم آل عثيمين من الوهبة من بني تميم.

ولد في عنيزة القصيم في الثاني عشر من شهر محرم، سنة سبع وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية المباركة، عاش يتيم الأب والأم، توفيت أمُّه حين كان في الرابعة، وتوفي والده بعدها بثلاث سنوات، وكان والده من طلبة العلم، وحملة كتاب الله.

حفظ الشيخ القرآن ولم يجاوز الثانية عشرة من عمره، فلما أتمَّ حفظه عن ظهر قلب وأتقنه تلاوة وتجويدًا اجتهد في طلب العلم علىٰ مشايخ بلده، ومن يرد إليها، فقرأ عليهم وتعلَّم، وكان يشجعه علىٰ هذا كله شقيقه الأكبر حمد.

تأثَّر الشيخ بتنوُّع شيوخه، فشيخه علي بن ناصر بن وادي رحل للهند، وأجازه الشيخ صديق حسن القنوجي، والشيخ نذير حسين. وقد تتلمذ الشيخ علىٰ

= وقد أحصىٰ الباحث الدكتور مسعود فلوسي ما كتب عن الجمعية من كتب ورسائل وبحوث، ووجدها نحو ١٣٧ عملًا.

الشيخ محمد الأمين فال الخير الحسني الشنقيطي (ت: ١٣٥١هـ) مؤسِّس مدرسة النجاة في الزبير واقتبس منه طرائق في تدريسه.

والشيخ ممن جمع الله له بين التدريس والتأليف، وقد بارك له في مؤلَّفاته حتىٰ زادت علىٰ التسعين مؤلَّفًا ما بين مطوَّل ومتوسِّط ومختصر، وقد دفع الشيخ ثمن استقلاله العلمي وبعده عن التقليد في بعض المواقف[١]، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ ليلة الخميس الثالث والعشرين من جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٧٦هـ[٢].

مشروعه القرآني:

للشيخ مصنفات قرآنيَّة سيَّارة، لا زالت مندرجة في سلم العلوم بكثير من مدارس التعليم في العالم الإسلامي.

ومن أشهرها (**تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**)، واشتهر تخففًا باسم: تفسير السعدي، وهو جمع للمجالس العلميَّة التي كان يلقيها الشيخ بعد المغرب، وقد طُبع منه ملايين النسخ.

وقد بيَّن الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ سبب تأليف هذا التفسير بقوله: «لما كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطول خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مقصر يقتصر علىٰ حلِّ بعض الألفاظ اللغويَّة -بقطع النظر عن المراد- وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنىٰ هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه»[٣].

وقد شرع في تصنيفه وهو بعمر الثامنة والثلاثين.

الثاني: **القواعد الحسان لتفسير القرآن**:

وهو كتاب نافع جليل، ومن أهم الكتب المعاصرة في علوم القرآن،

---

(١) منها ما أعقب تأليفه لكتاب يأجوج ومأجوج، انظر القصة في (تاريخ من لا ينساه التاريخ)، لإسماعيل بن سعد بن عتيق، ص١١٣-١١٥.

(٢) أوسع تراجم الشيخ ما صُدر به (مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي)، (١/ ٦٥-٤٥٤)، دار الميمان.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص.٢٩

وطريقته أنه يبدأ بذكر القاعدة، ثم أمثلتها من القرآن، ثم يختم بالكلام عليها كلامًا واضحًا بيِّنًا، وجمع فيه ٧١ قاعدة.

الثالث: **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**:

وهو خلاصة لتفسيره السابق.

الرابع: **الدلائل القرآنيَّة في أن العلوم والأعمال النافعة العصريَّة داخلة في الدين الإسلامي**:

وهي رسالة تتضمن البراهين الدالَّة علىٰ أن الدين الإسلامي، وعلومه وأعماله وتوجيهاته، جمعت كل خير ورحمة وهداية وصلاح وإصلاح.

الخامس: **فوائد مستنبطة من قصة يوسف** عليه السلام:

وهو كتاب لطيف استنبط فيه الشيخ الفوائد من قصة يوسف، وهو مستقلٌّ غير مستلٍّ من تفسيره.

السادس: **المواهب الربانيَّة من الآيات القرآنيَّة**:

وهي رسالة نافعة تحتوي علىٰ فوائد سجلها الشيخ خلال قراءته للقرآن في شهر رمضان المبارك.

السابع: **معجزات القرآن المشاهدة**:

وهي مقالات نُشرت منها المقالة السادسة والسابعة والثامنة في مجموع مؤلفاته.

الثامن: **فتح الرحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن**، وغيرها مما اتصلت بسبب من القرآن[1].

مفتاح نبوغه:

بعد تأمُّل شخصَّيته، وتحليل سيرته، وجدت مفتاح نبوغ الشيخ عبد الرحمن هو «**تمليك الأدوات**».

---

(١) انظر: السابق، (١/ ٢٢٥-٢٨٥).

وقد هالني ما رأيته من أساليب نبويَّة حين تدارست كتاب العلم من صحيح البخاري أيام (الأمالي الفجريَّة)، سقاها الله وأعادها.

ومن الأساليب التعليميَّة النبويَّة في كتاب العلم وحده من البخاري ما يأتي:

١. أسلوب التمهيد التربوي والتهيئة الجذبيَّة للمتعلمين.

٢. أسلوب التودُّد والملاطفة والدعاء للمتعلِّمين.

٣. أسلوب الاستنصات وحسن السماع.

٤. أسلوب الوعظ التربوي.

٥. أسلوب الثناء والتشجيع للمحسن والذم والتحذير للمسيء.

٦. أسلوب رفع الصوت عند التعليم.

٧. الأسلوب اللفظي الإلقائي.

٨. أسلوب التعليم بضرب الأمثال.

٩. أسلوب مراعاة الفروق الفرديَّة.

١٠. أسلوب الكتابة في التعليم.

١١. أسلوب النموذج والممارسة.

١٢. أسلوب المناظرة والمحاورة.

١٣. أسلوب التدرُّج في التعليم.

١٤. أسلوب التعليم بالمراسلة.

١٥. أسلوب التبليغ والإلقاء (التلقين والتلقي).

١٦. أسلوب توزيع الدرس علىٰ فترات وتحديد وقت التعليم.

١٧. أسلوب استخدام الوسائل التوضيحية.

١٨. أسلوب الانفعال المنضبط والجدية عند التعليم.

١٩. أسلوب الرحلة العلمية.

٢٠. أسلوب التعليم الإيحائي بحركات الجسد كاليد والرأس.

٢١. أسلوب الفتيا والتوجيه.

٢٢. أسلوب الإعادة والتكرار في التعليم.

٢٣. أسلوب التساؤل والاستفهام.

٢٤. أسلوب التقويم التعليمي.

٢٥. أسلوب الترهيب[١].

تمليك الأدوات عند الشيخ السعدي:

يقول تلميذه الشيخ عبد الله بن عقيل: «طريقته في التدريس خلاف ما كان عليه المشايخ إذ ذاك، كان المشايخ إذ ذاك طالب العلم إذا أراد أن يقرأ بأي كتاب استأذن من الشيخ وجلس إليه وقرأ عليه من الكتاب، هذا فصل يبتدئ وينتهي، وربما تكلم الشيخ كلمة، كلمتين، أو نحو ذلك، فلما اجتمع الطلاب علىٰ الشيخ عبد الرحمن صار ما يتمكن يقرئ كل شخص في كتاب مستقلٍّ، واقترح عليهم أن يجتمعوا علىٰ كتاب واحد؛ إما في الفقه، أو في النحو، أو في العقيدة، أو في الحديث، ويكلِّفهم بحفظ المتن، ثم يشرع في الشرح، ويورد الأمثلة، ويحلِّل الخلاف، وكان يحثُّ الطلاب علىٰ الأسئلة بعد تمام الشرح من كل الجوانب»[٢].

ويقول حفيده: كان الجد رَحِمَهُ اللَّهُ يحبُّ التنويع في أساليب التعليم وشحذ أذهان طلابه للوصول إلىٰ أحكام المسائل العلميَّة، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يتقيَّد بأسلوب أو طريقة واحدة، بل كان يعدِّد الأساليب علىٰ غير عادة أهل نجد ذلك الوقت.

---

(١) انظر: مجلة جامعة أم القرىٰ، ج١٥، ع٢٧، جمادىٰ الثانية ١٤٢٤هـ، بحث الدكتور: علي الزهراني (الأساليب التعليمية المستقاة من تراجم الإمام البخاري علىٰ أحاديث كتاب العلم في جامعه الصحيح).

(٢) بتصرف من محاضرته، (الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي كما عرفته).

فمن الطرق التي كان يتبعها رَحِمَهُ اللَّهُ طريقة التعليم التعاوني، وهي تقسيم الطلاب إلىٰ فرق ومجموعات عمل، كل فرقة تبحث مسألة علميَّة واحدة، وكان لكل مجموعة رئيس تسمَّىٰ به، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يجمع إجاباتهم في بحث واحد، وقد اطَّلعت علىٰ نموذج من هذه البحوث العمليَّة بعنوان: (تذكرة أولي الألباب في ذكر السؤال والجواب مرتب في الفقه علىٰ الأبواب من أجوبة أصحابنا الأنجاب)[1].

ولعلك تلحظ ما في التسمية من تشجيع، وتمليك لأدوات العلم.

ومن أساليب الشيخ في تمليك الأدوات:

١. التدرُّج في التعليم:

والبداية بالأهمِّ فالأهمِّ، وعدم مراكمة العلوم بعضها علىٰ بعض، قال موضحًا هذه الطريقة ومبيِّنًا نفعها: «ومن الحكمة ألا يلقىٰ علىٰ المتعلِّم العلوم المتنوعة التي لا يحتملها ذهنه، أو يضيع بعضها بعضًا، واتَّفق أهل المعرفة بطرق التعليم أن هذا ضارٌّ ومفوِّت للعلم، وأن الطريق الأقرب أن يجعل للمتعلِّم من الدروس ما يسهل عليه حفظها وفهمها»[2].

٢. التشجيع علىٰ حفظ المتون:

وقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ في بيانه لأثر الحفظ وفائدته: «ليجتهد طالب العلم في حفظ مختصرات الفن الذي يشتغل به . . . فلو حفظ طالب العلم العقيدة الواسطيَّة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وثلاثة الأصول وكتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي الفقه مختصر الدليل[3] ومختصر المقنع، وفي الحديث بلوغ المرام، وفي النحو الآجروميَّة، واجتهد في فهم هذه المتون وراجع عليها ما

---

(١) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (١/ ١٧٨ وما بعدها)

(٢) السابق، (١/ ١٨٤).

(٣) يعني: دليل الطالب للشيخ مرعي الكرمي (ت: ١٠٣٣هـ).

تيسَّر من شروحها أو كتب فيها فإنها كالشروح لها، لأن طالب العلم إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامَّة في معرفتها، هانت عليه كتب الفن كلَّها الصغار والكبار، ومن ضيع الأصول حرم الوصول»[1].

وقد قرَّر الشيخ في دروسه حفظ أغلب هذه المختصرات التي ذكرها. قال صاحب سيرة العلامة السعدي: «وكان في بعض الأحيان يقدِّم المكافآت لمن يحفظ منهم المتون تشجيعًا لهم ولسواهم من زملائهم، وكل من ثبت حفظه لديه سلَّمه المكافأة المقررة».

٣. توضيح المسائل العلميَّة وتقريبها:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصًا علىٰ تقريب المسائل لأذهان المتعلمين وتصويرها وشرحها، مما يجعلها واضحة لا لبس فيها ولا غموض، وقد قال في هذا المعنىٰ: «ينبغي سلوك الطريق النافع عند البحث تعلُّمًا وتعليمًا، فإذا شرع المعلِّم في مسألة وضَّحها وأوصلها إلىٰ أفهام المتعلِّمين بكل ما يقدر عليه من التعبير وضرب الأمثال والتصوير والتحرير».

وقد بيَّن الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ أنه تأثَّر بطريقة شيخه هذه حيث قال: «إنني تأثَّرت به كثيرًا في طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

٤. مناقشتهم ومذاكرتهم بما مضىٰ:

كانت طريقة الشيخ في تدريسه لطلابه ألا ينتقل من مسألة إلىٰ أخرىٰ إلا بعد ضبط السابقة ومذاكرتها مع تلاميذه وتأكده من رسوخها، وقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الطريقة: «ينبغي تعاهد محفوظات المتعلِّمين ومعلوماتهم بالإعادة والامتحان والحثّ علىٰ المذاكرة والمراجعة، والإعادة بمنزلة السقي لها وإزالة الأشياء الضارة عنها لتنمو وتزداد علىٰ الدوام».

---

(١) السابق، (١/ ١٨٤).

وقال أيضًا: «ينبغي ألا ينتقل المعلِّم من نوع من أنواع المسائل إلىٰ نوع آخر حتىٰ يتصور ويحقِّق السابق، فإنه درك للسابق وبه يتوفَّر الفهم علىٰ اللاحق، فأما إذا أدخل المسائل والأنواع بعضها ببعض قبل فهم المتعلِّم، فإنه سبب لإضاعة الأول، وعدم فهم اللاحق، ثم تتزاحم المسائل التي لم يحقِّقها علىٰ ذهنه، فيملها ويضيق عَطَنُهُ عن العود إليها، فلا ينبغي أن يهمل هذا الأمر».

وقال تلميذه القاضي عن استخدامه لهذه الطريقة في تدريسه: «كان يجمع الطلبة كلهم علىٰ كتابين واحدًا بعد آخر، وبعد انتهاء الجلسة يطلب من ثلاثة منهم إعادة ما يستحضره من التقرير . . . ويناقشهم بعد يوم عما مضىٰ، فكانت فائدته عظيمة، ويهتمون إذا علموا بالإعادة والبحث عما قرره عليهم».

٥. تغليط نفسه أمامهم لاختبارهم:

يقول تلميذه القاضي: «وكان يطرح المسائل علىٰ الطلبة ليختبر أذهانهم ويتعمد أحيانًا تغليط نفسه أمام الحلقة؛ ليرىٰ من هو حاضر الذهن لتقريره ممن هو شارد الذهن، ولمعرفة النجيب الفطن من ضده، وتلامذته قد عرفوا منه ذلك».

٦. عقد المناظرات بين طلابه:

كان الشيخ مولعًا بالمناظرات سالكًا لها، سواء في تأليفه أو تدريسه، وقد بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أهدافها وآدابها وثمراتها.

وقد سلك هذه الطريقة مع تلاميذه لتقوية مداركهم، وتثبيت معارفهم. قال صاحب سيرة العلَّامة السعدي: «ومن ميِّزاته وشفوف نظره رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان يعقد مناظرات بين طلابه المحصلين؛ لشحذ أفكارهم وصقل أذهانهم، وتدريب ألسنتهم وتعويدهم إقامة الحجَّة والبرهان.

٧. وضع الجوائز للمتفوِّقين:

لقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ من حرصه علىٰ إفادة التلاميذ أن جعل للمتفوقين منهم

والمجيبين عن الأسئلة التي يلقيها عليهم الجوائز القيِّمة؛ تشجيعًا لهم، وترغيبًا لغيرهم، وإظهارًا لتفوقهم ونبوغهم.

جاء في سيرة العلَّامة السعدي في وصف تدريسه لطلابه: «وكان في بعض الأحيان يقدِّم المكافآت لمن يحفظ منهم المتون؛ تشجيعًا لهم ولسواهم من زملائهم، وكل من ثبت حفظه منهم لديه سلَّمه المكافأة المقرَّرة.»

وقال القاضي في ترجمته للشيخ: «ويعطي الجوائز علىٰ حفظ المتون وقوة الفهم . . . والجواب عن أسئلته التي يوردها عليهم».

٨. طرق تعليمه العامة:

وضَّح رَحِمَهُ اللَّهُ مجالات نفع العامة، وبيَّن أنهم يختلفون عن غيرهم، ووجَّه طلبة العلم إلىٰ سلوك هذه الطرق؛ لنفع الناس وتوجيههم، ومن هذه الوسائل:

النصائح الخاصَّة بالأشخاص باختلاف رتبهم، من رآه مقصِّرًا في واجب من واجبات الله وحقوق الخلق نصحه سرًّا وعلَّمَهُ الواجب، ومن رآه متجرئًا علىٰ محرم متعمِّدًا أو جاهلًا نصحه ووعظه وبيَّن له الوجهة التي يجب عليه سلوكها، فكم حصل بهذه الطريقة من تعليمٍ للجاهلين وإرشاد للغافلين وتوجيه للخير للمعرضين أو المعارضين. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من المطبِّقين لهذه الأساليب السالكين لجميع الطرق التي فيها نفع للعامة، وكان كثير المجالسة لعامَّة الناس، بل ربما دوَّن مواعيد جلساته مع العامة عند أحد تلاميذه، وإذا جلس في المجلس حدَّث الناس بما يفيدهم دون مضايقة لأحد أو قطع لحديث، ليتكلم كلُّ شخص بما يناسبه.

وكان قد أوصىٰ أحد تلاميذه أن يطرح عليه سؤالًا إذا رأىٰ أن أمور الدنيا قد طغت علىٰ المجلس؛ ليتمكن من خلاله من إفادة الحاضرين وقَلْبِ المجلس إلىٰ مجلس علمٍ وخيرٍ دون قطع للمجلس أو إثارة للحاضرين[1].

(١) مجموع مؤلفاته، (١/ ١٧٨-١٨٨).

النموذج الرَّابع: محمد عبد الله دراز (١٣١٢-١٣٧٧هـ):

مجمل سيرته[١]:

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن حسنين بن مصطفىٰ بن مصطفىٰ بن مصطفىٰ بن أحمد بن محمد بن دراز بن سليمان، ينتسب للحسن بن علي رضي الله عنهما وعليه السلام، وُلد في الثامن من نوفمبر ١٨٩٤هـ بقرية (محلة دياي) من أعمال دسوق محافظة كفر الشيخ، وهو من أسرة علم، كان جدُّه الشيخ محمد والشيخ أحمد ووالدهما الشيخ حسنين من أصحاب الدروس في المسجد العُمري، أما والده الشيخ عبد الله دراز فهو شيخ علماء دمياط في زمانه، وهو صاحب التعليقات النفيسة علىٰ موافقات الشاطبي[٢].

فاقتبس الفتىٰ الناشئ من فضائل والده المروءة والشهامة، وحبَّ العلم والصلاح، وتفتَّحت عينه علىٰ زملاء أبيه يغشون منزله كل ليلة لدراسة كتب العلم والحديث في مسائل الإصلاح الديني. وكان الوالد العالم المحقِّق يأخذ أبناءه بآداب التقوىٰ، ويَؤُمُّ أهله في صلاتي العشاء والفجر، ويقرأ صحيح البخاري في ليالي رمضان، ويسهر علىٰ تثقيف أولاده وتعويدهم سنن الخير صلاةً وصيامًا وزكاةً، وحبًّا للمعروف[٣].

---

(١) عُمدة ما سُطر في سيرته قائم علىٰ كتابات الشيخ: أحمد مصطفىٰ فضلية، وهو جامع تراثه، والمتخصص في دقائق ترجمته، وأوسعها: (الإمام المجدد محمد عبد الله دراز، سيرة وفكر)، في نحو٥٦٠ صفحة، ومقدمات كتبه التي نشرها له فيها ملخصات لترجمته أفدت منها بتصرف وترتيب، وقد أحسن بجمعه ما لن تناله أيدينا من أوراقه الخاصة ومواقفه العائلية، وإن كان في بعض جمعه يفتقد الخيط الناظم بين المقالات المضمنة نفس الكتاب.

(٢) وقد خرّج أحاديثه ابنه محمد مع الشيخ محمد أمين عبد الرازق، وهذا الاشتغال الحديثي المبكر للابن محمد كان له أثره في تفكيره ومعارفه بعد ذلك.

(٣) «الإمام المجدد محمد عبد الله دراز، سيرة وفكر، ص ٤٠.

تعليمه[1]:

لهذه النشأة أثرها في توجيه الشيخ وجهة التعليم الديني، فأتمَّ حفظ القرآن وهو دون العشر سنين، ثم انتقل إلىٰ الإسكندرية في أوائل ١٩٠٥م، حيث التحق بمعهدها الناشئ (في معية المرحوم والده الذي كان وقع عليه اختياره من قبل أستاذه محمد عبده لتأسيس الدراسة الأزهريَّة النظاميَّة في الثغر السكندري). فكان الشيخ محمد من أوائل الطلبة المنتسبين إلىٰ هذا المعهد، ونال منه الشهادة الابتدائيَّة بعد أربع سنوات ١٩٠٨م. وحين عُيِّن والده وكيلًا لمشيخة معهد طنطا انتقل الشيخ في صحبة والده إلىٰ الجامع الأحمدي، ونال منه الشهادة الثانويَّة عام ١٩١٢م، وكان أول الناجحين. وحين عاد والده وكيلًا لمشيخة معهد الإسكندرية عاد معه إلىٰ المعهد الذي نشأ فيه، فقضىٰ القسم العالي، وحصل في نهايته علىٰ شهادة العالميَّة في الأزهر، وكان أول المتخرِّجين من الطلاب جميعًا في ١٩١٦م، وعُيِّن في المعهد ذاته بعد تخرُّجه، ثم اتجه لتعلُّم اللغة الفرنسيَّة في المدارس الليليَّة حتىٰ نال شهادة القسم العالي فيها بعد ثلاث سنوات ١٩١٩م، وكان ترتيبه الأول فيها أيضًا، وفي الدفاع عن الحقائق الإسلاميَّة بالردِّ علىٰ جريدة (الطان) الفرنسيَّة وغيرها علىٰ صفحات جريدة (وادي النيل). هذا ولم يكن تعلُّمه للغة الفرنسيَّة من باب الترف، أو شغل الوقت، بل كان يُعِدُّ نفسه لليوم الذي تطأ فيه قدمه أرض الغرب لنشر الإسلام وإعلاء دعوته.

يقول صهره الدكتور السيد محمد بدوي: «لمست عن كثب الجهود والخطط التي رسمها الشيخ منذ أمد بعيد لنشر رسالة الإسلام في العالم الغربي، فعرفت أنه أتقن الفرنسيَّة إبان طلبه للعلم في الأزهر الشريف؛ استعدادًا لهذا اليوم الذي يقوم فيه بواجبه العلمي والديني».

---

(١) مقدمة من روائع التفسير ص٢٢-٤٤ بتصرف

رحلته العلمية إلىٰ فرنسا:

في عام ١٩٣٦م اختير محمد عبد الله دراز لبعثة أزهريَّة إلىٰ فرنسا، وتمَّ اختياره رئيسًا للبعثة لما كان يتمتَّع به من رجاحة عقل ودماثة خُلُق، وقد وجه الإمام الأكبر محمد مصطفىٰ المراغي (١٨٨١-١٩٤٥م) خطابًا لأبناء البعثة يذكِّرهم برسالتهم تجاه الإسلام ودعوته، ويبيِّن لهم أنهم ذاهبون في فتح إسلامي، وكان مما قاله رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا كان رجال السياسة لا يُحْجِمُون عن فتح البلدان وسفك الدماء بدعوىٰ تمدين هذه البلدان، فكيف يتوانىٰ رجال الدين عن فتح سلميٍّ لا يُسفك فيه دم ولا يُطعن فيه برمح، وما هي إلا موعظة حسنة، ونصيحة الله ورسوله، وإرشادًا إلىٰ الفضائل والخير، أرسلكم الأزهر وهو ينتظر وقلبه يخفق وأنا واثق من أنكم ستكونون بهديكم بقولكم وأعمالكم وسمتكم أحسن الأمثلة لخريجي الأزهر الشريف، وستكونون بجدكم في تحصيل العلم، وتفهُّم الأساليب ومعرفة طرق البحث ودراسة العقليات الغربيَّة من المجاهدين والصابرين».

وقد حمل الشيخ الأمانة ووفىٰ بها أعظم وفاء، وما إن وطئت قدمه أرض فرنسا حتىٰ بدأ في تحقيق هدفه، ولم يلجأ إلىٰ التحضير لدرجة الدكتوراه بدايةً علىٰ الرغم من إتقانه الفرنسيَّة، بل سلك الطريق من بدايته فالتحق بالسوربون للتحضير لدرجة الليسانس، ودرس الفلسفة والمنطق والأخلاق، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وبدا أثر ذلك في تكوينه العلمي والفلسفي، مما مكَّنه من الاطلاع علىٰ الفلسفة الغربيَّة وتوجيه الخطاب إلىٰ العقلية الغربيَّة.

ويذكر الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ اللَّهُ في ثبات دراز علىٰ العقيدة والمبدأ «أن الشيخ في رحلته إلىٰ فرنسا أوتي حظًّا عظيمًا من عِلم أوروبا، فكان العالم بما عند الأوروبيين، وما طغىٰ في قلبه علم هذه الدنيا علىٰ علم الإسلام، ولا تلك الحضارة البرَّاقة علىٰ حقيقة الإيمان، وما بهرته زخارف هذه المدنية عن الثروة الروحيَّة التي اشتملت عليها الحقائق الإسلاميَّة، ولا عن تلك الذخيرة الإنسانيَّة التي اشتملت عليها أحكام القرآن المقرَّرة الثابتة الباقية الخالدة إلىٰ يوم القيامة.

ولقد فارقنا الدكتور محمد عبد الله دراز إلىٰ أوروبا كما فارقنا غيره، وأقام في فرنسا ما شاء الله له أن يقيم، وكانت إقامته أكثر من إقامة غيره أمدًا، وكانت أوفر إنتاجًا، فقد أقام فيها نحو اثنتي عشرة سنة نال فيها أعلىٰ الدرجات العلميَّة هنالك.

ولقد عاد بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة المجهدة، وتوقَّعنا أن نجد تغيُّرًا في مظهره أو ملبسه أو عاداته، أو تدينه كما رأينا في بعض من أقاموا إقامته، ولكنا وجدناه كما تركنا خُلقًا ودينًا وإيمانًا، فأثبت بذلك سلامة جوهره؛ لأن جيد المعادن تجلوه التجارب وتصقله الحوادث من غير أن يفنىٰ ويبلىٰ، ولقد ازداد استمساكًا بدينه، وتشدُّدًا فيه، فزاد بهاء ونورًا وجلالًا».

شيوخه:

طلب الدكتور محمد عبد الله دراز العلم علىٰ عدد وافر من أساطين العلم في الأزهر الشريف، فنهل من علمهم وارتوىٰ من معين حكمتهم وأدبهم، حتىٰ أصبح له مكانة سامقة بين أساتذته وعلماء عصره. وشيوخ الدكتور دراز من علماء مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي وأعلامها، فتأثَّر بالشيخ محمد عبده أستاذ والده الشيخ عبد الله دراز، وهو شيخه الأول الذي أخذ العلم عنه وتأدَّب بأدبه، وتأثَّر بالشيخ رشيد رضا، ومحمد مصطفىٰ المراغي، وعبد المجيد سليم.

ومن أشهر العلماء الذين تتلمذ علىٰ أيديهم تلمذة مباشرة والده الشيخ عبد الله دراز (١٢٩٠-١٣٥١هـ)، والشيخ محمد الخضر حسين (١٨٧٧-١٩٥٨م)، والشيخ إبراهيم الجبالي والشيخ علي سرور الزنكلوني، والشيخ محمود أبو دقيقة[1]، والشيخ علي إدريس والشيخ محمد شاكر، والشيخ محمد الديناري، والشيخ عبد المجيد اللبان -رحمهم الله جميعًا-.

---

(١) يرى الباحث الدكتور: خليل اليماني أن الشيخ محمود أبو دقيقة هو أول من ألف في علوم القرآن على نسق اهتم فيه بالصنيع الجمعي لعلوم القرآن باعتباره علمًا، انظر: (علوم القرآن نقد العملية ومقاربة في البناء ص١١٩).

وهؤلاء الكبار درس دراز علىٰ أيديهم، وتتلمذ في حلقاتهم، ونهل من علمهم وفضلهم، وتأثَّر بصفاتهم وأخلاقهم وسلوكهم؛ لأنهم كانوا يجمعون بين العلم والعمل، وصدرت منهم المواقف الشجاعة والرجولة الكاملة في الحياة العلميَّة والعمليَّة؛ فاتسموا بالجرأة في الحقِّ والصلابة في الدين، والوقوف عند حدود الله لا يخافون في الله لومة لائم، فكان محمد عبد الله دراز ثمرة صالحة لمربين صالحين.

وظائفه:

- عُيِّن مدرِّسًا بمعهد الإسكندرية واستمرَّ بها حتىٰ ١٩٢٨م.

- انتقل إلىٰ القاهرة في ١٩٢٨م؛ حيث اختاره المرحوم الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفىٰ المراغي شيخ الأزهر للتدريس في القسم العالي بالأزهر، ثم في قسم التخصُّص عام ١٩٣٩م، ثم في الكليَّات الأزهريَّة الناشئة ١٩٣٠م، مع أساتذته الكبار محمد الخضر الحسين، وعلي محفوظ، وإبراهيم الجبالي، ولم يكن محمد عبد الله دراز بأقلَّ منهم كفاءةً واقتدارًا علىٰ حداثة السن، بل كان أقرب منهم إلىٰ قلوب الطلاب؛ لحسن تواضعه وقرب اتصاله بشباب لا يزيد عنهم في الزمن أمدًا ذا بال.

وبعد عودته من باريس إلىٰ مصر عام ١٩٤٨م؛ نُدِبَ لتدريس تاريخ الأديان بكلية الآداب في جامعة القاهرة.

ثم لتدريس التفسير بكليَّة دار العلوم، وتدريس فلسفة الأخلاق في كليَّة اللغة العربيَّة، ومحاضرات في كليَّة البوليس.

وخلال مكث فضيلته في مصر أُسْنِدَ إليه العمل في كثير من اللجان، بالإضافة إلىٰ قيامه بالتدريس بالجامعات، ومن ذلك:

١. العمل في اللجنة السياسيَّة للتعليم بوزارة التربية والتعليم.

٢. العمل في المجلس الأعلىٰ للإذاعة بقرار مجلس الوزراء الصادر في ١٤/ ١٢/ ١٩٥٥م.

٣. العمل في اللجنة الاستشارَّية للثقافة بالأزهر.

٤. عضويَّة اللجنة الاستشاريَّة بالأزهر

٥. مراقبة الامتحانات العامَّة في الأزهر.

إلىٰ جانب اختياره في المؤتمرات الدوليَّة والعلميَّة ممثِّلًا لمصر والأزهر الشريف، منها:

أ. مؤتمر الأديان العالمي في باريس في سنة ١٩٣٩م.

ب. المؤتمر الدولي للجامعات في مدينة نيس بفرنسا بين ٤ و١٠ ديسمبر ١٩٥٠م، وقدَّم فضيلته للمؤتمر بحث (الأزهر الجامعة القديمة الحديثة) باللغة الفرنسيَّة، الذي ترجمه فضيلته للعربيَّة بعد ذلك.

ج. مؤتمر القانون الإسلامي المنعقد بباريس في شهر يوليو سنة ١٩٥١م، وقدَّم فيه فضيلته بحثه القيِّم (الربا في نظر القانون الإسلامي) باللغة الفرنسيَّة، ثم ترجمه للغة العربيَّة بعد ذلك.

د. مؤتمر الثقافة الإسلاميَّة الذي انعقد في لاهور بباكستان في ٦ يناير ١٩٥٨م، وقدَّم فيه بحثه (موقف الإسلام من الأديان الأخرىٰ وعلاقته بها)، وشاء الله أن يلقيه غيره حيث وافته المنية أثناء المؤتمر -رحمه الله وجزاه عنا خيرًا-[1].

صفاته وأخلاقه:

من أبرز صفاته الشخصيَّة الفطنةُ والذكاء، والحلم والأناة، والتواضع والوداعة والوفاء، والجرأة والصلابة بالحقِّ والإقدام، ومواقفه شهيرة في نشر رسالة الإسلام والعمل علىٰ تبليغها في عالم الغرب.

---

(١) وقد روى الشيخ محمد أبو زهرة -وهو ممن رافقه في الساعات الأخيرة قبل وفاته- أن آخر ما نطق به الشيخ دراز قوله: (يارب إن كنت راضيًا عني لا أبالي) [انظر كتاب: الإمام المجدد محمد دراز سيرة فكر ص٢٦٠].

وعرف فضيلته بلباقته في الحديث، ولين العريكة في المعاملة، وحدبه علىٰ مرافقيه، فهو الصديق الوفي عند النوائب، والشهم الشجاع في الملمات، والمخلص المنجد عند الشدائد، ولهذا كان حبيبًا إلىٰ كل من عرفه ورافقه.

يصفه صديقه الحميم الشيخ حسنين محمد مخلوف بقوله: «أخي، الذي طالما تمتَّعت بأخوته، فكان مثالًا للأخوة الصادقة التي هي جديرة بكل اعتزاز . . . والعالم الفذ الذي كان يجمع مع العلم الموثوق به السجايا الحميدة، والأخلاق الفاضلة والرجولة الكاملة والشجاعة الأدبية النادرة والإنسان المثالي، الذي كان رقيق العاطفة نبيل الإحساس لطيف الشعور، وكان مثالًا للهدوء في إباء، وللسكينة في تواضع، وللحياء في أدب جم . . . والمسلم العامل الذي كان يعمل للإسلام في صمت، ويبذل في سبيله الكثير من وقته وصحته وراحته، غير ضان ولا متخلف، وحسبه أنه مات غريبًا في سبيل الإسلام فنال الشهادة التي كان جديرًا بها وأهلًا لها»[1].

مشروعه القرآني:

للشيخ مصنفات قرآنيَّة منوعة، منها ما حرَّره بنفسه، ومنها ما جُمع له بعد وفاته:

الأول: **النبأ العظيم**: كتاب عالج فيه الشيخ «مصدريَّة القرآن»، وهو نسق جديد في عرض الحجج، وتراتبها المنطقي، وقد نفع الله به فئامًا من الخلق في تثبيت اليقين.

الثاني: **مدخل إلىٰ القرآن الكريم**: وهو رسالته للماجستير، اهتمَّ فيه بالتعريف بالقرآن المنوط بهذه الرسالة وصاحبها ﷺ، وحياته قبل البعثة، وملابسات حياته أثناء بدء الوحي، ثم كيفية إبلاغها للناس كافة، وهو متكامل مع النبأ العظيم ومتمِّمٌ له.

---

(١) من روائع التفسير، ص٤٤.

الثالث: **دستور الأخلاق في القرآن**: وهو رسالة للشيخ للدكتوراه من السوربون، وقد كتبها في ست سنوات، ونوقشت في ١٥/١٢/١٩٤٧م، ترجمها الدكتور عبد الصبور شاهين، وله ترجمة أخرى للأستاذ: محمد عبد العظيم علي، وفيه تنظير وتطبيق لمسائل علم الأخلاق مستمدة من القرآن، وتحدَّث فيه عن: الإلزام، والمسؤوليَّة، والجزاء، والنية والدوافع، والجهد، وختمه بسرد مبوَّب لآيات الأخلاق في القرآن.

الرابع: **من روائع التفسير**: وهو كتاب جمعه الشيخ أحمد مصطفىٰ فضليَّة، ورتَّبه علىٰ عشرة أقسام.

الخامس: **من خُلق القرآن**: وأصله أحاديث إذاعيَّة أذيعت في راديو القاهرة، جمعها عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وطبع بقطر عام ١٣٩٩هـ

الخامس: **التفسير الإذاعي**: وهي أطروحة ماجستير للباحثة الجادة الدكتورة دعاء أبو زيد، وكتابها هذا يغني عن بعض الكتب السابقة، وفيه جمع لتفسير الشيخ دراز الإذاعي، أعقبته بقسم تحليليٍّ حسن، والكتاب في نحو ٩٠٠ صفحة.

مفتاح نبوغه:

بعد تأمُّل شخصيَّته، وتحليل سيرته، وجدت مفتاح نبوغ الشيخ محمد هو «**التأصيل القرآني**».

التأصيل القرآني عند الشيخ دراز:

كان الشيخ أحقَّ أهل عصره بوصف (المفكر القرآني)، وما انقطع عن القرآن والصلة به والاستهداء بأنواره طوال حياته، يقول محمد رجب البيومي: «لقد عاش الدكتور دراز حياته مؤمنًا مفكرًا، وقد ورث عن والده شغفه بكتاب الله[1]، فأخذ عنه ضرورة التلاوة لستة أجزاء من كل يوم، وقراءة مفكر مثله لهذا

(١) روي أن والده كان يتلو ثلث القرآن يوميًّا.

الجزء اليومي، لا بدَّ أن تفتح عليه بما يضيء بصيرته، ويمدُّه بأوفر الزاد الشهي»[1].

ومن كان موصولًا بالقرآن أمطرته هداياته، فأعشب منطقه، وصحَّ منطلقه، ولقد تأمَّلت في تنويعات الشيخ في خطابه الفكري القرآني وأثره في تحصين الشباب آنذاك وحتىٰ اليوم، فوجدته مولعًا بالتجديد، يفعله ولا ينطق به كثيرًا، وهذه عادة المصلح الحقيقي، يطحن دون جعجعة، ومن مظاهر استهداءاته الفكرية القرآنيَّة:

أولًا: الاتساق المنهجيُّ:

لهذا المسلك أثره الحسن، فالمفكر حين يربط المعارف الشرعيَّة بالمناهج التي استقرَّ تعظيمها في النفوس، فإنه يصبغ الحقَّ بالموثوقيَّة، ويوثِّدها بما يرسِّخها ويعمِّقها، والدكتور دراز في كتابه (دستور الأخلاق في القرآن) يؤسِّس لعلم الأخلاق القرآنيَّة، ففي هذا الكتاب ترىٰ نَفَس الشيخ المفكر الذي يبني أطروحاته علىٰ منهجيَّة راسخة، يقول: «واتبعنا أخيرًا نظامًا منطقيًّا بدلًا من التزام نظام السور الذي تبعه الإمام الغزالي، أو النظام الأبجدي للمفاهيم كما فعل جول لابوم[2]، فالنصوص في عملنا مجمعة في فصول، بحسب نوع العلاقة التي سيقت القاعدة لتنظيمها»[3].

ثانيًا: التجديد في عرض الحجج القرآنيَّة:

وهذا الذي نراه جليًا في كتابه النبأ العظيم[4]، خاصَّة في مباحث مصدريَّة

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، (٢/ ٢٥٥).

(٢) المستشرق الفرنسي صاحب كتاب (تفصيل آيات القرآن الحكيم).

(٣) دستور الأخلاق، ص٩-١٠.

(٤) لكتاب النبأ العظيم تكملة نُشرت ضمن كتاب (حصاد قلم)، وهي مقالة بعنوان: القرآن في جملته، ص٢١-٢٢، وقد نصَّ الشيخ دراز علىٰ هذا فقال (ص١٧٤ من ط. الشيخ عمرو الشرقاوي): «والآن فلنبدأ وصفنا لبعض خصائص القرآن البيانيَّة، ولنرتبها علىٰ أربع مراتب:
١. القران في قطعة قطعة منه. =

القرآن؛ فالشيخ تألَّق في عرض الحجج بتراتب منطقي مقنع، فناقش: إقرار النَّبي محمد ﷺ أن القرآن ليس من عنده، وقلَّب الاحتمالات، وأسقط الهش، وأبقىٰ الحقَّ، ثم عرج علىٰ وجود معاني في القرآن لا تستنبط بالعقل؛ كوقائع التاريخ التي حكيت عن الأمم السابقة، وثنَّىٰ بذكر الحقائق الدينيَّة الغيبيَّة، وثلَّث بأنباء المستقبل الجازمة التي وقع تأويلها[1].

والملحوظ في بناء الشيخ للأفكار أنَّه يقلب أدلة الخصوم عليهم، فتراه يجعل تنجيم القرآن وأمِّيَّة النَّبي ﷺ وتنوُّع مواضيع الآيات دلائل صدقٍ مصدريَّة القرآن، وإن اتخذها من لا يدرك مطعنًا.

ثم أتىٰ للحجج المتضمَّنة في المفردة والآية والسورة، وخصائص اللغة، والنظام الصوتي والجمال التركيبي والبيان العالي، فأحسن تبيانها.

ثالثًا: الانطلاق من الكليِّ لترسيخ أصل اليقين، ومن الجزئِّي إلىٰ الكليِّ لتثبيت كماله:

المفكِّر القرآنيُّ ينطلق من الكليِّ إلىٰ الجزئيِّ؛ ليبرهن علىٰ الاتساق القرآني حين يحاج المخالف، وينطلق من الجزئيِّ؛ لتشييد الكليِّ عند مخاطبة الموافق، وهذا ما نلحظه في أطروحات الشيخ دراز، فقد اهتمَّ بالوحدة الموضوعيَّة للآيات والسور، وهذا المسلك أراه أجلب للهدايات، وأقرب للإقناع والتأثير، فالمفكِّر يُؤطِّر ولا يُحدِّد، ويفرغ مُنته في حراسة الحدود العامَّة، ويدع التفاصيل الجزئيَّة لأهل الإيمان واليقين، والمجرِّب يجد أنَّ مَن أمسكَ الجذور سلمتْ له شجرة إيمانه، ولو تحاتتْ أوراقها من عاصفة شبهات عابرة.

= ٢. القران في سورة سورة منه.
٣. القران فيما بين بعض السور وبعض.
٤. القرآن في جملته».
قلت: وهذا الفصل الأخير (القرآن في جملته) لم ينشر في أي طبعات الكتاب التي اطلعت عليها، وإنما في (حصاد قلم)، والمقال مقتضب علىٰ غير عادة الشيخ ونسقه في النبأ.

(١) انظر: مقدمة الشيخ عمرو الشرقاوي لنشرته من (النبأ العظيم)، ص٣١-٤٧.

يقول الشيخ في سياق الانطلاق من الكليِّ الذي يفضي إلىٰ معالجة الجزئيِّ: «ولكن أي ضمان تاريخي يستطيع أن يتحصَّل عليه الإنسان عند وضع مثل هذه الخطَّة إزاء الأحداث المستقبلة ومتطلباتها التشريعيَّة، والحلول المنشودة لها، فضلًا عن الشكل اللغوي الذي يجب أن تقدَّم به هذه الحلول، وتوافقها الأسلوبي مع هذه السورة بدلًا من تلك وكيف يمكن مجرد تجميع وتقريب هذه القطع المبعثرة بعضها من بعض بدون تعليل أو لحام أو وصلات -رغم تنوُّعها الطبيعي وتفرُّقها التاريخي- أن يجعل منها وحدة عضويَّة متجانسة يتوافر فيها ما نرجوه من التماسك والجمال؟ ألا يصدر هذا المشروع -وقد بلغ هذا المبلغ من الطموح- إلا عن حلم خيالي، أو عن قوَّة تَفُوق قدرة البشر؟ وبمعنىٰ آخر إذا كان الاضطراب في النظام المنطقي أو الخلل اللغوي والبلاغي هما النتيجة الحتميَّة لمثل هذا المشروع إذا اضطلع به الإنسان؛ لما يشتمل عليه من تعقيد محيِّر، ألا ينبغي أن نستنتج من هذه المقدِّمات ذاتها أن اكتمال هذه الخطَّة وتحقيقها بالصورة المرجوة يتطلَّب تدخلًا من قوَّة عظمىٰ، تتوفَّر فيها القدرة علىٰ إقامة مثل هذا التنسيق المنشود؟ وإلا فمَن هو المخلوق الذي يستطيع أن يوجِّه الأحداث بما يتوافق تمامًا مع هذا التصميم المرسوم؟ أو كيف يمكن أن نخرج من مجموعة مصادفات بمثل هذا البناء الأدبي الرفيع؟»[1].

وهو الذي قال: «فعندما نريد أن نقدر جمال لوحة مرسومة، لا ينبغي أن نحصر نظرتنا في جزء ضيِّق منها، حيث لا نجد إلا ألوانًا متنوعة تتجاور أو تتنافر أحيانًا، بل يجب أن نرجع قليلًا إلىٰ الوراء، ليتسع مجال الرؤية، وتحيط بالكل في نظرة شاملة، تستطيع وحدها أن تلاحظ التناسق بين الأجزاء والتوافق في التركيب، فبمثل هذا النظرة ينبغي دراسة كل سورة من سور القرآن لنقدر أبعادها الحقيقيَّة»[2].

---

(١) مدخل إلىٰ القرآن الكريم، ص١٣٠.

(٢) السابق، ص١٢٧.

وقد كان هذا ديدن العلماء الراسخين، يقول القرافي: «مَن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئيَّة دون القواعد الكليَّة تناقضت عليه الفروع واختلفت، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت»[(١)].

وقال ابن تيمية: «فلا بدَّ أن يكون مع الإنسان أصول كليَّة يرد إليها الجزئيَّات؛ ليتكلَّم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيَّات كيف وقعت، وإلا فيبقىٰ في كذب وجهل في الجزئيَّات، وجهل وظلم في الكليَّات، فيتولد منه فساد عظيم»[(٢)]

رابعًا: المفكِّر الحي والحق النابض:

أُحبُّ المفكِّر الحي الذي يشارك الشباب همومهم المعرفيَّة، ولا يتعالىٰ علىٰ أسئلتهم، أو يتذمر من شبهاتهم الحقيقيَّة، أو يبادرهم بالتقريع والكبت؛ من انتصب لمعايشة الشباب فكريًّا فليعدَّ نفسه لمواجهة طوفان من التباينات النفسيَّة والمعرفيَّة والمزاجيَّة؛ لكنَّ في ذلك حسن العاقبة ورحب المنقلب لمن أخلص.

حاجة الشباب كبيرة إلىٰ قدوات متميِّزة معرفيًّا، وتشاركهم الجلوس والمعايشة والمزاح واللغة، والهموم الوجدانيَّة، ومخاوف المستقبل، وأحاديث الألم والأمل، ومن أوتي تمكُّنًا علميًّا وسماحةَ روح فقد تربَّع علىٰ قلوب يوحشها فراغ الأستاذ الموجِّه القريب.

كان رسول الله ﷺ يصلي قاعدًا بعد طول معايشة للناس وهمومهم وحاجاتهم؛ أو بتعبير أمي عائشة -رضي الله عنها وعن أبيها- «بعدما حطَمه الناس»[(٣)]؛ وكلمة «حطَمه» ناصعة الدلالة علىٰ المراد، وعلىٰ أثره سار صحابته -رضوان الله عليهم-، فقد روىٰ الصحابي الشاب ابن عباس رضي الله عنهما أنه خرج حاجًا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسأله مسألة بعد طول تردُّد وتهيُّب فأجاب، قال ابن عباس: «والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبة

---

(١) الفروق، (١/ ٦٢).

(٢) منهاج السنة النبوية، (٥/ ٨٣).

(٣) رواه مسلم، (٧٣٢).

لك؛ قال: فلا تفعل؛ ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي من علم خبرتك به . . .»[1].

فالشباب يمور صدره بأسئلة تريد أذنًا مستمعة قبل أن تبحث عن لسان مجيب، وهذا الذي عنيته بالفاعليَّة هنا؛ أن يكون المصلح قريبًا من الشباب ليستصلح منهم قدر استطاعته.

يحكي الصفدي عن نفسه اجتماعه بشيخ الإسلام ابن تيمية -رحم الله الجميع-، وكيف كان يتحسس مواطن السؤال والشَّكِّ والشبهة في نفسه: «ثم اجتمعت به بعد ذلك (أي: ابن تيمية) مرَّات عديدة، وكان إذا رآني قال:

أيش حس الإيرادات؟!

أيش حس الأجوبة؟!

أيش حس الشكوك؟!

أنا أعلم أنك مثل القدر التي تغلي تقول: بق بق بق، أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها، لازمني لازمني تنتفع»[2].

وها هو تلميذه الأثير ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يحكي قصة قرب الشيخ من تلاميذه الشباب، وتثبيته لهم ومعايشته لمخاوفهم، يقول: «وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه (أي: ابن تيمية)، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوَّة ويقينًا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابًا في دار العمل، فآتاهم من روحها، ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها»[3].

---

(١) رواه البخاري، (٤٩١٣)، ومسلم، (٤٧٩).

(٢) الوافي بالوفيات، (٧/ ١٥)، وينظر ما سطره أبو الفضل القونوي في كتاب (موقف خليل بن أيبك الصفدي من شيخ الإسلام ابن تيمية)، ٦٨-٦٩؛ والكتاب لا يخلو من نفس بحثي تحليلي معجب، وفي أسلوبه تحامل، وفي بعض نتائجه نظر.

(٣) الوابل الصيب، ص ٤٨، وانظر: ذيل طبقات الحنابلة، (٤/ ٥٢٠).

إذا تمَّ للموفَّق عقله ترفَّع عن الخصومات الصغيرة، واستجمع جهده لهداية الخلق، واستنقاذ الحيارىٰ، وإرشاد المتسائلين، وبناء جيل يعرف مراد الله من أحكامه، ويرد الشبهات بعلم وحكمة، ثم لا تأخذه رسوم المشيخة وحمّىٰ الألقاب عن الاقتراب والمعايشة -وهذه هذه-، فالمعطىٰ المعرفي لا يكفي وحده، وكم من أفكار قبلناها أوائل عمرنا لا لقوَّتها العلميَّة -فنحن لا نميِّز آنذاك- بل لأننا نحب من أخبرنا بها؛ فليس بالبرهان وحده يعيش الإنسان.

وهذا ما تراه جليًّا في سيرة الشيخ دراز رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد اتَّبع أساليب كثيرة لهذه المعايشة الفكريَّة منها علىٰ سبيل المثال:

أ. الربط الواقعي بمشاهد يوميَّة:

فتراه في تفسيره سورة يس يقول: «أرأيت الراعي الصالح حين يرد بأنعامه مناهل الماء، ويحاول حملها علىٰ الارتواء فتأبىٰ وتستعصي»[1].

ب. تطعيم حديثه بمصطلحات من القاموس التداولي الشبابي:

يقول في تفسيره سورة البقرة: «إن فيهما [أي آية المداينة وآية الرهان] دستورًا من أدقِّ الدساتير المدنيَّة في حفظ الحقوق والأموال، بل هو أدقُّها علىٰ الإطلاق»[2].

ج. الاهتمام بالطبقة الوسيطة من الشباب:

وهي الشريحة الأكبر التي تكون فوق المقاهي ودون المساجد، إنها فئة ليست جاهلة أمِّيَّة، لكنها لا تُعدُّ من أهل العلم المتأصِّلين، وهذه الظاهرة المعرفيَّة اتَّسعت مع وجود المدارس النظاميَّة.

---

(١) التفسير الإذاعي للقرآن الكريم عند العلامة الحكيم محمد عبد الله دراز، دعاء أبو زيد، ص١٩٨.

(٢) السابق، ص١١٠.

يقول الشيخ دراز ﵀ في خاتمة مقدِّمته للنبأ العظيم وهو يخاطب القابليَّة لا المعارف المسبقة: «إنه حديث يبدأ من نقطة البدء، فلا يتطلب من قارئه انضواء تحت راية معيَّنة، ولا اعتناقًا لمذهب معيَّن، ولا يفترض فيه تخصُّصًا في ثقافة معيَّنة، ولا حصولًا علىٰ مؤهَّل معيَّن، بل إنه يناشده أن يعود بنفسه صفحة بيضاء، إلا من فطرة سليمة، وحاسة مرهفة، ورغبة صادقة في الوصول إلىٰ الحق في شأن هذا القرآن، وإنه لواصل إن شاء الله»[1].

د. التنويع بين المنطق والعاطفة:

يقول ﵀: «في النفس الإنسانية قوَّتان: قوَّة تفكير، وقوَّة وجدان، وحاجة كل منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقِّب عن الحقِّ لمعرفته، وأما الأخرىٰ فتسجِّل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم»[2].

هـ. المشاركة في همومهم اليومية:

لم يكن الشيخ رهين مكتبته، بل كان يشارك الشباب همومهم، ومن ذلك مشاركته في التنديد بفظائع الاحتلال الإيطالي لليبيا، وعنايته بقضية المسلمين في الجزائر[3].

يروي صهره الدكتور محمد السيد البدوي في مقدمته لدستور الأخلاق فيقول: «كنت ألتمس مع الطلبة العرب في باريس في رحاب الأستاذ الجليل ما نحتاج إليه من رعاية في وقت الشدة وكان يجمعنا في منزله في المناسبات الدينية والقومية ليشعرنا بما افتقدناه من جو عائلي بسبب بعدنا عن الأوطان، وكنا نجد عنده كرم الضيافة العربية، ونستمتع بأحاديثه ومناقشاته في شؤون الدين والعلم والسياسة، وكان ﵀ لا يضيق بما نثيره من آراء متطرفة أحيانًا، بل يفندها بروح العالم المستنير، وفي سماحة ورحابة صدر» وهكذا يكون المصلح القرآني مع شباب جيله.

---

(١) النبأ العظيم، ص٧٩، ط. الشيخ عمرو الشرقاوي.

(٢) النبأ العظيم، (عزو لطبعة الشرقاوي).

(٣) الإمام المجدد، ص١٧٠، وما بعدها.

النموذج الخامس: محمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣هـ):

مجمل سيرته:

ولد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد ابن عاشور عام ١٢٩٦هـ.

قيل في ترجمة جدِّه محمد الطاهر بن عاشور الأول: «فهو من بيت شرف وصلاح»، وفي ترجمة أحمد بن عاشور: «نشأ مع آل بيته في عفة وصيانة وهو بيت شرف أصيل وصلاح أثيل بالأندلس»[١].

تشكَّل حضور أسرة ابن عاشور بهجرتهم من الأندلس إشبيليا إلىٰ مدينة سلا المغربية -والمكوث بها نحو أربعين سنة- ثم الهجرة إلىٰ تونس علىٰ يد محمد بن عاشور الجد[٢].

وتفترض بعض النصوص أن أصل اسم جد العائلة هو ابن عاشر[٣].

وقد جاء إثبات انتماء آل عاشور إلىٰ آل البيت الحسنيين[٤] بمشاركة محمد بن عاشور -والد الشيخ الطاهر- في حملة المحمدين الأربعين من آل البيت الذين انتخبهم المشير أحمد باي الأول، بإشارة من القاضي الشيخ مصطفىٰ بيرم؛ للاجتماع بجامع الزيتونة والدعاء بتفريج الكرب عند اشتداد الطاعون بتونس عام ١٢٦٦هـ[٥].

---

(١) إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، (٧/ ٤٧).

(٢) أجود ما كتب في سيرة ابن عاشور وعائلته ووثائق هذه السلالة كتاب (عائلة ابن عاشور، رحلة في الفكر العالم التونسي)، للمياء عبيدي، وهو كتاب بحثي متعوب عليه.

(٣) منهم محمد بن علي الدكالي في الإتحاف الوجيز: تاريخ العدوتين، ص١٣٣، حيث سماه: أحمد بن عاشر الأندلسي.

(٤) وكان الشيخ ابن عاشور يثبت نسبه الحسني بيده كما قرأته في ثَبَت والد شيوخنا محمد بنعزوز القاسمي الحسني (ت: ١٤٠٤هـ) حين قال في خاتمة إجازته: «وأنا محمد الطاهر بن عاشور التونسي الحسني». إجازات العلامة الشيخ محمد بنعزوز القاسمي الحسني، ص١٢٣.

(٥) عائلة ابن عاشور: رحلة في الفكر العالم التونسي، لمياء عبيدي، ص٧٤.

والأسرة العاشوريَّة ذات مكانة وثراء، وكانت بداية الجدِّ في تونس بمهنة صناعة الشاشيَّة[1]، ثم التحق بشيخه الزواوي الذي أمره بالبقاء في تونس، وكان عازمًا علىٰ الرحلة إلىٰ الإسكندرية.

نشأ الشيخ محمد الطاهر الثاني في رحاب العلم والجاه، فسلك تعلُّم القرآن الكريم في سن السادسة، فقرأه وحفظه علىٰ المقرئ الشيخ محمد الخياري، ثم حفظ مجموعة من المتون، وتلقَّىٰ قواعد العربيَّة علىٰ الشيخ أحمد بن بدر الكافي.

تزوَّج محمد الطاهر ابن عاشور السيدة الشريفة فاطمة بنت نقيب الأشراف بتونس السيد محمد محسن، فأنجبت له أربعة بنين واثنتين من البنات.

برز من أولاده السيد محمد الفاضل الذي تولَّىٰ التدريس بجامع الزيتونة والقضاء، ثم عمادة الكليَّة الزيتونيَّة للشريعة وأصول الدين، وعُيِّن مفتيًا للجمهورية التونسيَّة، وكان عضوًا بمجمع اللغة العربيَّة بالقاهرة، وله مجموعة من الكتب المطبوعة والأبحاث[2].

وكذلك الأستاذ عبد الملك وكان موظفًا ساميًا، وله بحوث وتحقيقات علميَّة نُشرت له بالمجلات التونسيَّة.

وللشيخ محمد الطاهر أحفاد بررة أساتذة جامعيون، منهم الأستاذ الدكتور المؤرِّخ محمد العزيز بن عبد الملك، والأستاذ الدكتور الحقوقي عياض بن محمد الفاضل الذي رأَس الجامعة التونسيَّة.

---

(١) الحلل الأندلسية، (٢/ ٧٤).

(٢) ولابنه الفاضل ترجمتان جيدتان أولاهما للأستاذ محمد أنور الجندي، والثانية للأستاذ محمد الدسوقي، انظرهما في كتاب (رجال فقدناهم) للشيخ: مجد مكي، ص٤٨٥، وص٤٩٣.

طلبه للعلم:

التحق الشاب محمد الطاهر بجامع الزيتونة سنة ١٣١٠هـ، وقرأ فيه علوم القرآن والقراءات، والحديث، والفقه المالكي وأصوله، والفرائض، والسيرة، والتاريخ، والنحو واللغة والأدب والبلاغة، وعلم المنطق.

كما تعلَّم الفرنسيَّة علىٰ يد أستاذه الخاص أحمد بن ونَّاس المحمودي.

حصل الشيخ علىٰ شهادة التطويع من الجامع الأعظم سنة ١٣١٧هـ، وعاد بعدها إلىٰ حضور دروس شيوخه، فقرأ علىٰ الشيخ محمد النخلي الوسطىٰ في العقيدة، وشرح المحلي في أصول الفقه، والمطوَّل في البلاغة، والأشموني في النحو، وعلىٰ الأستاذ عمر ابن الشيخ تفسير البيضاوي، وعلىٰ الشيخ سالم بوحاجب البخاري والموطأ بشرحيهما.

تحمل الطاهر بن عاشور العلم عن أعيان علماء تونس وشيوخ جامع الزيتونة، ومنهم:

الشيخ أحمد بن بدر الكافي، والشيخ أحمد جمال الدين، والعلَّامة الشيخ سالم بوحاجب، وله منه إجازة، والشيخ محمد صالح الشريف، والشيخ عبد القادر التميمي، الفقيه المتكلِّم الشيخ عمر ابن الشيخ، وله منه إجازة، والشيخ عمر ابن عاشور، والشيخ المقرئ محمد الخياري، والشيخ محمد صالح الشاهد، والشيخ محمد طاهر جعفر، والشيخ محمد العربي الدرعي، والعالم الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتُّور، وله منه إجازة، والشيخ محمد بن عثمان النجار، والشيخ محمد النخلي، والشيخ محمود ابن الخوجه، وله منه إجازة.

مرحلة التصدُّر العلمي:

درَّس الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور كتبًا عالية في جامع الزيتونة، كأسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز للجرجاني، ومقدِّمة ابن خلدون، وموطَّأ الإمام مالك، وكان أول من درَّس (ديوان الحماسة) فيه. كما كان يقوم بتدريس الحديث النبوي الشريف في ليالي رمضان.

وقد أدخل الشيخ بعض الإصلاحات علىٰ التعليم الزيتوني، كتقسيم التعليم إلىٰ المراحل الثلاث المعروفة الآن، وتحديد زمن الحصة، وتعيين مواد الدراسة، والشيخَ المدرِّس لها في كل فصل، مع بيان أوقات الدرس لكل مادة.

أما تلامذته، فقد تحمَّل عنه العلم جم غفير من أهل تونس والجزائر ممن كان يقصد الزيتونة، فكان منهم الأديب والفقيه والمؤرخ والصحفي والاقتصادي، وكبار الوزراء والكتَّاب، وممن عُرف بالتأليف منهم أذكر:

محمد الصادق ابن الحاج محمود المعروف بـ (بسِّيس)، ومحمد الصادق الشطي، وأبو الحسن ابن شعبان، ومحمد الفاضل ابنه، وعلي بن محمد البوديلمي، ومحمد العيد آل خليفة، وأحمد كريِّم، ومحمد الشاذلي النيفر، والشيخ عبد الحميد بن باديس الجزائري رحمهم الله جميعًا.

وظائفه:

تولَّىٰ ابن عاشور مناصب علميَّة وإداريَّة بارزة، وها هي مرتَّبة تاريخيًّا:

١٣١٧هـ: بدأ بالتدريس في جامع الزيتونة.

١٣٢٠هـ: نجح في مناظرة الطبقة الثانية ليتولَّىٰ التدريس رسميًّا بالجامع الأعظم.

١٣٢١هـ: انتُدب للتدريس بالمدرسة الصادقيَّة.

١٣٢٣هـ: عُيِّن عضوًا بمجلس إدارة الجمعيَّة الخلدونيَّة، وفي نفس العام شارك باللجنة المكلفة بوضع فهرس للمكتبة الصادقيَّة.

١٣٢٤هـ: شارك في مناظرة التدريس للطبقة الأولىٰ بالزيتونة، وفي نفس السنة عُيِّن عضوًا في هيئة إدارة الجمعيَّة الخلدونيَّة.

١٣٢٥هـ: عُيِّن نائبًا أول للحكومة لدىٰ النظَّارة العلميَّة بجامع الزيتونة.

١٣٢٦هـ: سُمِّي عضوًا في لجنة تنقيح برامج التعليم.

١٣٢٧هـ: ترأَّس لجنة فهرسة المكتبة الصادقيَّة.

١٣٢٨هـ: عُيِّن عضوًا بمجلس الأوقاف الأعلىٰ، وفي نفس السنة اختير حاكمًا بالمجلس العقاري.

١٣٣١هـ: عُيِّن قاضيًا مالكيًّا للجماعة بالمجلس الشرعي، وفي نفس السنة عُيِّن مفتيًا.

١٣٤١هـ: سُمِّي مفتيًا نائبًا عن الشيخ باش مفتي، وبعدها بعام عُيِّن بمنصب رئيس المفتين.

١٣٤٦هـ: رُقِّي إلىٰ منصب كبير أهل الشورىٰ.

١٣٥١هـ: تسلَّم منصب شيخ الإسلام المالكي، وعُيِّن شيخًا للجامع الأعظم وفروعه، وفُصل من هذا المنصب -ويُقال: استقال- بعد سنة ونصف، ليعود إليه سنة ١٣٦٤هـ وبقي في هذا المنصِب إلىٰ ١٣٧٢هـ.

١٣٦٧هـ: عُيِّن عميدًا للجامعة الزيتونيَّة إثر استقلال البلاد، وبقي فيه حتىٰ سنة ١٣٨٠هـ.

كما انتُخب الشيخ عضوًا مراسلًا في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربيَّة بدمشق حاليًا) وذلك في سنة ١٣٧٥هـ.

أوَّليَّاته:

للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أوليَّات تمثِّل مظهرًا من مظاهر تميُّزه رَحِمَهُ اللَّهُ وهي:

- أول من فسَّر القرآن كاملًا في إفريقية [تونس]، وذلك في كتابه (التحرير والتنوير).

- وهو أول من جمع بين منصب شيخ الإسلام المالكي وشيخ الجامع الأعظم (الزيتونة)، وأول من سمِّي شيخًا للجامع الأعظم.

- وأوَّل من تقلَّد جائزة الدولة التقديريَّة للدولة التونسيَّة، ونال وسام الاستحقاق الثقافي سنة ١٩٦٨م.

- وأول من أدخل إصلاحات تعليميَّة وتنظيميَّة في الجامع الزيتوني، في إطار منظومة تربويَّة فكريَّة.

أخلاقه وشمائله:

كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ رجلًا تزيِّنه أخلاق رضية وتواضع جم، اشتهر بالصبر وعلو الهمة، والاعتزاز بالنفس، عفيف القلم، حلو المحاضرة، طيب المعاشرة.

يقول زميله في الطلب وصديقه المقرَّب الشيخ محمد الخضر حسين: «شبَّ الأستاذ علىٰ ذكاء فائق، وألمعيَّة وقَّادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغُه بين أهل العلم». وقال فيه: «وللأستاذ فصاحةُ منطق وبراعة بيان، بالإضافة إلىٰ غزارة العلم وقوَّة النظر وصفاء الذوق وسعة الاطِّلاع في آداب اللغة».

وقد وصَفَه أحدُهم فقال: «رأيت فيه شيخًا مَهيبًا يمثل امتدادًا للسلف الصالح في سمْتِه، ودخل في عقده العاشر ولم تنل منه السنون شيئًا . . قامةٌ سمهريَّة خفيفة اللحم، وعقليَّة شابة ثرية بحصيلتها، وقلب حافظ أصاب من علوم القدماء والمحدَثين، ولسان لافظ يقدر على الخوض في كل شيء من المعارف، وذهن متفتِّح يشقق الحديث روافد مع وقارٍ يزيِّنه، وفضلٍ يبيِّنه، وأخلاق وشمائلُ حسنة تهش للأضياف وترحب بالوارد، وتعطي في عمق لمن يريد الاغتراف من بحر كثُرت مياهُه وقد ازدحمت العلوم فيه».

وكان في مناقشاته العلميَّة لا يجرح أحدًا ولا يحط من قدره، فإذا لاحظ تهافتًا في الفكر لمَّح إلىٰ ذلك تلميحًا، وبرغم الحملات التي شُنَّت ضده لم ينزل عن المستوىٰ الخُلُقيِّ الذي يتَّصف به العلماء، بل لم يُشِر إلىٰ خصومه، ولم يَشكُ منهم قط.

ويقول فيه الدكتور محمد الحبيب بلخوجه: «هو نمط فريد من الأشياخ، لم نعرف مثلَه بين معاصريه أو طلابه أو من كان في درجتهم من أهل العلم . . . وقد وهبه الله متانةَ علم، وسعة ثقافة، وعمق نظر، وقدرة لا تفتُر علىٰ التدوين

والنشر، ومَلَكات نقديَّة يتَّضح أثرها في طريقة الجمع بين الأصول والتعريفات، وما يلحق بها من ابتداعات وتصرفات».

تنوَّعت آثار الشيخ رحمه الله تعالىٰ من حيث موضوعاتها، فألَّف في التفسير، والحديث، والأصول، والأدب، واللغة، والتاريخ والتراجم، والدراسات الإسلامية.

منها (غير تفسيره):

مقاصد الشريعة الإسلاميَّة.

النظام الاجتماعي في الإسلام[1].

تعليقات وتحقيق علىٰ حديث أمِّ زرع - مخطوط.

النظر الفَسيح عند مَضيق الأنظار في الجامع الصَّحيح - مطبوع.

كشف المغطَّىٰ من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطَّا - مطبوع.

آراءٌ اجتهاديَّة - مخطوط.

الأمالي علىٰ مختصر خليل - مخطوط.

حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب (التنقيح علىٰ شرح تنقيح الفصول في الأصول) - مطبوع.

قضايا وأحكام شرعيَّة - مخطوط.

الوقف وآثاره في الإسلام - مطبوع.

أصول التقدُّم في الإسلام - مخطوط.

تحقيقات وأنظار في الكتاب والسُّنَّة - مطبوع.

نقدٌ علميٌّ لكتاب الإسلام وأصول الأحكام لعلي عبد الرزَّاق - مطبوع.

---

(١) وقد صرح في مقدمة كتابه المقاصدي بما يفيد أنه و(أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) متكاملين، وهذا ملمح قلّ من يتنبه له من مترجميه ودارسيه، ولهذا آثار عند دارس أفكاره.

أصول الإنشاء والخطابة - مطبوع.

الأمالي علىٰ دلائل الإعجاز للجرجاني - مطبوع.

تحقيق لشرح القرشي علىٰ ديوان المتنبي - مخطوط.

ديوان بشار بن برد - مطبوع.

ديوان النابغة الذبياني - مخطوط.

شرح ديوان الحماسة - مخطوط.

شرح معلَّقة امرئ القيس - مخطوط.

سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسَّام النحوي - مطبوع.

شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي علىٰ ديوان الحماسة لأبي تمام، نُشرت مقالات في مجلة مجمع اللغة العربيَّة بدمشق.

قصيدة الأعشىٰ الأكبر في مدح المحلَّق - مطبوع.

الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الأصبهاني - مطبوع.

قصَّة المولد النَّبوي الشَّريف - مطبوع.

قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لأبي نصر الفتح ابن خاقان - مخطوط.

تُوفي محمد الطاهر ابن عاشور عن أربع وتسعين سنة في ضاحية المَرْسَىٰ قرب تونس العاصمة، يوم الأحد ١٣ من رجب سنة ١٣٩٤هـ، ووُري الثرىٰ بمقبرة الزلّاج، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته[١].

مشروعه القرآني[٢]:

للشيخ الطاهر مشروعٌ قرآنيٌّ كبيرٌ، وهو تفسيره ذائع الصيت (التحرير والتنوير).

---

(١) انظر: محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه، إياد الطباع، وقد أفدت منه في القسم الثاني من ترجمته.

(٢) انظر: تقرير مرصد تفسير عن تفسيره، وقد أعده خليل اليماني، وعبد الرحمن المشد، ومحمد مصطفىٰ عبدالمجيد، بتصرف يسير.

وقد نصَّ بوضوح علىٰ اسم كتابه وتفسيره، حيث قال في نهاية مقدمته العامة للكتاب: «وسمِّيته (تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»)، وذكر بعد ذلك اسمًا مختصرًا للكتاب استقاه من هذه التسمية التي وضعها، فقال: «واختصرت هذا الاسم باسم (التحرير والتنوير من التفسير»)، وقد اشتهر هذا الكتاب بتسميته بـ (التحرير والتنوير).

وابتدأ الطاهر ابن عاشور بنشر تفسيره في صورة مقالات بالمجلة الزيتونيَّة، ثم طبع مقدِّمات التفسير وتفسير سورة الفاتحة وجزء عمَّ في كتاب مستقلٍّ عام ١٣٧٦هـ، ثم طُبعت منه أجزاء في عام ١٣٩٠هـ، إلىٰ أن وصل إلىٰ الجزء الرابع عشر عام ١٣٩٧هـ، ثم طُبع كاملًا لأول مرة بالدار التونسيَّة للنشر بتونس عام ١٩٧١م، (٣٠) جزءًا، في (١٥) مجلدًا، وظهرت له طبعات أخرىٰ منها ما يأتي:

- الدار التونسيَّة للنشر، بتونس، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، (١٧) مجلدا.

- دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس ١٩٩٧م، (٣٠) جزءًا في (١٥) مجلدًا.

- دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ الإسلامي في بيروت، ٢٠٠٠م.

- دار سحنون للنشر والتوزيع ودار ابن حزم، في (١٢) مجلدًا، عام ٢٠٢١م.

أما عن سبب تأليفه قال ابن عاشور في مقدِّمة كتابه: «فقد كان أكبر أمنيتي منذ أمد بعيد، تفسير الكتاب المجيد، . . . طمعًا في بيان نكت من العلم وكليات من التشريع، وتفاصيل من مكارم الأخلاق، كان يلوح أنموذج من جميعها في خلال تدبُّره، أو مطالعة كلام مفسّره . . . »، وذكر بعدها أنه تهيب القيام بذلك زمنًا، وأنه كانت تَصرِفُه عنه شواغل، ولكنه عقد العزم عليه في آخر الأمر وشرع فيه، ثم قال: «فجعلتُ حقًّا عَلَيَّ أن أُبدي في تفسير القرآن نكتًا لم أر من سبقني

إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسِّرين تارة لها وآونة عليها؛ فإن الاقتصار علىٰ الحديث المُعاد تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد».

وتكلَّم ابن عاشور بعد ذلك عن أغراضه العلميَّة من وراء وضع كتابه بصورة تفصيليَّة، فقال: «إن معاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة . . . وقد نحا كثير من المفسِّرين بعض تلك الأفنان، ولكن فنًّا من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن، وهو فنُّ دقائق البلاغة، هو الذي لم يخصُّه أحد من المفسِّرين بكتاب كما خصُّوا الأفانين الأخرىٰ، من أجل ذلك التزمت ألَّا أغفل التنبيه علىٰ ما يلوح لي من هذا الفنِّ العظيم في آية من آي القرآن . . . وقد اهتممتُ في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربيَّة وأساليب الاستعمال، واهتممتُ أيضًا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض . . . ولم أغادر سورة إلا بيَّنتُ ما أُحيط به من أغراضها . . . واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربيَّة بضبط وتحقيق مما خَلَت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة».

وفي ضوء ما سبق يبرز لنا غرض ابن عاشور من وراء كتابه، وأنه لاحت له أغراض علميَّة مهمَّة ومتعدِّدة في التفسير رأىٰ فيها مزيد إضافة في هذا الميدان، كذِكر دقائق البلاغة وأساليب الاستعمال وبيان تناسب الآي، وغير ذلك، ومن أجل توفية القول فيها ألَّف كتابه (التحرير والتنوير).

وتجدر الإشارة أنّ ابن عاشور مكث في كتابة تفسيره (التحرير والتنوير) زمنًا طويلًا قرابة الأربعين عامًا، وهو ما أشار له في خاتمة تفسيره، حيث قال: «وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمئة وألف، فكانت مدة تأليفه تسعًا وثلاثين سنة وستة أشهر، وهي حقبة لم تخل من أشغال صارفة، ومؤلَّفات أخرىٰ أفنانها وارفة . . .».

وقد تنوَّعت المؤلَّفات والمصادر التي رجع إليها ابن عاشور في تفسيره ونقل عنها وأفاد منها، فكان منها التفسيري واللغوي، وغير ذلك، وفيما يأتي يستبين لك طرف من هذه المصادر:

فمن مصادره التفسيريَّة:

جامع البيان للطبري (ت: ٣١٠هـ)، الكشف والبيان في تفسير القرآن للثعلبي (ت: ٤٢٧هـ)، معالم التنزيل للبغوي (ت: ٥١٠هـ)، الكشاف للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) وبعض حواشيه، المحرّر الوجيز لابن عطية (ت: ٥٤٢هـ)، مفاتيح الغيب للرازي (ت: ٦٠٦هـ)، أنوار التنزيل للبيضاوي (ت: ٦٥٨هـ) وبعض حواشيه، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، إرشاد العقل السليم لأبي سعود (ت: ٩٨٢هـ)، روح المعاني للآلوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، وغيرها كثير.

ومن مصادره في اللغة:

لسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ)، القاموس المحيط للفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، المقامات للحريري (ت٥١٦هـ)، وغيرها.

ومن مصادره في البلاغة:

أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والشافية، كلُّها لعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، وأساس البلاغة للزمخشري (ت٥٣٨هـ)، مفتاح العلوم للسكاكي (ت٦٢٦هـ)، وتلخيص المفتاح للقزويني (ت٧٣٩هـ)، وغيرها.

تتنوَّع أنماط الاشتغال التفسيري فيما يتصل بمسألة المعنىٰ التفسيري، فمن حيث الاشتغال بالمعنىٰ من عدمه فتفسير التحرير والتنوير يعدُّ من التفاسير المشتغلة بالمعنىٰ، ومن حيث الاقتصار علىٰ المعنىٰ أو الخروج عنه يمكن لنا أن نعتبر هذا التفسير من التفاسير المقتصرة علىٰ المعنىٰ، فعلىٰ الرغم من تبنِّي ابن عاشور سعة مفهوم التفسير وتوجُّهه لإيراد بعض زيادات في كتابه، إلا أن الكتاب يظلُّ دائرًا في فلك المعنىٰ.

وأما من حيث طبيعة اشتغال تفسير التحرير والتنوير علىٰ المعنىٰ، فيمكن عدُّ هذا الكتاب ضمن الكتب المحرِّرة للمعنىٰ، فنجده يوجه المعاني ويستدلُّ

عليها ويبيِّن الراجح منها كما بيَّنا، وله في هذا جهود كبيرة جدًّا حَرِيّة بالرصد والدراسة، كما أنه يجتهد في توظيف أمور إبان تقريره للمعاني؛ كاستقراء أساليب الاستعمال والتناسب بين الآي والدقائق البلاغيَّة، وغير ذلك مما هو جدير بالدرس؛ لانعكاساته المُهمَّة علىٰ حُسن التصوُّر لموارد الممارسة التفسيريَّة وكيفيَّات القيام والنهوض بها.

وإضافة لتحرير المعاني فقد كانت لابن عاشور عناية أيضًا بإنتاج وتوليد المعاني الجديدة في بعض المواضع.

مفتاح نبوغه:

بعد تأمل شخصيتَّه، وتحليل سيرته، وجدت مفتاح نبوغ الشيخ محمد الطاهر هو «**حلُّ المشكلات**».

تحقيق وتطبيق:

كان من أبرز من اعتنوا بحلِّ مشكل القرآن من المفسِّرين القاضي ابن عطية في (المحرر الوجيز)، وابن العربي في (أحكام القرآن)، والقرطبي في (جامعه)، والخازن في (لبابه)، والآلوسي في (روح المعاني).

والمشكل والمتشابه يتَّصلان بسبب، وقد عرَّفهما الباجي ببعضهما فقال: «المتشابه: هو المشكل الذي يحتاج في فهم المراد إلىٰ تفكُّر وتأمُّل»[(١)]، وبنحوه عرَّفه الجرجاني[(٢)]، أما ابن عقيلة فقال في المتشابه: «هو ما أشكل معناه علىٰ السامع، ولم يصل إلىٰ إدراكه إلا بدليل آخر»[(٣)].

وقد كان ابن عاشور مقدم هذه المعارك، وسيِّد رايتها، ففي غير التفسير له مصنفات حِلْيتها هذا المفتاح؛ ففي السنة له كتاب: (النظر الفسيح عند مضائق

---

(١) إحكام الفصول، (١/ ١٧٦).

(٢) التعريفات، ص٢١٥.

(٣) الزيادة والإحسان، (٥/ ١٣٤).

الأنظار في الجامع الصحيح)، و(كشف المغطّىٰ من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطّا)، وفي أصول الفقه له: (حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح علىٰ شرح تنقيح الفصول في الأصول)؛ وهي حاشية لحل مشكلات كتاب القرافي، وفي اللغة له (سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسَّام النحوي)[1]، و(الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الأصبهاني)، وها أنت تلحظ كلفه بحل مشكلات العلوم، وتوجيه عويصها.

أما في القرآن وتفسيره فقد كانت عباراته تتنوع في إظهار استشكالاته ثم حلِّها، ومنها:

١. «وهذه الآية مثار إشكال».

٢. «قد عُدت هذه الآية من مشكلات القرآن».

٣. «سكت عن الآية جميع المفسرين، عدا ابن عطية استشعر إشكالها».

٤. «موضع الآية إشكال عند جميع المفسرين».

٥. «هذه آية مشكلة وليس للمفسرين كلام واضح في اتصالها بما قبلها».

٦. «هذه الآية من أصعب مافي القرآن نظمًا وتفسيرًا»[2] وغيرها من العبارات.

وللشيخ الطاهر منهج في الاستشكال متنوِّع المشارب، فتراه يورد الإشكال ثم يجيب، أو يورد الإشكال ويأتي بجواب غيره، أو قد يأتي بجواب غيره وينصُّ أن الإشكال ما زال قائمًا، وقد يذكر في الآية الواحدة أكثر من إشكال.

---

(١) نشر الشيخ الطاهر الجزء الرابع من جواهر الآداب منسوبًا لابن بسام النحوي بناء علىٰ نسخة في خزانته العاشورية، ورجَّح أنه ابن بسام الشنتريني صاحب الذخيرة، ثم ظهرت طبعة تثبت غلط هذا وأنه لابن السرَّاج محمد بن عبد الملك الشنتريتي، انظر: مقدمة المحقق الدكتور محمد حسن قزقزان، (١/ ٥٩)، من جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب.

(٢) انظر: مشكل القرآن في تفسير ابن عاشور، علي السكاكر، (١/ ٨٥).

والحق أن ملكة الاستشكال كسائر صفات الإنسان، لها وجه حسن، وفخٌّ ينال من النابهين أحيانًا، فبعض الأذكياء اعتاد علىٰ عويص المسائل، فتراه يعامل تفاصيل المعارف بالمستوىٰ نفسه، أشبهه بمن يلبس حذاء تسلُّق الجبال كل وقته؛ فلا شكَّ أن الأرض الملساء ستزلق به، وتسقطه، لأنه ظنَّ الدنيا كلها وعرة عسرة، وهذا التحفُّز الدائم لأمور غير مركَّبة يغيِّب عنه أمورًا علميَّة يدركها من هو أقل منه نباهة.

وهذا ما وقع للشيخ الطاهر رَحِمَهُ اللَّهُ في عدَّة أمثلة[1]، أجلاها عندي استشكاله في كتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية)، حين قال: «وظهر بطلان ما روي عن الشافعي من أنه قال: إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ فهو مذهبي، إذ مثل هذا لا يصدر عن عالم مجتهد، وشواهد أقوال الشافعي في مذهبه تقضي بأن الكلام مكذوب أو محرف عليه، إلا أن يكون أراد الصحَّة، تمام الدلالة بما شرحناه وسلم من المعارضة بما حذرنا منه، وحينئذٍ يكون قوله هذا يؤول إلىٰ معنىٰ «إذا رأيتم مذهبي فاعلموا أنه الحديث الصحيح» »[2].

والعبارة أبين من توليد الاحتمالات التي تكلَّفها الشيخ وركَّبها ذهنه، وهي ثابتة عن الشافعي، وليس بها ما يشكل.

وقد أثبتها عنه[3]: الإمام ابن أبي حاتم في (آداب الشافعي ومناقبه)، ص٦٩-٧٠، والخطيب البغدادي في (الاحتجاج بالشافعي)، ص٤٩، والبيهقي في (مناقب الشافعي)، (١/ ٤٧١-٤٧٨)، والجويني في (دراية المذهب، (٤/ ٢٦٠)، وابن الصلاح في (أدب المفتي والمستفتي)، ص١١٧-١١٨،

---

(١) ومثله استشكال للتفسير بالمأثور في مقدمته الثالثة من التفسير، (١/ ٣٣).

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية، (١/ ٢٠٤-٢٠٥)، ط. الميساوي، دار النفائس الأردنية، وهذا المقطع محذوف من طبعة الحبيب بلخوجة، فالله أعلم أتراجع عنه أم رأىٰ المحقق حذفه.

(٣) انظر: المؤنس بمباحثة شيخ شيوخنا علامة تونس الشيخ الطاهر بن عاشور، للدكتور: ناجي بن راشد العربي.

وابن القيم في (إعلام الموقعين)، (٤/ ٤٠)، والذهبي في (تاريخ الإسلام)، (١٤/ ٣٢٠-٣٢٢)، والسخاوي في (الجواهر والدرر، (١/ ٧٩).

والمقصود من إيراد هذا المثال إثبات معنىٰ بشري لا ينفكُّ، وهي أن مفاتيح النبوغ التي ذكرتها للمستهدين المصلحين لها ضريبة، ومن أحبَّ أن ينتفع بالوجه الحسن منها، لزمه دفع ضريبة ما شذَّ عنها، **فتقريب العلوم** قد يؤدي إلىٰ السطحية أحيانًا، ومدِّ الجسور والمبالغة في التوافقيَّة أحيانًا أخرىٰ، **ودفن البذور** قد يفوِّت بعض الفرص، **وتمليك الأدوات** قد يجرئ الطلاب علىٰ الترجيح دون تمام آلته ولو بعد أجيال، **والتأصيل القرآني** قد يجعل المصلح يدفع عن الإسلام ما ليس قبيحًا خشية استثماره من الخصوم[1]، **وحلُّ المشكلات** قد تستشكل ما ليس مشكلًا.

وليس من شرط المستهدي القرآني أن يأخذ مفتاحًا واحدًا من مفاتيح النبوغ، بل قد يجمع بحسب طاقته ومواهبه، وظروف بيئته الدعوية، وهدفه المرحلي، وطبيعة المتلقّين.

(١) للشيخ دراز عبارة استنكرتها في الفتوحات وجهاد الدفع، انظر: حصاد قلم، ص٣٢٥-٣٣٣ في مقالة (رأي الإسلام في القتال)، وفي هذا السياق تفهم قاعدة فكريَّة نفسيَّة لافتة، وهي قول الشيخ مصطفىٰ صبري في نقده للكوثري وتأثره بمن أكثر نقدهم (يعني ابن تيمية وابن القيم): «وقد يقع الإنسان تحت تأثير كلمات من يكافحه؛ لكثرة الاتصال به». موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، (٣/ ٣٩٤).

الفصل الرَّابع
التكميل، مثارات الغلط في باب الاستهداء بالقرآن

أُرِيق حبرٌ وافرٌ في ذمِّ الإعراض عن القرآن وهداياته، لكن الحديث عن أغلاط المستهدين ليس بكثير، وفي هذا الفصل سأعرض لمسائل فقهيَّة وعقديَّة يتلبس بها بعض من زلت قدمه في هذا الباب، وهي متفاوتة الرتبة، فمنها ما هو خطأ مرجوح، ومنها ما هو ضلال مبين، ومنها ما هو كفر.

المبحث الأوَّل
فتح المصحف للفأل

وصورته: أن ينوي فتح المصحف والتقاط إشارة من أول ما تقع عليه عينه من كلمات الآيات، فيقدم أو يحجم، والجمهور علىٰ منعه وتحريمه، وأجازه ابن بطة من الحنابلة ولم أقف علىٰ جوازه عند أصحابنا عند غيره.

وهي عند الشافعيَّة علىٰ الكراهة، نصّ علىٰ ذلك عندهم ابن حجر والدميري[1]، ونصَّ الشهاب الرملي والقليوبي علىٰ الجواز.

ويظهر لي منعه وتحريمه لما فيه من طِيَرة، ومشابهة للاستقسام بالأزلام[2].

---

(١) حياة الحيوان الكبرىٰ، (١/ ٧٢)، (٢/ ٩٩).

(٢) انظر: مجموع فتاوي ابن تيمية، (٦٦/ ٢٣)، والمدخل لابن الحاج، (٤/ ٣٨)، والفروق للقرافي، (٤/ ٢٤٠)، والأذكار للنووي، ص٢٥٦، والإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ، ص٧٤، والسنن والمبتدعات للشقيري، ص١٢٣. وقد وهم صاحب الشذرات الذهبية، ص٣٣٩حين قال: «اختار ابن تيمية: جواز استفتاح الفأل في المصحف».
قلت: وسبب وهمه فهمه لعبارة ابن مفلح في الفروع: «واستفتاح الفأل فيه، فعله ابن بطة، ولم يره غيره، وذكره شيخنا، واختاره»، (١/ ٢٤٧)، والذي يظهر لي أن ابن تيمية يمنع الفأل بالمصحف لثلاثة أدلة:
الأول: نصُّه علىٰ المنع بوضوح، قال: «وأما استفتاح الفأل في المصحف: فلم يُنْقل عن السلف فيه شيءٌ وقد تنازع فيه المتأخرون. وذكر القاضي أبو يعلىٰ فيه نزاعًا، ذكر عن ابن بطة أنه فَعَله، وذكر عن غيره أنه كرهه. فإن هذا ليس الفأل الذي يحبه رسول الله، فإنه كان يحب =

المبحث الثَّاني
الاقتباس والاستخفاف

جاء في مختصر الفتاوىٰ المصريَّة للبعلي هذا التفصيل الحسن لابن تيمية: «وليس لأحد استعمال القرآن لغير ما أنزل له، وبذلك فسَّر العلماء الحديث المأثور: «لا يناظر بكتاب الله»؛ أي: لا يجعل له نظيرًا يذكره عنده، كقول القائل لمن قدم حاجة: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾، وقوله عند الخصومة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ ونحوه.

= الفأل ويكره الطيرة. والفأل الذي يحبه هو أن يفعل أمرًا أو يعزم عليه متوكلًا علىٰ الله، فيسمع الكلمة الحسنة التي تسره: مثل أن يسمع: يا نجيح، يا مفلح، يا سعيد، يا منصور، ونحو ذلك» مجموع الفتاوىٰ، (٢٣/٦٦).

الثاني: أن في عبارة ابن مفلح كما في المطبوع نوع اضطراب، وفي مخطوط للفروع محفوظ بدار الكتب المصرية برقم (٤٦ فقه حنبلي ولم تعتمد في طبعة الشيخ التركي) ما يجعل العبارة أوضح قال: «واستفتاح الفأل فيه فعله ابن بطة، ولم يره غيره، ذكره شيخنا، واختاره» [الورقة ١٢/أ]، وهنا يصير المعنىٰ [ذكره شيخنا: أي نقله عن ابن بطة]، ومع أن الفرق في الواو (وذكره شيخنا) إلا أن المعنىٰ تغير، فالواو تعني أن ذكر الشيخ معطوف علىٰ الجواز، وبدون الواو تعني أن «واختاره» عائدة علىٰ «ولم يره غيره».

الثالث: جاء القول بالمنع عن الشيخ صريحًا كما نقله الرحيباني في (مطالب أولي النهىٰ)، (١/١٥٩): «(واستفتاح الفأل فيه) أي: المصحف، (فعله) أبو عبيد الله (ابن بطة) بفتح الباء، (ولم يره) الشيخ تقي الدين [يعني ابن تيمية] (ولا غيره) من أئمتنا».

وبذا تحرر الإشكال، والحمد لله علىٰ نعمه.

ثم إن خرج هذا مخرج الاستخفاف بالقرآن والاستهزاء به؛ كفر صاحبه، وأما إذا تليت الآية عند الحكم الذي أنزلت له، أو ما يناسبه من الأحكام؛ فحسن.

ومن هذا الباب؛ ما يبيِّنه الفقهاء من الأحكام الثابتة بالقياس، وما يتكلَّم فيه المشايخ والوعَّاظ، فلو دعي الرجل إلىٰ معصية قد تاب منها، فقال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾؛ كان حسنًا، وكذا لو قال عند همه: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ونحو ذلك؛ لو قصد به التلاوة والتنبيه بالقرآن علىٰ معنىٰ يخاطب به للحاجة؛ كان جائزًا؛ مثل ما قيل لعلي في الصلاة: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، فهذا ونحوه رخص فيه العلماء»[1]

والمعوَّل في نظر الفقيه عند المنع والتحريم علىٰ مأخذ الاستخفاف، أو الاستهزاء، أو المضاهاة، أو التدليس في الاستدلال.

وفي هذا ملمح دقيق؛ فالمتديّنون أقرب للوقوع في هذا من غيرهم، لأن القرآن علىٰ ألسنتهم ألين، وجمعهم له أكثر، وقد شدَّدت الشريعة علىٰ بعض الخطايا التي يكون المتدِّين أقرب للوقوع فيها من غيره، كحديث أول من تسعر بهم النار، وعندي بسط لهذا الملمح لكن المقام لا يحتمل أكثر من هذه الإشارة.

---

(١) (٢/ ٤٤٣).

المبحث الثَّالث
الاستدلال السطحيُّ

أنزل القرآن هدىٰ ورحمة، فيأبىٰ بعض من يزعم الاستهداء به إلا أن يحرِّفوه عن مقصده، ومنشأ هذا العبث أنهم يعاملون القرآن بما يريدونه منه، لا بما يريده منهم.

ومما يرويه الأديب عباس العقَّاد هذه القصة عن عابث يزعم الاستهداء بالقرآن في تفاصيل حديثه: «كان هذا الرجل في (أسوان)، وكان صاحب رأي في الدين يعدُّ رأيًا جريئًا من مثله، لأنه كان ينكر الأئمة الأربعة، وينكر الفقهاء جميعًا، ويكتفي بالقرآن علىٰ حسب ما يفهم هو بغير حاجة إلىٰ تفسير مفسِّرين وكانوا يسمونه الخامسي؛ لأنه يجيء بعد الأربعة بمذهب في الدين يتبعه ويدعو إليه، ولما ظهر في صباه بهذا المذهب قبل ستين سنة أو قرابتها قامت عليه القيامة، وحملوه إلىٰ الوالي يستتيبه فأبىٰ أن يتوب وثبت علىٰ رأيه إلىٰ آخر حياته.

والمدهش في أمر هذا الرجل ليس هذا وإن كان فيه من دواعي الدهشة ما فيه، إنما المدهش في أمره حقًّا تلك القدرة العجيبة علىٰ استحضار الكلمات بحروفها وألفاظها دون المعاني التي قد تعين الحافظ علىٰ سرعة الإحضار، وكان يحفظ القرآن وكثير من الناس يحفظون القرآن، ولكن الذي يمتاز به هو أنك لا تذكر له كلمة إلا جاءك بما يشبه لفظها من القرآن، ولا عليه من معناها في اللغة ولا في كتب هؤلاء النحاة المذبذبين الذين أدخلوا في الدين ما ليس فيه

وكان لا يقرُّ لك بالعجز أبدًا؛ لأنه كان يعتقد أنه ما من شيء في الدنيا إلا وقد ورد في القرآن بحرفه ونصِّه، فإذا هو عجز عن إخراج كلمة من كتاب الله فقد شكَّ في دينه أو ألقىٰ يد السلم لمجادليه، وكلاهما عنده بلاء عظيم. كنا نداعبه ونسأله: أفي القرآن يا عم فلان ذكر للمليم؟ فما هو إلا أن نفاجئه بالسؤال حتىٰ يكرَّ علينا بالجواب: أي نعم يا بني! قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾. فتقول له: والنِّكلة؟ أفي القرآن ذكر لها؟ فلا يلبث إلا ريثما يجيل السؤال في رأسه ثم يقول: أجل! أجل! فيه يا بني، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾، ولقيناه مرَّة علىٰ شاطئ النيل وفيه باخرة راسية لشركة كوك، فقلنا له: الآن يا عم فلان يتبيَّن الحقُّ من الباطل، هل ورد في القرآن ذكر لكوك؟ فسكت قليلًا، وقال: كيف لا؟ ورفع صوته وكان قوي الصوت جهيره، طويل القامة مهيب الطلعة، وله لحية بيضاء صافية، فجعل يشير إلىٰ الباخرة ويكرر الإشارة إليها يطعن الهواء بأصبعه وهو يقول: إن الله تعالىٰ قال في كتابه المنزل علىٰ نبيه المرسل: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾، ونطق لها كأنما يقول وهو يشير إلىٰ الباخرة: «وترىٰ كوك قائمًا»[1].

وهذا الصنيع منه ضعف في الفهم، واستحسان من يستحسنه -بعيدًا عن حرمته- تردٍّ في الذوق[2].

---

(١) ساعات بين الكتب، ص٥٤٥-٥٤٦.

(٢) ومثله في المسلك قصة المرأة التي لا تتكلم إلا بالقرآن، وهي قصة وردت عن غير واحد، ولم تصح، رواها ابن عدي في الكامل، (٥/ ٤٠٠)، وأبو نعيم في الحلية، (١٢/ ١٨٢)، وابن حبان في الروضة، ص٤٨، وأمارة التركيب فيها ظاهرة، وعلامات الوضع ناصعة، وهي علىٰ ضعفها نبَّه أهل العلم علىٰ حرمة مثل هذا الفعل. انظر: تلبيس إبليس، ص١٤١، والمغني لابن قدامة، (٣/ ٧٧)، وكشاف القناع، (١/ ٤٣٤)، والشرح الممتع، (٦/ ٥٣١).

المبحث الرَّابع
الانطلاق الإنشائي قبل إحكام التأويل

لا يحلُّ لمن لا يعرف معنىٰ الآية أن ينطلق للاستهداء بها، وأحيانًا يكون فيما يسطره مناقضة للمعنىٰ تمامًا، يقول صاحب (قانون التفسير بالمأثور): «وقوم آخرون اتخذوا من تدبُّر القرآن غطاءً لجهلهم بالتفسير، وسببًا لخوضهم في كتاب الله بغير علم، فصار كل صاحب خواطر يدونها علىٰ القرآن، وينزلها منزلة التفسير»[(١)].

وهو داخل في التفسير بالرأي المذموم من وجه، وقد تواتر النكير علىٰ هذا عند العلماء، قال الزركشي: «لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولا، ولا مطمع في الوصول إلىٰ الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادَّعىٰ فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادَّعىٰ البلوغ إلىٰ صدر البيت قبل تجاوز الباب»[(٢)].

وقال ابن كثير: «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة علىٰ تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به»[(٣)].

وأحبُّ في هذا المقام أن يكون المرء منصفًا متزنًا، فلا يرفع اشتراطات المستهدي إلىٰ سقف صفات المفسِّر المجتهد، فمآل بعض الخطابات صرف

---

(١) قانون التفسير بالمأثور، أحمد السلوم، ص١٤.

(٢) البرهان، بدر الدين الزركشي، (٢/ ١٥٥).

(٣) تفسيره، (١/ ١٣).

المسلم عن الاستمداد من القرآن إلا نخبة النخبة، وهذا خلاف مراد الله، وعند التحقيق فإن المستهدي يكفيه معرفة مراد الله من معنىٰ الآية، وأن يكون الاستهداء متوائمًا معه، وكما أن الاستهداء بلا علمٍ ذنب، فترك الاستهداء -وهو حتمي عند من يشدد في الشروط- ذنب أيضًا.

المبحث الخامس
الإغراق في الإشارات

الإشارة: استنباط من الآية الكريمة غير ورادٍ أصالة، له إسناد من الآية، وشاهد من الشرع يؤيده[1].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الأقوال إن أريد بها أن اللفظ دلَّ عليها وأنها هي المراد؛ فغلط، وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس؛ فأمرها قريب. وتفسير الناس يدور علىٰ ثلاثة أصول:

١. تفسير علىٰ اللفظ؛ وهو الذي ينحو إليه المتأخِّرون.

٢. وتفسير علىٰ المعنىٰ؛ وهو الذي يذكره السلف.

٣. وتفسير علىٰ الإشارة والقياس؛ وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفيَّة وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط:

١. ألَّا يناقض معنىٰ الآية.

٢. وأن يكون معنىٰ صحيحًا في نفسه.

٣. وأن يكون في اللفظ إشعار به.

٤. وأن يكون بينه وبين معنىٰ الآية ارتباط وتلازم.

---

(١) الاستنباط الإشاري في القرآن الكريم، محمد يحيىٰ جادو، ص٥٧.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا»[1].

وكلام ابن القيم قد يورَد عليه، ولكنه بالمجمل حسن.

والمقصود أن الإغراق في الإشارات بقصدِ الاستهداء وهَن منهجيٌّ، وسيولة معرفيَّة لا تُقبل.

(١) التبيان في أقسام القرآن، ص١٢٣-١٢٤.

المبحث السَّادس
الاستطالة التداوليَّة

مع تضخُّم أدوات العلوم الإنسانيَّة وحضور الأكاديميا في الحقل الشرعي، صرنا نرىٰ ظواهر لم تكن مألوفة، منها جعل الأدوات التداوليَّة[1] حاكمة لتحليل الوحي من كتاب وسنَّة، وإذا كان السلف يقدِّمون تفسير الفقهاء علىٰ تفسير أهل اللغة[2]، فكيف وقد تغيَّرت مناهج النظر اللغوي إلىٰ اللغويات الحديثة!

وملخص ما أستشكله في هذا الباب أربع قضايا:

١. نبذ سمت كلام العرب الأول، وإهدار إجماع السلف، وجعل القواعد المحدثة حاكمة علىٰ صحَّة الفهم العتيق.

---

(١) يغلب علىٰ ظني أن الدكتور طه عبد الرحمن هو من سكّ مصطلح «التداولية» مقابلًا لـ "Pragmatics"، وكانت قبله وبعده تترجم إلىٰ الذرائعيَّة أو المقاميَّة أو نحو اثني عشر مصطلح آخر أحصيتها؛ انظر ما يؤيد هذا الظن في «تجديد المنهج» ص٢٤٤ ومابعدها، و«في أصول الحوار» ص٢٨.

(٢) يقول ابن رجب الحنبلي في لفتة منهجيَّة مهمَّة: «وهذا الذي قاله أبو عبيد في تقديم تفسير الفقهاء علىٰ تفسير أهل اللغة حسن جدًّا؛ فإن النبي | قد يتكلَّم بكلام من كلام العرب يستعمله في معنىٰ هو أخصُّ من استعمال العرب، أو أعمُّ منه، ويتلقَّىٰ ذلك عنه حملة شريعته من الصحابة، ثم يتلقَّاه عنهم التابعون، ويتلقَّاه عنهم أئمة العلماء، فلا يجوز تفسير ما ورد في الحديث المرفوع إلا بما قاله هؤلاء أئمة العلماء الذين تلقُّوا العلم عمن قبلهم، ولا يجوز الإعراض عن ذلك والاعتماد علىٰ تفسير من يفسر ذلك اللفظ بمجرد ما يفهمه من لغة العرب، وهذا أمر مهم جدًّا، ومن أهمله وقع في تحريف كثير من نصوص السنة، وحملها علىٰ غير محاملها. والله الموفق». فتح الباري، (٢/ ٣٩٩).

٢. عدم استقرار القواعد التداوليَّة وسرعة تطورها، والآيات ثابتة المعنىٰ.

٣. التوظيف المنحرف وكسر القواعد المستقرَّة، ولكَم عجبت حين قرأت في كتاب (التفسير التداولي للنصِّ القرآني) هذا القول: «وقد أردنا من هذا التفسير أن نقف عند بعض النصوص التي من شأنها أن تغيِّر بعض المفاهيم والأحكام التي يمكن أن تقدِّم الإسلام بصورة سمحة ميسرة، في عالم يعجُّ بالتغيُّر والتطوُّر، ويتجاوز الماضي بكل ما جاء به من أسس وثوابت، كلبس الذهب للرجال، وحجاب المرأة، وبعض الحدود، إلىٰ غير ذلك من الجوانب التي تصل بالمدنيَّة، فالنصُّ القرآنيُّ في الحقيقة نصٌّ ليبراليٌّ بامتياز»[١].

فانظر لهذا العبث المتمنهج -المضحك- وهو يتترس بالمصطلحات العلميَّة المتداولة.

٤. لوازم الاستمداد العلمي من مدارس التداوليَّة والنقد، فالتاريخيَّة تصرِّح بأن النصَّ الذي تتعامل معه بشريٌّ، والتحليليُّون في (نظريَّة أفعال الكلام) يصوبون النظر للمتكلِّم ونواياه ومقاصده، ومقامات التلفُّظ، وحال المتكلِّم ومشاعره حين التكلُّم، وهي قواعد أسِّست علىٰ قوانين الخطاب البشري، ومن لم يلحظ الفتنة العقديَّة في تطبيق هذه النظريَّات علىٰ القرآن فعلىٰ بصيرته العلميَّة غشاوة، ومن تشرَّب فهم صفة الكلام لله -تعالىٰ وتقدَّس- علىٰ قانون السلف استنكرت نفسه بعض الإطلاقات التداوليَّة، واستوحشت فطرته من هذه المراوغات اللفظيَّة، فالله وصفاته العلية أجلُّ من هذه الافتراضات المسبقة، وإلا قل لي -علىٰ سبيل المثال-: كيف يطبِّق مسلمٌ افتراضات (غرايس)[٢]

---

(١) التفسير التداولي للنص القرآني، مجدي حسين ص١٠.

(٢) انظر: النظريَّة القصديَّة في المعنىٰ عند جرايس، صلاح إسماعيل، وللدكتور عبد الهادي الشهري لفتة موفقة في كتابه (إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية) حين قال في أواخر مقدمته: «ولا يغرب عن البال أننا تحاشينا الاستشهاد بالخطاب القرآني الكريم أو بالحديث النبوي الشريف؛ تحاشيًا لإخضاع هذين الخطابين للتنظير البشري، وخوفًا من الزلل أو الوقوع في مغبة الاجتهاد غير الموفق». =

ونظريَّته القصديَّة والاقتضاء التخاطبي علىٰ كلام الله، وغيرها كثير.

ولستُ بهذا أغلق باب الإفادة من كل قوانين التداوليَّات مع القرآن والسنَّة ضربة لازب، ولكني مع التأنِّي الشديد، والنخل الواعي، قبل أي توظيف لهذه المناهج، فما نراه في الرسائل العلميَّة في هذه المباحث تهوُّرات لم تُكبح[1].

= وقد قرأت كلامًا حسنًا أفادني للدكتور عادل الغامدي حول «مشكل نظرية أفعال الكلام مع القرآن الكريم».

ووقفتُ علىٰ كراسة بحثية جماعية عنوانها: (ما مدىٰ إفادة المناهج النقدية واللسانية الحديثة في دراسة النص القرآني)، وهي محاولة رخوة لم تصب المحز برأيي.

(١) وددت لو أن طالب علم نابه جاد حسن الأدوات يبحث هذه المسألة من بُعد عقدي، وأشترط أن يكون متعمقًا في الحقل التداولي بصيرًا بدهاليزه ونظرياته ولوازم مصطلحاته.

وهذه المباحث بها تداخل معرفي كان يدركه المحققون الأوائل: انظر فصلاً متينًا فخمًا في أزيد من مئة وعشرين صفحة للعلاء المرداوي رحمه الله (ت: ٨٨٥هـ) في كتابه «التحبير شرح التحرير»، أثبت فيه صفة الكلام لله على قانون السلف مع أن الكتاب في أصول الفقه. [التحرير شرح التحبير، قوله: باب الكتاب القرآن (٣/ ١٢٣٧)].

المبحث السَّابع
استهداء الزَّنادقة

وأعني به ما يدَّعيه منكرو السنَّة أنهم إنما سلكوا هذا المسلك تعظيمًا للقرآن واستهداءً به، ومن عالج هذه المباحث علم أن منتحليها ممن يختطفون خيال الأدلَّة وألفاظها قبل إحكام معانيها، وتسرع النتائج في انقداحها بأذهانهم عند أول بريق، وأن سبيلهم مفضية إلىٰ تفريغ الدين من جوهره، وأحوالهم أصدق شاهد؛ فلا تكاد تجد ممن أخذ مأخذهم رجلًا يُحسن تلاوة القرآن علىٰ وجهه، أو يتعبَّد بما فيه ويعظِّمه علىٰ الحقيقة؛ والتمسْ صدق قولي تجده حقًا.

وقد بُريت سهام أهل السنَّة وأقلامهم في ردِّ عادية النكارىٰ، وسلكوا مسالك مختلفة؛ إلا أنها كخمس أصابع ليد واحد، تتفاوت طولًا وقصرًا، فإذا بطشَت كانت متَّحدة.

وما رأيت أشدَّ موقعًا في نفوس منكري السنَّة من حجَّة الإبانة أن لازم قولهم إنكار القرآن أيضًا؛ فالطعن في السنَّة وحجِّيتها طعن في **إحكام القرآن** الذي أمر بطاعة الرسول ﷺ، وطعن في **نقله**؛ لأن نهج الرواية واحد، وطعن في **هدايته، وإجماعه، واتساقه، وأصل بلاغه**.

والذي أؤمن به أن الشريعة المحكمة الكاملة تحارب هذا الخداع المعرفيَّ، وتمنع صنيع من يصبغ عجزه بألوان الإيمان الوهمي، فالذي صيَّره إلىٰ موقفه هذا عجزه عن التديُّن لا ثقته بالقرآن.

وهذا معنىٰ نتلقَّط مقاصده وأمثلته في مختلف الأبواب الفقهيَّة؛ فالمتواكل -الذي لا يأخذ بالأسباب- لما عجز عن الأخذ بالمأمور به من الأسباب سمَّىٰ صنيعه «توكلًا»؛ فأوضحت الشريعة أن خديعته لا تنطلي، وقُل مثل هذا -بدرجة أخف- في من يأخذ بمسألة الفأل بالقرآن التي شرحناها آنفًا؛ فهو يسمِّي عجزه فألًا، وكذا تراه في عجز النكارىٰ عن الأخذ بالعبادات التفصيليَّة حينها سمَّوا أنفسهم «القرآنيين»؛ والشريعة تأبىٰ هذا، والعبرة بالحقائق لا بالدعاوىٰ.

وهذه الحال المعرفية تشبه ما كان يسمىٰ بالحكمة المموهة؛ يقول موفق الدين عبداللطيف بن يوسف البغدادي عن حال مقاربة لأحوالهم:

«فإن سألت وقلت أي آفة هي أعظم من عدم الحكمة فأقول: اسمع مني فافهم عني واعلم: أن اقتناء الحكمة المموهة أشد آفة وأعظم مضرة من عدم الحكمة الحقة؛ فإن من عدم الحكمة رأسًا شعر بالخلو عنها والفراغ منها والحاجة إليها فكان يتشوقها ويتطلبها ويحرص مجتهدًا في اقتنائها، فأما من عنده حكمة مموهة فإنه يظن أنه غني وهو أفقر الفقراء، ويؤهل نفسه للتعليم والإصلاح وهو أحوج إلىٰ التعلم والصلاح، فمن لا دين له أسرع إجابة ممن له دين فاسد»[1]

وبسط الردِّ التفصيلي لشبهاتهم علىٰ طرف الثمام لمن شاء، وليس هدفي غير الإشارة المجملة.

(١) رسالة النصيحتين ص٦٢-٦٣.

المبحث الثَّامن
تجريد الهداية القرآنيَّة من معاني التوفيق الإيمانـيِّ

يقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وهذا أصل في أن التقوىٰ أعون علىٰ البصيرة من الذكاء والفصاحة وجودة الحفظ وجميع الملكات المعينة علىٰ الفهم، والقرآن عزيز لا يغالب، ومن عزِّته أن فهمه لا ينفذ بقوة ذهنيَّة، وأن فضل الله وتوفيقه وفتحه ومدده هي المعوَّل عليه في أمرنا هذا.

وإني مخبرك عن أمر فلا تعجل بردِّه؛ وهي أن المرء قد يكون متوسِّط الذكاء، محدود القدرات، فإذا هداه الله للقرآن فهَّمه الله وحفَّظه وفتح له في تحقيق علوم كتابه ما يعجز عنه عباقرة الفنون المختلفة، ولو قاولته في مبادئ العلوم الأخرىٰ لعجز عن درك ما يتقنه صبية الكتَّاب، وإذا نظرت للأمر من باب تعظيم كتابه وبركات خطابه بان لك مرادي.

موسىٰ عليه السلام نبيٌّ كريمٌ من أولي العزم من الرسل، كان يدعو الله بقوله: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ [القصص: ٣٤]، وحين تستحضر المدد الرَّبانيَّ ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، و﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]؛ تعلم أن كلام الله يفتح لك بقدَره ما لا تفتحه بقدراتك.

والتذكرة بهذا المعنىٰ التزكوي واجبة في كل حين حتىٰ لا تُنسج عناكب النسيان علىٰ هذا الأصل الأصيل في الاستهداء.

المبحث التَّاسع
الغلط في فهم القواعد والكليَّات

كنحو من يفهم قاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[1]، فيهمِّش سبب النزول، أو السياق، أو إجماع السلف في المعنىٰ؛ ويمسك باللفظة وحدها، ويسوقها إلىٰ حيث يشاء من أودية فهمه.

وقريب منه من يفهم العمومات الدالَّة علىٰ شمول القرآن علىٰ غير وجهها، نحو قول ابن مسعود: «أنزل في هذا القرآن كل علم، وكل شيء قد بيَّن لنا في القرآن»[2]، فيأتي بأنواع العلوم ويتكلَّف وجودها في القرآن؛ كما نُقل عن أبي الفضل المرسي (ت: ٦٥٥هـ) قوله: «جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علمًا -حقيقة- إلا المتكلِّم به، ثم رسول الله صلَّىٰ الله عليه وسلَّم - خلا ما استأثر به سبحانه . . . «ثم قال: «هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلاميَّة منه، وقد احتوىٰ علىٰ علوم أخر من علوم الأوائل؛ مثل الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك»[3].

وقد رأيت بعض الدراسات تنحىٰ هذا المنحىٰ المتكلِّف، منها:

---

(١) انظر تفصيلًا نافعًا لعلاقة العموم بسبب النزول في (المحرر في علوم القرآن)، مساعد الطيار، ص١٣٧-١٤١.

(٢) تفسير الطبري، (١٤/ ٣٣٤).

(٣) انظر: الإكليل، (١/ ٢٤٣-٢٤٧).

- «علوم الهندسة الكهربائيَّة والإلكترونيَّة في القرآن والسنة».
- «علوم الهندسة الضوئيَّة الكونيَّة والبصريَّة في القرآن والسنة».
- «القوىٰ والإجهادات في القرآن والسنة».
- «علوم هندسة النقل والاتصالات في القرآن والسنة».

وغيرها من العناوين، وهي سلسلة بعنوان «سلسلة الدراسات القرآنيَّة»[1].

القرآن كتاب هداية، وليس كتاب علوم هندسيَّة وطبيعيَّة، فيه ما نحتاجه من علوم الملَّة، ويحيل علىٰ ما نحتاجه من غيرها.

وهو عموم أريد به الخصوص كما هو معلوم[2].

هذه طفولة فكريَّة، وكأننا نشَكِّل محبوباتنا لتغذينا بشعور نفتقده، نحن بحاجة لأن نعرف عظمة القرآن، ومواطن إعجازه، دون أن نلبسه معايير عظمة اشترطتها نفوسنا، أو فرضتها ثقافة سائدة؛ كما يصنع أهل التكلُّف في الاستهداء تحت راية الإعجاز العلمي، القرآن عظيم لا يحتاج أرديتنا العلميَّة الحديثة.

والمتأمِّل الذي يعرف قدر الكلام يجد في هذه الممارسة تشنيعًا عند التحقيق، فالعظيم لا يحتاج أن نستدرك عليه صفات إضافيَّة لتكتمل عظمته؛ إلا لشعور خفي فينا بنقصه، وأنه لا يكتمل إلا بشروطنا.

---

(١) مؤلفها المهندس الدكتور خالد فائق العبيدي، وطبعتها جائزة دبي للقرآن الكريم عام ٢٠١١م.

(٢) انظر: نكت القرآن، (١/ ٤٤٣)، والبحر المحيط، (٤/ ١٢٦)، والاعتصام للشاطبي، (٢/ ٥٤٩)، ومجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، (٢١/ ٥٥٢).

المبحث العاشر
ضرب الكتاب بعضه ببعض

سمع النبي ﷺ قومًا يتدارؤون، فقال: «إنَّمَا هَلكَ مَن كانَ قبلكم بهذا، ضَربُوا كتابَ اللهِ بعضَهُ ببعضٍ، وإنَّما نزلَ كتابُ اللهِ يصدِّقُ بعضُه بعضًا، فلا تُكذِّبُوا بعضَهُ ببعضٍ، فمَا علمتُم مِنه فقولُوا، ومَا جهلتُم فَكِلُوه إلىٰ عالِمِهِ»[1].

وهذا المعنىٰ تثبته أصول التفكير الصحيح؛ فنحن نؤمن بكمال علم الله، ونؤمن بأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلًا، وبتركيب المقدمتين يصير السداد أن تردَّ ما لا تعلم إلىٰ من يعلم سبحانه.

سألمح إلىٰ وجه آخر يغيب عنَّا، وهو أن حسن الظنِّ بكمال القرآن ضرورة معرفيَّة لا يمكنك درك الحقيقة دونها.

وبيان هذا: أن إحسان الظن معينٌ علىٰ فهم المعنىٰ، فهو أداة لسانيَّة مضمرة، تمامًا كالسياق؛ فأنت توقن أن «السياق» معين علىٰ فهم المعنىٰ؛ فإذا دمَّرته أهدرت الدلالة أو كدت.

وكذا الأمر في إحسان الظنِّ بالقرآن وكماله؛ أنت تستبطن أنه لا يعني كذا، وحاشاه أن يعني كذا، ومن المستحيل أنه يقصد كذا؛ تنحصر خيارات المعنىٰ المراد في خيارين بالأكثر، والسبب حسن الظنِّ.

---

(١) رواه أحمد، (٦٧٤١)، والطبراني في المعجم الأوسط، (٢٩٩٥).

وهنا أمر بالغ الأهمَّية؛ وهو أن الذكاء البيانيَّ لا يأتي بتوليد احتمالات المعنىٰ، بل من تضييقه حتىٰ نصل لحقيقته، فمن الميسور أن تخرج حتىٰ من الآيات والأحاديث عشرات الاحتمالات الدلاليَّة؛ لكننا نستخدم السياق، والقرائن، ونرد المتشابه للمحكم، ومعهود ظننا من سمت الشريعة، حتىٰ تتهاوىٰ الاحتمالات ويبقىٰ الترجيح محصورًا في معنىٰ أو اثنين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «من فصيح الكلامِ وجيِّدِه الإطلاق والتعميم عند ظهور قصد التخصيص والتقييد، وعلىٰ هذه الطريقة الخطاب الوارد في الكتاب والسنة وكلام العلماء، بل وكلِّ كلامٍ فصيح، بل وجميع كلام الأمم، فإن التعرُّضَ عند كلِّ مسألةٍ لقيودها وشروطها تعجرف، وتكلُّف، وخروج عن سَنَن البيان، وإضاعةٌ للمقصود، وهو يعكِّر علىٰ مقصود البيان بالعكس»[1].

وهذا الذي ذكره أبو العباس رَحِمَهُ اللَّهُ من «سنن البيان» ملحوظة حسنة، فغالب الفهم البدعي المستحدث للآيات والأحاديث قائم علىٰ وهم (عبقريَّة توليد الدلالات).

إذن فإحسان الظنِّ ليس مجرد قيمة أخلاقيَّة سامية، أو مُحكم إيمانيٍّ محض، بل هو معطىٰ معرفيٌّ ضروريٌّ لفهم الكلام علىٰ وجهه، تمامًا كالنظر في السياق؛ وأن عزل الكلام عن أصوله المطوية صنعة أجنبيَّة عن العلم.

في كتاب النكاح، وفي سياق الحديث عن القسم بين النساء توسَّع محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة، وبين حديث عن تثليث وتسبيع أتىٰ بهذه القاعدة المطربة التي أيقظت روحي؛ يقول: «نقول إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ، فاختلف الرواة، ظننا برسول الله ﷺ الذي هو أهنىٰ وأهدىٰ»[2].

---

(١) تنبيه الرجل العاقل (١/ ٣٤٩)

(٢) الحجة علىٰ أهل المدينة (٣/ ٢٥٢)

وأصل هذا المعنىٰ ما يروىٰ عن عليٍّ وابن مسعود ﵄: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثًا، فظنُّوا به الذي هو أهناه، وأهداه، وأتقاه»[1]. وبذا تمت المناهي العشرة للمستهدين.

(١) رواه أحمد (٣٩٤٠)، وابن ماجه (١٩)، وفي بعض النسخ النسخ: أهيأه، وأهداه، وأتقاه.

الـخـاتـمـة

الخاتمة

قناعتان يقينيتان عشت بهما -أثناء تأليف الكتاب- زمنًا رغدًا:

القناعة الأولىٰ: أن تفسير القرآن علمٌ ورتبةٌ، فأما كونه علمًا فجليٌّ، وأما كونه رتبة فسيستبين لك بهذا البسط.

تفسير كلام الله له طبيعته المختلفة عن سائر العلوم، فهو منتهىٰ الطلب، ولا يصل إليه الشداة بسلَّم علميٍّ يبدأ بمتن تفسير مختصر، ثم متوسِّط، ثم يصبح مفسِّرًا، بل هو مجمع الأنهر، وخاتمة التمكُّن العلميَّة واتحاد الأدوات.

وبهذا الفهم استقام لي معنىٰ قول مجاهد بن جبر تلميذ ابن عباس: «استفرغ علمي القرآن»[1].

أرأيتَ من كانت له دلاء يفرغها في موضع حتىٰ يستفرغه، فمجاهد جمع اللغة والأثر والفقه فاستفرغ كل هذه العلوم القرآن وفهمه والتبصُّر به، وهذه جادة مطروقة في أشهر المفسرين:

روىٰ ابن عبد البرِّ بإسناده إلىٰ عطاء أنه قال: «كان ناس يأتون ابن عبَّاس في الشعر والأنساب، وناس يأتون لأيام الحرب ووقائعها، وناس يأتون للعلم والفقه، ما منهم صنف إلا يقبل عليهم بما شاؤوا»[2].

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، (١/ ١٠١).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (٣/ ٩٣٩).

فابن عبَّاس المفسِّر أُلينَ له النظر في كتاب الله بمجموع ملكاته، وتنوُّع معارفه. وكذا ترىٰ الأمر في الإمام الطبري، فقد جاء عند ياقوت: «المحدِّث الفقيه المقرئ المؤرِّخ»[1]، ومن عرف أبا جعفر علم أنها ليست أوصافًا تبجيليَّة، بل هي متحقَّقة فيه علىٰ التفصيل.

فهو حين كان متنوِّع المشارب، واسع المصادر، رحب المآخذ؛ صار مفسِّرًا بالتقاء هذه الأنهر العذبة.

وامدد القول في هذا عند ابن عاشور الفقيه المالكيِّ واللغويِّ البارع، وابن سعدي الفقيه الحنبليِّ وتلميذه الفقيه النحوي محمد ابن عثيمين[2]، والعالم

---

(١) معجم الأدباء، (٦/ ٢٤٤١).

(٢) وقد تبيّن لي أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أرفع مقامًا في التفسير والاستنباط وكشف مشكلات المعاني مما يعتقده كثير من طلاب العلم الذين يحصرونه بالفقه، وهو حقيق بوصف الفقيه وجدير به دون شك، لكني أزعم أن الشيخ مفسِّرٌ أولًا ثم فقيه، ولو أخرج تفسيرًا تامًا للقرآن لرأينا منه عجبًا في الفهوم والأنظار ودقائق الأفكار، وعندي من أمثلة هذه الدعوىٰ حمل بعير وأنا بها زعيم.
ومن أدلة وصفه بالمفسر:
١-النظر في تنوع إنتاجه التفسيري: فالشيخ كتب منظّرًا كتابه: (أصول في التفسير)، وشارحًا في (شرح مقدمة التفسير لابن تيمية)، ومطبّقًا في:
أ. حاشيته علىٰ الجلالين وقد علق فيه علىٰ سور: النور، والعنكبوت، والروم، والأحزاب، وسبأ، ويس، والصافات، وص، والزمر، وغافر، وفصلت، والشورىٰ.
ب. تفسيره من المصحف مباشرة: وقد استمر فيه نحو عقد ونصف، استفتحه عام ١٤٠٧هـ، وانتهىٰ قبيل وفاته، ووصل فيه سورة الأنعام آية ٥٢.
ت. تفسيره الإذاعي (من أحكام القرآن).
ث. تفسيره في افتتاح لقاءات الباب المفتوح كل خميس في منزله، وقد أتم فيه جزء عمّ.
ج. ما جُمع له؛ كتفسير آيات الأحكام من (الشرح الممتع)، وقد سُجّلت في ثمانِ رسائل ماجستير بجامعة أم القرىٰ.
ح- دروسه التعليقية علىٰ الآيات المتلوّة في صلوات المسجد الحرام، يقول تلميذه الشيخ عصام المري:
«وقد كان من براعة الشيخ في التفسير ما لاحظه القاصي والداني في مكة المكرمة في المسجد الحرام في درس الشبخ عندما ينتهي إمام الحرم من القراءة في صلاة المغرب أو الفجر يقوم الشيخ باستفتاح درسه بتفسير هذه الآيات التي تُليت في تلك الصلاة في أي موضع من القرآن =

المتفنن محمد البشير الإبراهيمي، فالتفسير مصبُّ الملكات، ورتبة يصلها المتعلِّم بعد عمرٍ في تحرير العلوم المختلفة.

= كانت، وبدون تحضير سابق لها أو استعداد، ويفسرها كأحسن تفسير كأنه قام بتحضيرها ويستخرج فوائدها».

[الدر الثمين في ترجمة فقيه الأمة العلامة ابن عثيمين ص٢٠٤، وقال نحو هذا صاحب (ابن عثيمين الإمام الزاهد) ص٧٦٢، وللاطلاع علىٰ تفسيره بالحرم انظر: دروس وفتاوىٰ من الحرمين الشريفين في خمس مجلدات، فقد فرغوا تلك الدروس وحرروها].

خ- تفسيره بين الأذان والإقامة، وقد أتم فيه تفسير القرآن كاملًا كما هو ظاهر عبارة تلميذه الشيخ أحمد القاضي؛ يقول: «كان لشيخنا درس عام في تفسير القرآن، يلقيه علىٰ جماعة المسجد، بين الأذان والإقامة، من صلاة العشاء، في التسعينات الهجرية حتىٰ أتمه» [ندوة جهود الشيخ محمد العثيمين ص١٩].

٢- استمراره في تلقي العلوم القرآنية مع علوّ رتبته، وامتلاء وقته، فقد حكىٰ الباحث: د. عبدالعزيز المزيني أنه اطلع علىٰ مصحفه الخاص الذي يفسر منه، وقد كتب في غلافه الداخلي:

«فقد رسمنا بالقلم الأحمر القراءات السبعية في هذه النسخة، استخرجناها من كتاب (غيث النفع) ».

[انظر بحثه: موقف الشيخ ابن عثيمين من القراءات خلال تفسيره، مطبوع ضمن ندوة: جهود الشيخ محمد العثيمين العلمية، جامعة القصيم ص٣٢٩-٤-٤].

وقد ثبت بموازنة التواريخ أن الشيخ وقت كتابته هذه الكلمات قد جاز الستين، وسمعته طبقت الآفاق، وهو حينئذٍ فقيه الدنيا؛ فانظر كيف يكون التفسير خاتمة العلوم، ومصبّ الفهوم.

٣- شهادة المتخصصين المتقنين له؛ فقد وقعت تجربتان متشابهتان تصل لنفس النتيجة:

الأولىٰ: للدكتور خالد السبت [نظرات في كتب التفسير، وهي سلسلة دروس ألقاها في جمادىٰ الآخرة عام ١٤٢٨هـ، ج١، من الدقيقة ٣٨ إلىٰ الدقيقة ٤١].

والثانية: للدكتور عبدالرحمن بن معاضة الشهري [حكاها عنه الدكتور عبدالعزيز العويد ضمن محاضرة «مهارات الاستدلال والاستنباط»، وهو درس ألقاه في الدورة الصيفية ١٨ بجامع الراجحي ببريدة، من الدقيقة ١٥ إلىٰ الدقيقة ١٧].

وخلاصة التجربتين: أن الشيخين كان كل منهما يراجع التفاسير بحسب الوفيات من الأقدم إلىٰ الأحدث، ويجردون عشرات التفاسير تتبعًا للمعاني، حتىٰ إذا وصلوا للمعاصرين قال كل منهما في نفسه: «لا مزيد علىٰ ما وجدناه»؛ فإذا قرؤوا تفسير الشيخ وجدوا معاني جديدة واستنباطات فريدة وأنظار بديعة. =

ومرادي من هذا الحرف أن أدعو المتخصِّصين الشرعيين -في غير التفسير- للصلة بكتاب الله، دون أن نحصر الأمر فيمن درس علوم القرآن أكاديميًّا، فعلوم الآلة للمفسِّر قوامها ما يكتنزه الأصولي إلا قليلًا.

القناعة الثانية: القرآن نزل بالتلقِّي، ومن دأب المصلحين فتح دروس قرآنيَّة لا مجرد تصنيفها في كتب مسطورة، وقد كان من وصايا الشيخ التادلي لتلميذه ابن باديس: «العلم لا ينتشر بقوَّة التأليف، وإنما ينتشر بقوَّة التدريس وكثرة المذاكرة الشفويَّة»[1].

ومعاني القرآن تُستسقىٰ بالتدريس، ومن خالط الشباب علم أن الدروس القرآنيَّة مَناخ الهدايات، وأن المحضن التربويَّ الذي ينغمس طلابه في القرآن استهداء وحفظًا ومدارسة، مباركٌ عظيمُ الأثر، وإن تواضعت الإمكانات.

نشهدُ شحًّا في دروس تبيان معاني القرآن وهداياته في المساجد والمحاضن التربويَّة والمجاميع الافتراضيَّة، والعتب علىٰ من مَلك الآلة العلميَّة، كيف له أن يهجر تعليم القرآن تحت أوهام التهيُّب للقول في كتاب الله، وهو يذرع العلوم الأخرىٰ ترجيحًا وقولًا فيما يحلُّ له وما لا يحلُّ.

إن أقرّ يوم لعيني ليومٌ أجد فيه شبابًا يلتفون حول مائدة القرآن ولهم دويّ كدويّ النحل في إحدىٰ زوايا المساجد، يتحفظون القرآن ويستهدون بمعانيه.

= ٤- تصريح الشيخ برغبته في الاكتفاء بالتفسير في دروسه، فقد روىٰ زوج ابنته الدكتور خالد المصلح قول الشيخ العثيمين:
«وددت لو أنّ تعليمي كله في تفسير القرآن؛ لكن الطلبة ما يطيعون».
[رواها في محاضرة: ابن عثيمين سيرة ومسيرة الدقيقة ٤٥].
ولو أرخيتُ عنان القلم لحدثتكم عن الشيخ ابن عثيمين المفسّر بما يليق بعلمه، وليس ذلك اكتشافًا مني لعبقريته التفسيرية؛ وإنما حالي كحال الكميت، حين قيل للفرزدق: أحسنَ الكميت في مدائحه في تلك الهاشميات (يعني: قصائده في بني هاشم)، قال: وجد آجرًّا وجصًا فبنىٰ.
[رواها الجاحظ في بيانه وتبيينه (٣/ ٢٠٠)].

(١) الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره، عمار الطالبي، (١/ ٤٨).

ومعلمهم الذي وخَطه الشيب يرابط علىٰ هذا الثغر منذ كانوا في أصلاب آبائهم، يخرّج أجيالًا تترقىٰ في مدارج العلو، يتسنّمون المناصب وتخطفهم أضواء التصدر؛ وهو ماكث علىٰ عهده بألا يبرح هذا الثغر القرآني.

وأعيذُك أن تفهم من قولي حثًّا لتقحُّم مَن لا يحسن في هذا الحقل الشريف، ومَن رأىٰ أثر الجفوة عن الوحي في تعطُّش البشريَّة لأي خطاب ظاهره القرآن -ولو انحرف- أدرك أن الباب الذي لا يفتحه العاقل بحقِّه يكسره الجاهل بحُمقه.

واللهُ يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل.

تمَّ الكتاب بحمد الله

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- **آثار البشير الإبراهيمي**، جمع نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولىٰ ١٩٩٧م.

٢- **آثار الشيخ مبارك الميلي**، أبو عبدالرحمن محمود، دار الرشيد، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٣هـ.

٣- **الآداب الشرعية**، شمس الدين ابن مفلح، دار عالم الكتب.

٤- **الإبداع في مضار الابتداع**، علي محفوظ، دار الاعتصام، الطبعة الخامسة ١٣٧٥هـ.

٥- **ابن باديس الرجل العظيم**، أحمد توفيق مدني، مجلة الأصالة، العدد ٤٤، إبريل ١٩٧٧، (مقالة)

٦- **ابن باديس والإبراهيمي وجمعية العلماء المسلمين في الثورة الجزائرية**، أحمد حماني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ.

٧- **صحيح ابن حبان**، أبو حاتم ابن حبان، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٣هـ.

٨- **سنن ابن ماجه**، أبو عبدالله ابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.

٩- **الإتحاف الوجيز: تاريخ العدوتين**، محمد بن علي الدكالي، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، تحقيق: مصطفىٰ بو شعراء، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

١٠- **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، أحمد بن أبي الضياف، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الطبعة الأولىٰ **١٩٩٩**م.
١١- **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
١٢- **إثبات العلل**، الحكيم الترمذي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، تحقيق: خالد زهري، الطبعة الأولىٰ **١٩٩٨**م.
١٣- **إجازات العلامة الشيخ محمد بنعزوز القاسمي الحسني**، جمع: أنس محمد القاسمي الحسني، وعبدالمنعم القاسمي الحسني، دار الخليل للنشر والتوزيع.
١٤- **إحكام الفصول في أحكام الأصول**، أبو الوليد الباجي، مؤسسة الرسالة، تحقيق: عبدالله الجبوري، الطبعة الأولىٰ **١٤٠٩**هـ.
١٥- **الأحكام الفقهية الخاصة بالقرآن الكريم**، عبدالعزيز الحجيلان، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ **١٤٢٤**هـ.
١٦- **أحكام القرآن**، ابن العربي المالكي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة **١٤٢٤**هـ.
١٧- **أحكام القرآن**، أبو بكر البيهقي، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية **١٤١٤**هـ.
١٨- **أحكام القرآن**، إلكيا الهراسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية **١٤٠٥**هـ
١٩- **الإحكام في أصول الأحكام**، علي بن محمد الآمدي، المكتب الإسلامي، بتحقيق: عبدالرزاق عفيفي، الطبعة الثانية **١٤٠٥**هـ.
٢٠- **اختراع التقاليد دراسة في نشأة التقاليد ودوافعها وتطوراتها**، هوبزباوم ورينجر، ترجمة: أحمد لطفي.
٢١- **أدب القاضي**، أبو الحسن الماوردي، دار العاتك، الطبعة الثانية.
٢٢- **الأدب في عصر النبوة والخلفاء الراشدين**، صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة **١٩٨٧**م.
٢٣- **الأذكار**، محيي الدين النووي، دار الفكر، بتحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، الطبعة الثانية **١٤١٤**هـ.
٢٤- **الأساتذة في النثر العربي**، أمين نخلة، الطبعة الأولىٰ **١٩٩٣**م.
٢٥- **استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية**، عبد الهادي الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، **٢٠٠٤**م.

٢٦- **الاستشراق والإسلام: دراسة في أدب غوته**، محمد فلاح الزعبي، دار مجدلاوي، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٩م.
٢٧- **الاستغاثة في الرد علىٰ البكري**، تقي الدين ابن تيمية، دار المنهاج، بتحقيق: عبدالله السهلي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٦هـ.
٢٨- **الاستنباط الإشاري في القرآن الكريم**، محمد يحيىٰ جادو، دار دريم، الطبعة الأولىٰ ٢٠٢٠م.
٢٩- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ابن عبدالبر النمري، دار الجيل، بتحقيق: علي البجاوي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٢هـ.
٣٠- **الإسلام والشعر**، سامي مكي العاني، عالم المعرفة، أغسطس ١٩٩٦م.
٣١- **الإسلام والشعر**، يحيىٰ الجبوري، مطبعة الإرشاد، الطبعة الأولىٰ ١٣٨٣هـ.
٣٢- **أصول في التفسير**، محمد بن عثيمين، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.
٣٣- **أضواء البيان**، محمد الأمين الشنقيطي، طبعة عطاءات العلم، الطبعة الخامسة ١٤٤١هـ.
٣٤- **الاعتصام**، إبراهيم بن موسىٰ الشاطبي، دار ابن الجوزي، بتحقيق: الشقير، والحميد، والصيني. الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ.
٣٥- **إعلام الموقعين**، شمس الدين ابن القيم، مؤسسة عطاءات العلم، الطبعة الثانية ١٤٤٠هـ.
٣٦- **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ٢٠٠٢م.
٣٧- **الأعمال الشعرية الكاملة للجواهري**، جمعها: عصام عبد الفتاح، مكتبة جزيرة الورد، الطبعة الأولىٰ ٢٠١١م.
٣٨- **الأعمال الكاملة لأمين نخلة**، دار صادر، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٥هـ.
٣٩- **الاقتراح في بيان الاصطلاح**، ابن دقيق العيد، دار الكتب العلمية.
٤٠- **الإكليل في استنباط التنزيل**، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٠١هـ.
٤١- **إمام الشام في عصره جمال الدين القاسمي**، محمد بن ناصر العجمي، وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٩م.

٤٢- **الإمام المجدد محمد عبد الله دراز، سيرة وفكر**، أحمد مصطفىٰ فضلية، مكتبة الإيمان، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٠م.
٤٣- **الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره**، عمار الطالبي، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٣م.
٤٤- **أمثال الحديث**، أبو محمد الرامهرمزي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٩هـ.
٤٥- **من أنا**، محمد البشير الإبراهيمي، الوطن اليوم، تحقيق: رابح بن خويا.
٤٦- **انبعاث الإسلام في الأندلس**، علي المنتصر الكتاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٥م.
٤٧- **الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان**، كلود ريفيير، المركز القومي للترجمة، بترجمة: أسامة نبيل، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٥م.
٤٨- **الإنسان والمقدس**، روجيه كايوا، المنظمة العربية للترجمة، ترجمة: سميرة ريشا، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٠م.
٤٩- **الإيضاح لقوانين الاصطلاح**، محيي الدين ابن الجوزي، مكتبة مدبولي، بتحقيق: محمد الدغيم، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ.
٥٠- **البحر المحيط**، أبو حيان الأندلسي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٥م.
٥١- **البرهان في وجوه البيان**، ابن وهب الكاتب، مطبعة الرسالة، الطبعة الأولىٰ ١٣٨٩هـ.
٥٢- **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين الزركشي، دار إحياء الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٣٧٦هـ.
٥٣- **بصائر ذوي التمييز**، مجد الدين الفيروز آبادي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، بتحقيق: محمد علي النجار.
٥٤- **البصائر والذخائر**، أبو حيان التوحيدي، دار صادر، بتحقيق: وداد القاضي، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ.
٥٥- **البيهقي (السنن الكبير)**، أبو بكر البيهقي، مركز هجر، بتحقيق: عبدالله التركي، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ.
٥٦- **تاج العروس**، محمد مرتضىٰ الزبيدي، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت.

٥٧- **تاريخ آداب العرب**، مصطفىٰ صادق الرافعي، طبعة هنداوي.
٥٨- **تاريخ الإسلام**، شمس الدين الذهبي. دار الغرب الإسلامي، بتحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ.
٥٩- **تاريخ بغداد**، الخطيب البغدادي، دار الغرب الإسلامي، بتحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.
٦٠- **تاريخ دمشق**، أبو القاسم ابن عساكر، دار الفكر، تحقيق: عمرو العمروي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ.
٦١- **تاريخ من لا ينساه التاريخ**، إسماعيل بن سعد بن عتيق، الطبعة الأولىٰ ١٤١٣هـ.
٦٢- **التبيان في أقسام القرآن**، ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد، بتحقيق: عبدالله البطاطي.
٦٣- **تجديد المنهج في تقويم التراث**، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية.
٦٤- **التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد ابن باديس**، إعداد مركز البحوث والدراسات، طبعة: آفاق المعرفة.
٦٥- **التحرير والتنوير**، الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٤م.
٦٦- **تحريم كتابة القرآن الكريم بحروف غير عربية أعجمية أو لاتينية**، صالح بن علي العود، وزارة الشؤون الإسلامية السعودية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦هـ.
٦٧- **تحزيب القرآن**، عبد العزيز الحربي، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ ١٤٣١هـ
٦٨- **تذكرة طاهر الجزائري**، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم ٢٠١٢م.
٦٩- **التسهيل لعلوم التنزيل**، ابن جزي الكلبي، دار طيبة الخضراء، بتحقيق: علي الصالحي.
٧٠- **التعاليق والشروح وأثرها في تطوير الدرس الفقهي**، هيثم الرومي، دار المحدث، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٤هـ.
٧١- **التعريف المصطلحي**، حميدي بن يوسف، مركز الكتاب الأكاديمي، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٩هـ.
٧٢- **التعريفات**، الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٣هـ.

٧٣- **التعليم والمدارس في الجزائر**، محمد فريد بك، جريدة اللواء، العدد ٦١٢، ١٣/ ١٠/ ١٩٠١م. (مقالة)

٧٤- **الأساليب التعليمية المستقاة من تراجم الإمام البخاري علىٰ أحاديث كتاب العلم في جامعه الصحيح**، علي الزهراني، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرىٰ، الجزء الخامس عشر العدد السابع والعشرون جمادىٰ الثانية ١٤٢٤هـ.

٧٥- **التفسح في اللغة**، أبو الحسين عبدالله بن محمد بن سفيان النحوي، دار دجلة، بتحقيق: عادل العبيدي، الطبعة الأولىٰ ٢٠١١م.

٧٦- **تفسير ابن باديس**، بتحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلميج، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦هـ.

٧٧- **تفسير القرآن العظيم**، عماد الدين ابن كثير، دار طيبة، بتحقيق: سامي السلامة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ.

٧٨- **التفسير الإذاعي للقرآن الكريم عند العلامة الحكيم محمد عبد الله دراز**، دعاء أبو زيد، مركز إحياء للبحوث والدراسات.

٧٩- **التفسير التداولي للنص القرآني**، مجدي حسين، دار رؤية، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٨م.

٨٠- **التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول]**، محمد عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولىٰ ١٣٨٣هـ.

٨١- **تفسير الخازن** (لباب التأويل)، علاء الدين الخازن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ.

٨٢- **تفسير الراغب الأصفهاني**، أبو القاسم الراغب الأصفهاني، الجزء الأول: تحقيق: محمد بسيوني، الجزء الثاني: تحقيق: عادل الشدي.

٨٣- **تفسير الرسعني المعروف باسم: رموز الكنوز**، عز الدين الرسعني، مكتبة الأسدي، تحقيق: عبدالملك ابن دهيش، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ.

٨٤- **تفسير الطبري** (جامع البيان)، أبو جعفر الطبري، دار هجر، تحقيق: د. عبد الله التركي، الطبعة الأولىٰ.

٨٥- **تفسير القرآن**، أبو المظفر السمعاني، دار الوطن، الطبعة الأولىٰ ١٤١٨هـ.

٨٦- **التفسير الكبير** (مفاتيح الغيب)، الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

٨٧- **التفسير اللغوي للقرآن الكريم**، مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ.
٨٨- **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، أبو منصور الماتريدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٦هـ.
٨٩- **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٠م.
٩٠- **التفسير ورجاله**، محمد الفاضل بن عاشور، مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.
٩١- **التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية**، أبو محمد ابن حزم، دار مكتبة الحياة، بتحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولىٰ.
٩٢- **تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة**، حازم الجيلالي، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م.
٩٣- **التكميل في أصول التأويل**، عبدالحميد الفراهي، بتحقيق: محمد سميع مفتي.
٩٤- **تلبيس إبليس**، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ.
٩٥- **تنبيه الرجل العاقل**، تقي الدين ابن تيمية، مجمع الفقه الإسلامي، بتحقيق: محمد عزير شمس وعلي العمران، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ.
٩٦- **تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر**، محمد سعيد الباني، الطبعة الأولىٰ ١٣٣٩هـ.
٩٧- **تنوير الحالك شرح موطأ مالك**، جلال الدين السيوطي، المكتبة التجارية الكبرىٰ، الطبعة الأولىٰ ١٣٨٩هـ.
٩٨- **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار**، أبو جعفر الطبري، مطبعة المدني، بتحقيق: محمود محمد شاكر.
٩٩- **تهذيب الأسماء واللغات**، محيي الدين النووي، طبعة المنيرية.
١٠٠- **تهذيب اللغة**، أبو منصور الأزهري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، بتحقيق: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الأولىٰ.
١٠١- **توجيه النظر إلىٰ أصول الأثر**، طاهر الجزائري، طبعة مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، بتحقيق: عبدالفتاح أبي غدة،
١٠٢- **تيسير التحرير**، أمير باد شاه، طبعة: مصطفىٰ البابي الحلبي عام ١٣٥١هـ، وصورته دار الكتب العلمية عام ١٤٠٣هـ.

١٠٣- **تيسير الكريم الرحمن**، عبدالرحمن السعدي، طبعة الرسالة، بتحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ.
١٠٤- **التيسير في قواعد علم التفسير**، محيي الدين الكافيجي، طبعة مكتبة القدسي، بتحقيق: مصطفىٰ الذهبي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٩هـ.
١٠٥- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، للرماني والخطابي وعبدالقاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، دار المعارف بمصر، بتحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، الطبعة الثالثة.
١٠٦- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)**، أبو جعفر الطبري، طبعة: دار هجر، بتحقيق: عبدالله التركي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.
١٠٧- **جامع المسائل (المجموعة الأولىٰ)**، تقي الدين ابن تيمية، بتحقيق: محمد عزير شمس، دار عطاءات العلم، الطبعة الثانية ١٤٤٠هـ.
١٠٨- **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبدالله القرطبي، دار الكتب المصرية، بتحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة الثانية عام ١٣٨٣هـ.
١٠٩- **جمال الدين القاسمي وعصره**، ظافر القاسمي، الطبعة الأولىٰ ١٣٨٥هـ.
١١٠- **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منهجها وآثارها**، إسحاق السعدي، رسالة جامعية مطبوعة علىٰ الآلة الكاتبة ولما تطبع بعد.
١١١- **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية**، مازن مطبقاني، رسالة جامعية من جامعة الملك عبدالعزيز.
١١٢- **جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب**، أبو بكر ابن السراج، وزارة الثقافة والهيئة العامة السورية للكتاب، تحقيق: محمد حسن قزقزان، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٨م.
١١٣- **حاشية العطار علىٰ شرح الجلال المحلي علىٰ جمع الجوامع**، حسن العطار، دار الكتب العلمية.
١١٤- **حاشية محيي الدين شيخ زاده القوجوي علىٰ البيضاوي**، محمد بن مصلح القوجوي، دار الكتب العلمية، بتحقيق: محمد عبدالقادر شاهين، الطبعة الأولىٰ ١٤١٩هـ.
١١٥- **الحجة علىٰ أهل المدينة**، محمد بن الحسن الشيباني، دار عالم الكتب.

١١٦- **حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع**، القاسم بن فيرة الشاطبي، تحقيق: محمد تميم الزعبي.
١١٧- **حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، عبد الله حنا، دار ابن خلدون، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٥هـ.
١١٨- **الحركة الوطنية الجزائرية**، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٢م.
١١٩- **حسن التنبه لما ورد في التشبه**، النجم الغزي، طبعة دار النوادر الأولىٰ عام ١٤٣٢هـ.
١٢٠- **حصاد قلم**، محمد عبدالله دراز، جمعها: أحمد فضلية.
١٢١- **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، لمحمد بن محمد الأندلسي الوزير، مطبعة الدولة التونسية، الأولىٰ عام ١٣٨٧هـ.
١٢٢- **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، عبدالرزاق البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار صادر.
١٢٣- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أبو نعيم الأصبهاني، مطبعة السعادة عام ١٣٩٤هـ.
١٢٤- **حياة الحيوان الكبرىٰ**، محمد بن موسىٰ الدميري، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية عام ١٤٢٤هـ.
١٢٥- **حياة كُرّست للقرآن Kur'ana Adanan Bir Haya**، جمالب أرشين ومتين أوشار وميرزا إناك، دار جريدة أكتيف ٢٠١٠م (بالتركية)
١٢٦- **الحيوان**، أبو عثمان الجاحظ، طبعة دار الجيل بتحقيق: عبدالسلام هارون.
١٢٧- **الخصائص**، أبو الفتح ابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بتحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الرابعة.
١٢٨- **الدارس في تاريخ المدارس**، عبدالقادر النعيمي، دار الكتب العلمية.
١٢٩- **دستور الأخلاق في القرآن**، محمد عبدالله دراز، ترجمة: عبدالصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة ١٤١٨هـ.
١٣٠- **دستور الأخلاق في القرآن**، محمد عبدالله دراز، ترجمة: محمد عبدالعظيم علي، دار القلم، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٥هـ.

١٣١- **دفاع عن ظاهرة المتون**، عبد الكريم الأسعد، مقالة بمجلة الدارة، السنة السابعة، العدد الثاني.
١٣٢- **الدليل إلىٰ المتون العلمية**، عبد العزيز القاسم، دار الصميعي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ.
١٣٣- **ديوان البحتري**، جمعه عمر فاروق الطباع، دار الأرقم ببيروت، الطبعة الأولىٰ.
١٣٤- **ديوان نازك الملائكة**، الطبعة الأولىٰ ١٩٧٠م.
١٣٥- **ذخيرة الإخوان في اختصار الاستغناء بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان**، تحقيق: حسن سالم هبشان، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، السنة التاسعة، العدد الثالث عشر.
١٣٦- **ذيل طبقات الحنابلة**، الزين ابن رجب، مكتبة العبيكان، بتحقيق: عبدالرحمن العثيمين، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ
١٣٧- **رجال من التاريخ**، علي الطنطاوي، دار المنارة، الطبعة الثامنة ١٤١١هـ.
١٣٨- **رسالة النصيحتين**، موفق الدين عبداللطيف بن يوسف البغدادي، طبعة إلكترونية غير مؤرخة ولم يُذكر محققها.
١٣٩- **الرسول المعلم**، عبد الفتاح أبي غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧هـ.
١٤٠- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين الآلوسي، دار الكتب العلمية، بتحقيق: علي عبدالباري عطية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ.
١٤١- **الروض الأنف**، أبو القاسم السهيلي، دار إحياء التراث العربي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ.
١٤٢- **روضة العقلاء**، أبو حاتم ابن حبان، دار الكتب العلمية، بتحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد.
١٤٣- **الزاهر في معاني كلام الناس**، ابن الأنباري، طبعة حاتم الضامن، الطبعة الثالثة.
١٤٤- **الزيادة والإحسان في علوم القرآن**، محمد بن أحمد المكي (عقيلة الابن)، مركز البحوث بجامعة الشارقة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٧هـ.
١٤٥- **ساعات بين الكتب**، عباس العقاد، المكتبة العصري، طبعة عام ١٩٨٠م.

١٤٦- **سبع ورقات وثمانية أبحاث**، عبد العزيز الحربي، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٥م.
١٤٧- **سنن ابن ماجه**، طبعة دار إحياء الكتب العربية، بتحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.
١٤٨- **سنن أبي داوود**، طبعة دار الصديق، بتحقيق: عصام موسىٰ هادي.
١٤٩- **سنن الترمذي**، طبعة البابي الحلبي، بتحقيق: أحمد شاكر.
١٥٠- **سنن النسائي الكبرىٰ**، طبعة الرسالة، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط.
١٥١- **السنن والمبتدعات**، محمد بن أحمد الشقيري، دار الفكر بتحقيق: محمد خليل هراس.
١٥٢- **سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي**، أعدها وترجمها: إحسان قاسم الصالحي.
١٥٣- **شجرة الأحوال والمعارف**، العز بن عبدالسلام، دار الكتب العلمية.
١٥٤- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي، دار ابن كثير بتحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط
١٥٥- **الشذرات الذهبية** في اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية، ذياب الغامدي، دار الأوراق الثقافية الطبعة الأولىٰ ١٤٣٩هـ.
١٥٦- **شرح الكوكب المنير**، ابن النجار الفتوحي، بتحقيق: محمد الزحيلي، نزيه حماد.
١٥٧- **الشرح الممتع علىٰ زاد المستقنع**، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.
١٥٨- **شرح درة الغواص**، الشهاب الخفاجي، دار الجيل بتحقيق: عبدالحفيظ فرغلي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧هـ.
١٥٩- **شرح علل الترمذي**، الزين ابن رجب، تحقيق: همام سعيد، طبعة الرشد، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ.
١٦٠- **شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي**، مساعد الطيَّار، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ ١٤٣١هـ.
١٦١- **الشعر في عصر النبوة**، محمود عكاشة، الأكاديمية الحديث للكتاب الجامعي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٧هـ.
١٦٢- **شعراء الجزائر في العصر الحاضر**، محمد الهادي الزاهري السنوسي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، طبعة ٢٠٠٧م.

١٦٣- **شكوىٰ القرطبي من أهل زمانه**، مشهور آل سلمان، دار الكتب الأثرية، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٩هـ
١٦٤- **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، نشوان بن سعيد الحميري، دار الفكر بتحقيق: حسين بن عبدالله العمري، ١٩٩٩م.
١٦٥- **صحيفة الشهاب**، أكتوبر ١٩٣٨م.
١٦٦- **كتاب الشواهد (شواهد القرآن)**، أبو عبيد القاسم بن سلام، مركز سعود البابطين، بتحقيق: رياض الطائي.
١٦٧- **الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث**، حازم زكريا محيي الدين، دار القلم، ٢٠٠١م.
١٦٨- **الشيخ طاهر الجزائري ودوره الإصلاحي بالمشرق العربي**، عبد العزيز العميد، رسالة ماجستير من جامعة الأمير عبدالقدر بقسنطينة عام ٢٠٠١م.
١٦٩- **الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي كما عرفته**، أصلها محاضرة للشيخ عبدالله بن عقيل ونشرها الشيخ عبدالرحمن العسكر عن مدار الوطن مفرغة محررة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٧هـ.
١٧٠- **صحيح ابن حبَّان**، أبو حاتم ابن حبان، دار ابن حزم بتحقيق: محمد علي سونمز وخالص آي دمير.
١٧١- **صحيح البخاري**، طبعة: طوق النجاة، بتحقيق: محمد زهير الناصر.
١٧٢- **صحيح مسلم**، طبعة المنهاج وطوق النجاة، بتحقيق: محمد زهير الناصر.
١٧٣- **الصراع من أجل الإيمان**، جيفري لانغ، ترجمة: منذر العبسي.
١٧٤- **صيد الخاطر**، أبو الفرج ابن الجوزي، ار القلم، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ
١٧٥- **طبقات الشافعية الكبري**، التاج السبكي، طبعة الحلو والطناحي، دار إحياء الكتب العربية.
١٧٦- **الظاهرة القرآنية**، مالك بن نبي، بترجمة: عبدالصبور شاهين، وتقديم محمد عبدالله دراز ومحمود شاكر، الطبعة الرابعة ١٤٢٠هـ.
١٧٧- **عائلة ابن عاشور، رحلة في الفكر العالم التونسي**، لمياء عبيدي، دار كلمة.
١٧٨- **عبد الحميد ابن باديس مفسرًا**، حسن السلوادي، دار الفاروق بالأردن.

١٧٩- **عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي**، مازن مطبقاني، دار القلم عام ١٩٩٩م.
١٨٠- **عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، تركي رابح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٨١م.
١٨١- **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، بتحقيق: خليل شحادة. الطبعة الأولىٰ ١٤٠١هـ.
١٨٢- **العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**، خالد السبت، دار عطاءات العلم، الطبعة الخامسة ١٤٤١هـ.
١٨٣- **العقد (الفريد)**، ابن عبدربّه الأندلسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٤هـ.
١٨٤- **علم المصطلح مبادئ وتقنيات**، ماري كلوديوم، ترجمة: ريما بركة، المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٢م.
١٨٥- **علوم القرآن نقد العلمية ومقاربة في البناء**، خليل بن محمود اليماني، دار نماء للبحوث والدراسات.
١٨٦- **العين**، الخليل الفراهيدي، دار ومكتبة الهلال بتحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي.
١٨٧- **غريب الحديث**، أبو عبيد القاسم بن سلام، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، تحقيق: حسين محمد محمد شرف، مراجعة: عبدالسلام هارون، عام ١٤٠٤هـ
١٨٨- **غريب الحديث**، أبو سليمان الخطابي، دار الفكر، تحقيق: عبدالكريم الغرباوي، عام ١٤٠٢هـ.
١٨٩- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني، طبعة السلفية.
١٩٠- **الفروق (أنوار البروق)**، شهاب الدين القرافي، طبعة عالم الكتب.
١٩١- **الفريد في إعراب القرآن المجيد**، المنتجب الهمداني، دار الزمان بتحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٧هـ.
١٩٢- **فضائل القرآن**، أبو عبيد القاسم بن سلام، دار ابن كثير بتحقيق: مروان العطية وصاحبيه، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ.

١٩٣- **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، محمد بن الحسن الحجوي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦هـ.
١٩٤- **فكر ومباحث**، علي الطنطاوي، مكتبة المنارة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ.
١٩٥- **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.
١٩٦- **القائد الرائد**، محمد الصالح رمضان، مجلة القبس، العدد الثاني، السنة الرابعة، ١٩٧٠م،
١٩٧- **قانون التفسير بالمأثور**، أحمد السلوم، دار طيبة الخضراء عام ١٤٤٢هـ.
١٩٨- **القواعد والأصول وتطبيقات التدبر**، خالد السبت، مركز تدبر، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٧هـ.
١٩٩- **القول الفلسفي للحداثة**، يورغن هابرماس، ترجمة: فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٩٥م.
٢٠٠- **الكافي في الفرائض**، ابن المنمّر الطّرابلسي، دار الميمان بتحقيق: حمزة أبو فارس.
٢٠١- **الكامل في ضعفاء الرجال**، ابن عدي الجرجاني، مكتبة الرشد بتحقيق: مازن السرساوي.
٢٠٢- **كتاب أربع سنوات في السلك الدبلوماسي**، سعد الدين الشاذلي، المؤسسة الوطنية لكتاب، ١٩٨٤م.
٢٠٣- **كتاب الإيمان**، تقي الدين ابن تيمية، المكتب الإسلامي بتحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الخامسة ١٤١٦هـ.
٢٠٤- **الكتاب العربي منذ نشأته حتىٰ عصر الطباعة**، يوهنس بيدرسن، دار كنعان للدراسات والنشر، ترجمة: حيدر غيبه، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٩م.
٢٠٥- **كشاف اصطلاحات الفنون**، محمد بن علي التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٦م.
٢٠٦- **كشاف القناع عن الإقناع**، منصور البهوتي، طبعة وزارة العدل السعودية، الطبعة الأولىٰ (١٤٢١هـ - ١٤٢٩هـ).

٢٠٧- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، جار الله الزمخشري، مكتبة العبيكان بتحقيق: عادل عبدالموجود، وعلي محمد معوض، الطبعة الأولىٰ عام ١٤١٨هـ.

٢٠٨- **كشف المشكل من حديث الصحيحين**، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الوطن بتحقيق: علىٰ حسين البواب.

٢٠٩- **كنوز الأجداد**، محمد كرد علي، أضواء السلف، الطبعة الأولىٰ عام ٢٠١٠م.

٢١٠- **لسان العرب**، أبو الفضل ابن منظور، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة عام ١٤١٤هـ.

٢١١- **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٨م.

٢١٢- **لقاء مي زيادة** مع مجلة الهلال السنة ٣٨، العدد ٤، فبراير. ١٩٢٠

٢١٣- **المؤنس بمباحثة شيخ شيوخنا علامة تونس الشيخ الطاهر بن عاشور**، ناجي بن راشد العربي، مركز إحياء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولىٰ عام ١٤٤٢هـ.

٢١٤- **المبادئ العشرة لعلم الهدايات القرآنية**، فخر الدين المحسي، مؤسسة النبأ العظيم.

٢١٥- **المتحف في أحكام المصحف**، صالح الرشيد، مؤسسة الريان، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ.

٢١٦- **المتواري علىٰ أبواب البخاري**، أبو العباس ابن المنيّر، مكتبة المعلا، بتحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد.

٢١٧- **مجاز القرآن**، أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ، مكتبة الخانجي بتحقيق: محمد فؤاد سزكين، الطبعة الأولىٰ ١٣٨١هـ.

٢١٨- **مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، عبدالحميد ابن باديس، دار الكتب العلمية بتحقيق: محمد الصالح رمضان وتوفيق شاهين، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.

٢١٩- **مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الشرعية**، العدد ١٩٢.

٢٢٠- **مجلة جامعة الملك خالد**، العدد الأول عام ١٤٣٨هـ، المجلد ٢٥.

٢٢١- **مجلة دراسات مصطلحيَّة**، العدد الأول، عام ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

٢٢٢- **مجلة مجمع اللغة العربية**، مجلد ٣.

٢٢٣- **مجموع الفتاوي**، تقي الدين ابن تيمية، جمع وترتيب: محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، طبعة: مجمع الملك فهد عام ١٤٢٥هـ.
٢٢٤- **مجموع رسائل ابن رجب**، جمع: طلعت الحلواني، الفاروق الحديثة.
٢٢٥- **مجموع مؤلفات الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي**، دار الميمان.
٢٢٦- **محاسن التأويل**، جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الأولىٰ عام ١٤١٨هـ.
٢٢٧- **المحرر في علوم القرآن**، مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الشاطبي، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ.
٢٢٨- **محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه**، إياد الطباع، دار القلم، الطبعة الأولىٰ عام ١٤٢٦هـ.
٢٢٩- **مختصر الزاهر**، أبو القاسم الزجاجي، طبعة الأوقاف القطرية، بتحقيق: تامر حسنين.
٢٣٠- **مخطوطة المقصد الأرشد لابن مفلح الحفيد**، نسخة الظاهرية وعليها تملك وتعليقات ابن بدران، رقمها: ٨٧٥٠، ل: ١٥٧.
٢٣١- **مدارج السالكين**، عدة طبعات أشرت لها في موضعها من الكتاب.
٢٣٢- **المدخل إلىٰ علم المختصرات**، عبد الله الشمراني، دار طيبة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ
٢٣٣- **المدخل**، ابن الحاج العبدري المالكي، دار التراث.
٢٣٤- **المدرسة الظاهرية بدمشق**، عزة حسن، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨٢، الجزء ١.
٢٣٥- **مذكرات جابر عصفور** (بعيدًا عن مصر)، الدار المصرية اللبنانية، عام ٢٠١٦م.
٢٣٦- **مذكرات محمد كرد علي**، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٤٨م.
٢٣٧- **مذكراتي في سجن النساء**، نوال السعداوي، طبعة هنداوي ٢٠١٧م.
٢٣٨- **المراحل الثمان لطالب فهم القرآن**، عصام العويد، مركز تدبر، الطبعة الثانية ١٤٣١هـ.
٢٣٩- **مسند أحمد**، طبعة الرسالة، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون.

٢٤٠- **مشكل القرآن في تفسير ابن عاشور جمعًا ودراسة**، علي السكاكر، الجامعة الإسلامية ١٤٣٧هـ.
٢٤١- **مصاعد النظر**، برهان الدين البقاعي، مكتبة المعارف، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ.
٢٤٢- **مصنف عبد الرزاق**، بتحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
٢٤٣- **مطالب أولي النهىٰ في شرح غاية المنتهىٰ**، مصطفىٰ الرحيباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.
٢٤٤- **معارج التفكر ودقائق التدبر**، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ.
٢٤٥- **معاني القرآن وإعرابه**، أبو إسحاق الزجاج، عالم الكتب بتحقيق: عبدالجليل شلبي، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ.
٢٤٦- **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، دار الغرب الإسلامي بتحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولىٰ عام ١٤١٤هـ.
٢٤٧- **المعجم الاشتقاقي**، محمد حسن جبل، مكتبة الآداب بالقاهرة، الطبعة الأولىٰ ٢٠١٠م.
٢٤٨- **معجم المؤلفين**، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنىٰ بيروت.
٢٤٩- **معجم لغة الفقهاء**، محمد رواس قلعجي وحامد قنيبي، دار النفائس، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ.
٢٥٠- **معجم مقاليد العلوم**، جلال الين السيوطي، مكتبة الآداب بتحقيق: محمد إبراهيم عبادة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ.
٢٥١- **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس، دار الفكر بتحقيق: عبدالسلام هارون، الطبعة الأولىٰ ١٣٩٩هـ.
٢٥٢- **المغني**، موفق الدين ابن قدامة، دار عالم الكتب بتحقيق: عبدالله التركي وعبدالفتاح الحلو، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ.
٢٥٣- **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير**، الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

٢٥٤- **مفتاح دار السعادة**، ابن قيم الجوزية، طبعة عطاءات العلم بتحقيق: عبدالرحمن قائد، الطبعة الثالثة ١٤٤٠هـ.
٢٥٥- **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، دار القلم بتحقيق: صفوان داودي، الطبعة الأولىٰ عام ١٤١٢هـ
٢٥٦- **مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية**، عبدالحميد الفراهي، دار الغرب الإسلامي، بتحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٢م.
٢٥٧- **مفهوم التأويل في القرآن الكريم والحديث الشريف**، فريدة زمرد، مركز الدراسات القرآنية القرآنية التابع للرابطة المحمدية للعلماء.
٢٥٨- **مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر**، مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.
٢٥٩- **مفهوم النص دراسة في علوم القرآن**، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولىٰ للمركز عام ٢٠١٤م.
٢٦٠- **مقاصد الشريعة الإسلامية**، الطاهر ابن عاشور، ط. الميساوي، دار النفائس الأردنية،
٢٦١- **المقالات القصار في فتاوي الأحاديث**، أحمد شحاتة الألفي السكندري، لم يكتب اسم الدار ولا الطبعة.
٢٦٢- **مقدمة في صنع الحدود والمصطلحات**، عبد الرحمن السنوسي، دار ابن حزم، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ.
٢٦٣- **ملامح دينية**، زكي مبارك، دار الشعب بمصر.
٢٦٤- **ملحة الإعراب**، أبو محمد الحريري، دار السلام، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٦هـ.
٢٦٥- **منادمة الأطلال ومسامرة الخلان، عبدالقادر ابن بدران**، طبعة المكتب الإسلامي.
٢٦٦- **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبدالعظيم الزرقاني، طبعة عيسىٰ البابي الحلبي، الطبعة الثالثة.
٢٦٧- **منهاج السنة النبوية**، تقي الدين ابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود بتحقيق: حمد رشاد سالم، الطبعة الأولىٰ عام ١٤٠٦هـ.
٢٦٨- **منهج ابن بدران في تفسيره**، عادل الشدي، دار مدار الوطن، الطبعة الأولىٰ ١٤٣١هـ.

٢٦٩- **منهج الاستنباط من القرآن الكريم**، فهد الوهبي، مركز الدراسات التابع لمعهد الإمام الشاطبي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٨هـ.

٢٧٠- **منهج الفرقان في علوم القرآن**، محمد علي سلامة، نهضة مصر بتحقيق: محمد أحمد المسير، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٢م.

٢٧١- **مواهب الجليل في شرح مختصر خليل**، الحطاب المالكي، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ.

٢٧٢- **الموسوعة العربية العالمية**، مجموعة من العلماء والباحثين، الطبعة الثانية.

٢٧٣- **موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين**، مصطفىٰ صبري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

٢٧٤- **موقف خليل بن أيبك الصفدي من شيخ الإسلام ابن تيمية**، أبو الفضل القونوي، أضواء السلف، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٦هـ.

٢٧٥- **ميمية حازم القرطاجني**، بتحقيق وشرح: الدكتور محمد السيد عزوز.

٢٧٦- **النبأ العظيم**، محمد عبدالله دراز، طبعة: كتبكم بتحقيق: عمرو الشرقاوي، الطبعة الثانية ١٤٤١هـ.

٢٧٧- **نتائج الفكر في النحو**، أبو القاسم السهيلي، دار الكتب العلمية، لم يذكر المحقق، الطبعة الأولىٰ ١٤١٢هـ.

٢٧٨- **النضار، الآثار الباقية لجاحظ العصر عبد العزيز البشري**، جمع عبد الرحمن قائد، در آفاق المعرفة.

٢٧٩- **النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح**، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٨هـ.

٢٨٠- **نظرات في الهدىٰ المنهاجي في القرآن الكريم من خلال السور حسب ترتيب النزول**، الشاهد البوشيخي، دار السلام.

٢٨١- **النظريَّة القصديَّة في المعنىٰ عند جرايس**، صلاح إسماعيل، جامعة الكويت، ٢٠٠٥م.

٢٨٢- **نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب**، شهاب الدين المقري، دار صادر بتحقيق: إحسان عباس.

٢٨٣- **النكت الدالة علىٰ البيان في أنواع العلوم والأحكام**، للكرجي القصاب، دار ابن القيم، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٤هـ.
٢٨٤- **النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين**، محمد رجب البيومي، دار القلم، الطبعة الأوىٰ ١٤١٥هـ
٢٨٥- **الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام**، عمار هلال، دار هومة ٢٠٠٧م.
٢٨٦- **الوابل الصيب**، ابن قيم الجوزية، طبعة عطاءات العلم بتحقيق: عبدالرحمن حسن قائد.
٢٨٧- **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين الصفدي، دار إحياء التراث بتحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفىٰ ١٤٢٠هـ.
٢٨٨- **وحي بغداد**، زكي مبارك، دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة المصورة عن طبعة عام ١٣٥٧هـ.
٢٨٩- **وراء البحار**، محمد أمين حسّونة، طبعة مجردة من المعلومات.
٢٩٠- **وظائف شارح المتن الفقهي، دراسة تأصيلية تطبيقية**، محمد مهدي العجمي، في مجلة الجمعية الفقهية السعودية، العدد ٦١.
٢٩١- **وفيات الأعيان**، أبو العباس ابن خلكان، دار صادر بتحقيق: إحسان عباس.
٢٩٢- **اليقين في القرآن الكريم**، وفاء الزعاقي، دار الحضارة ١٤٣٧هـ.
٢٩٣- **اليمن الجمهوري**، عبدالله البردوني، دار الأندلس ٢٠١٠م.